

عبد المجيد بن جلون
في الطفولة

عبد المجيد بن جلون



توزيع



المقر الرئيسي : زنقة الرخاء ــ الحي الصناعي
ص.ب.: 1213 ــ الهاتف: 14-69-79/02-57-79
الفاكس : 43-03-79 ــ الرباط

تحيـــة

أحمد عبد السلام البقالي

كلما التقيت بالبروفسور وائل بن جلون، ذكرني، بإبتسامته الحيية وبصوته الخفيض القوي وأدبه الجم وسَمْتِهِ الرزين المهيب بالمرحوم والده الأديب الكبير والشاعر الرقيق والمترجم الدقيق عبد المجيد بن جلون، صاحب «وادي الدماء» و«في الطفولة»، الكتابين اللذين تتوارث الأجيال الإستمتاع والإعجاب بهما.

وحين قَدِمَ علي هذه المرة، ظننته سيحدثني في شأن مبادرة من مبادراته أو ندواته ولقاءاته العلمية المتعددة التي ينظمها ويتولّى الدعوة إليها وكسب الدعم لها بنفس الروح الوطنية والحماس العلمي الذي عرفناه جميعا في والده، رحمه الله.

ولكنه فاجأني هذه المرة بقوله إن الأسرة تنوي إعادة طبع رواية الوالد «في الطفولة»، وإنها أجمعت على أن أكون أنا كاتب مقدمة الطبعة الجديدة.

فقلت في نفسي : «وهل يحتاج كتاب «في الطفولة» إلى تقديم ؟ ولا سيما من شخص كشخصي المتواضع».

وما كنت لأرفض لعبد المجيد، ولا لآل عبد المجيد بن جلون طلبا مهما عز، فما بالك إذا كان لي فيه كل هذا التشريف والتكريم.

وتأثرت لهذا المظهر من مظاهر الوفاء لذكرى الفقيد العزيز من جانب أسرته، والذي يتمثل في العمل على إستمرار رسالته وتبليغها للأجيال بنشر أعماله، فقررت أن أساهم أنا الآخر بدوري في إحياء ذكرى هذا الصديق الراحل، والترحم على روحه الطاهرة بهذه التحية المتواضعة.

رحبت بكتابة هذه التحية، ولا أقول التقديم، لأسباب كثيرة أهمها شعوري بعلاقة خاصة معه، علاقة تشبه القرابة، قرابة الأخ الأكبر في آصرة الأدب والفكر،

ورفيق المسار. فقد كنت أجد دائما توازيا في مسارينا، رغم فارق السن، وتباعد مسقط الرأس.

فكلانا بدأ رحلته الأدبية في سن مبكرة..

وكلانا بدأ شاعراً ثم انتقل إلى كتابة القصة القصيرة والرواية...

وكلانا كتب سيرته الذاتية، هو في كتاب «في الطفولة» وأنا في «رواد المجهول».

وكلانا لم يقنع بلغة أجنبية واحدة، وخصوصا وانها مفروضة من الإستعمار، واختار الثقافة الأنجلوساكسونية بما تحتويه من ثقافات وروافد فرعية تغطي أغلب مناطق الكرة الأرضية.

وكلانا كرس الكثير من إبداعه الشعري والقصصي للقضايا الوطنية والإجتماعية، وللمشاغبة على الإستعمار والجهل والتخلف !

وكلانا كرس جزءا من وقته لترجمة أعمال أدبية وعلمية وتاريخية، وعدّها ضريبة ثقافية فرضها التفرد المبكر بالإختلاف، وبتلك النافذة المطلة على ثقافة أوسع وأعمق وأكثر إنسجاما مع العقل والطبع العربي. كما فرضتها الغيرة الوطنية وروح المقاومة لهيمنة الثقافة الفرنسية، وحرصها على إبتلاع المغرب، ومحو الثقافة العربية والإسلامية فيه، وزرع بذور الشقاق بين عنصريه، وبالتالي القضاء على الشخصية المغربية، وجعل المغاربة مجرد صور باهتة من الفرنسيين !

وأخيراً كلانا كتب في أدب الطفل. فرغم أن عبد المجيد كتب «وادي الدماء» و«في الطفولة» للكبار يومئذ، فقد كان صغير السن بحيث أصبح الكتابان اليوم صالحين للصغار كذلك.

وأنا على يقين من أن أديب المغرب الكبير كان يشعر نحوي بنفس القرابة ؛ فقد إلتقيت به لأول مرة بمكتب تحرير المغرب العربي بالقاهرة سنة 1953. وكانت شهرته آنذاك تطبق المغرب بشماله وجنوبه.

وكنت قرأت له الكثير مما كان يصلنا بالشمال من القصائد والقصص والمقالات، وتأثرت بأسلوبه المتميز عن الأساليب السائدة في الساحة الأدبية والصحافية آنذاك.

كان يجلس في مكتب صغير مع صديقه وزميله في الدراسة والنضال المرحوم

أحمد بن المليح ولابد أن كثرة زيارات الطلبة المغاربة للمكتب، ومطالبَتهم بالمساعدة الإدارية والمادية كانت تقلق راحتهم، وتقاطع أعمالهم التي كان أغلبها تزويد الصحافة المصرية والعربية بالمعلومات عن أعمال المقاومة بالمغرب وتونس ـ الجزائر لم تكن قد تحركت بعد ـ والإجابة على أسئلة الصحافة والإتصال بالحكومة المصرية لضمان المساعدات والتأييد لثورة المغرب التي إنفجرت بعد نفي المرحوم محمد الخامس، والأسرة الملكية إلى مدغشقر.

وكان مكتبه قبالة الدرج، فتقدمت إليه على إستحياء أنا وصديقي محمد مولاطو، فسلمنا عليه بأدب جم، وعرفته بنفسي وعبرت له عن إعجابي بما قرأت له، فانشرح وانبسطت أساريره، وأدرك أننا زائران غير عاديين، فطلب لنا كرسيين، وجلسنا إليه نتبادل الأحاديث حول المغرب الذي كنا خرجنا منه حديثا، وكان هو ينصت بشوق عظيم، لبعده الطويل عن أرض الوطن، وللأحداث الجسام التي كانت تجري فيه.

وأثناء الحدِيث سألني فجأة «هل أنت البقالي الشاعر ؟» وحين أجبت بنعم، وقف ليصافحني من جديد، وكأنني شخص آخر، ويهنئني على القصائد الثلاث التي كانت قد فازت بجوائز العرْش عن سنوات 50 و51 و1952، ونشرت بجريدة «العلم».

وهي كل ما عُرِفَ من أعمالي في المنطقة السلطانية يومئذ. ومنذ تلك الزيارة توثقت علاقة المودة بيننا، فكنت كل ما قابلته انبسط وانشرح وعاتبني على قلة زياراتي له.

وكان أعظم ثناء تلقيته في حياتي الأدبية هو الذي جاءني منه، مرة، بعفوية وبساطة. وسأحكي قصة هذا الثناء الجميل لأنها تدل على جانب من طبعه النبيل، وتواضعه الجم، رغم ترددي وخشيتي من إتهامي بقلة التواضع.

حدث ذلك قبل وفاته بقليل. وكنا معا في حفل غذاء دعا إليه الوزير الأول في مطعم فردوس بشاطىء الأمم، قرب الرباط، بمناسبة عيد الشباب. وأنا خارج من المطعم، رأيت أديبنا الكبير عبد المجيد بن جلون خارجا كذلك وهو يمسك بذراع صديقه ورفيق دربه الطويل وكفاحه الوطني، الأستاذ عبد الكريم غلاب، أطال الله عمره، ويتكىء عليه ويمشي بصعوبة لفَكٍّ في قدمه. فوقفت أحييه،

وأسأل عن صحته، فألغى سؤالي بإبتسامته المضيئة قائلا : «مجرد مظهر من مظاهر الشيخوخة !».

وأمسك بيدي وقال ؟

قرأت روايتك الأخيرة «دماغ العكروط يبحث عن جاسوس الخارجية» وإستمتعت بها إستمتاعا عظيما !».

وإلتفت إلى الأستاذ غلاب وسأله : «هل قرأتها ؟».

وحين قال له لم يفعل، قال له : «إفعل ! لن تندم !».

وإلتفت إلي وقال : «لن أجاملك يا سي أحمد، والله وددت لو أني كنت كاتب تلك الرواية !».

وأُرتِجَ علي، ولم أجد ما أقول. فتمتمت بكلمات شكر وعتاب على المبالغة التي أحرجتني، وضغطتُ على يده مودعا، وذهبت أجتر هذا الثناء الذي لم أتلق أجمل منه قبله ولا بعده ! وما زال يدفىء قلبي كلما تذكرته.

إذا كانت بعض الأعمال الأدبية تقاليع موسمية تصادف نجاحا باهرا في فترة فراغ بعينها، كأغاني «البوب» وملابس الموضة، فإن سيرة عبد المجيد بن جلون معلمة باقية لا يمر وقتها ولا تختفي كالموضات كالتقاليع. ذلك لأنها عمل يتعلق بجوهر الإنسان المطلق، ويعبر عن إنسانيته في كل زمان ومكان، مهما كان لونه ودينه ووطنه ولسانه. كما هو الشأن في جميع الروائع العالمية الخالدة.

وإذا كان مقدمو الكتب يتناولون محتواها بالدرس والنقد والتحليل، فأنا أفضل أن أتناول الأعمال الأدبية، وخصوصا منها القصة والرواية، أبكارا لم تمسسها يد، ولم يُفْشِ أسرارها قلم أو لسان ! فيكون بذلك وقعهن قويا ومتعهن كاملة صافية.

ولن أحب لقارئي إلا ما أحب لنفسي !

شيء واحد أستطيع أن أقوله عن هذا الكتاب دون أن أكشف سرا، وهو أن قارئه لن ينساه إلى نهاية أيامه، بعد عمر طويل، إن شاء الله.

وطابت قراءتكم.

أحمد عبد السلام البقالي

1992.11.25

1

لو أنني كنت أعرف شيئا عن الأفلاك والأبراج وطوالع الكواكب لما نفعني ذلك في معرفة هل اليوم الذي ولدت فيه كان يوم سعد أو يوم نحس، ذلك أنني لا أجهل هذه الأشياء فحسب، ولكنني أجهل اليوم الذي ولدت فيه أيضا.

ولست حانقا في ذلك على أحد، لأنه يتناسب مع الغموض الذي أحسه كلما حاولت أن أتذكر أيامي الأولى، وماذا يفيد الانسان ان يعرف الساعة واليوم والشهر والسنة التي ولد فيها، مادامت السنون التي سوف يقضيها في الحياة مجهولة، ومادام هناك مقياس للطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة، وهو أصدق في الدلالة على عمره من أيام يشغل نفسه بعدها.

لا أستطيع أن أتذكر بالطبع كيف شرعت في الحياة، ولكن لاشك انني كنت ارفع صوتي بالعويل في الشهر الأول، ولاشك ان ملامحي كانت رخوة لا تمكن الناظر إليها من تخيل الشكل الذي سيتخذه في النهاية هذا المخلوق الجديد، ولاشك أن أول ما أحببته من الدنيا الجديدة التي أقبلت عليها كان هو الرضاع، وأن أول مكروه أصابني هو الفطام.

انني كلما انحدرت مع الماضي افضت بي الحوادث في النهاية إلى عالم غامض، مثل الذي استفاق من حلم نسيه قبل أن يستفيق، لا يمنعه هذا النسيان من تذكر العاطفة التي كانت مسيطرة عليه أثناءه، فهو يستطيع أن يقول ان الحلم كان مزعجا أو هنيئا، بالرغم من أنه لا يتذكر منه شيئا، أما العاطفة التي أكاد أشعر بأنها كانت مسيطرة على نفسي في ذلك الحين فهي مزيج مبهم من الاستغراب والخوف والتطلع، كنت كالذي اكتشف حدود مدينة قديمة فجأة، استغرب للفجأة، وأخاف مما

قد يكون في داخل المدينة، ولكن تطلعي الممزوج بالفضول يدفع خطواتي إليها.

حتى إذا كبرت قليلا واستأنست بالمحيط الذي ولدت فيه بدأ الأمن يعود إلى نفسي، ولكن هذه المرحلة أيضا لا تدخل في دائرة الذكريات. قيل انني ولدت في مدينة الدار البيضاء ثم قضيت في تلك المدينة بضعة أشهر، ثم ركبت البحر بين ذراعي أمي إلى انجلترا، وقد كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، أي انني مررت في بلاد حديثة العهد بالحرب، ومع ذلك لا أذكر منها شيئا يدل على أنني كنت أنتفع بالنظر أو التمييز.

وقد عرفت الحياة لأول مرة في مدينة منشستر، ولابد ان وقتا ليس بالقصير قد مر قبل أن تبتدئ ذاكرتي في اختزان الصور. والصور الأولى القديمة التي احتفظ بها في نفسي قليلة تعد على أصابع اليد.

فتحت عيني فإذا أنا في منزل قديم يحيط به الغموض والابهام، كانت تقع خلفه حديقة كبيرة كثيرا ما أشرفت عليها من النافذة، وتقع أمامه حديقة صغيرة يحدها حاجز حديدي طويل يقوم بين المنزل والشارع ويخترقها ممشى قصير يفضي إلى بوابة عالية من حديد. كان البيت يتألف من ثلاثة أدوار، كبير الابهاء والغرف ضخم النوافذ ملون الزجاج. وكانت هذه الأوصاف تجعلني لا أطمئن إليه أبدا. ولم يكن للحديقة الخلفية الكبيرة بستاني، ولذلك كانت وحشية النباتات، تنتهي بأشجار ضخمة تبعث رعبا مبهما في النفس، وكنت أرى من آن لآخر هرا أو كلبا يجري خلال الأعشاب. ثم يقفز فوق الحاجز ويختفي، وكثيرا ما ساءلت نفسي عن هذه الأشياء التي تتحرك ومع ذلك فهي ليست في شكل الانسان، وما أزال اذكر ان هرا عظيم الهامة داهمني ذات يوم، فصرخت حتى كاد يغمى علي. ومما زاد في يقيني من ان هذه المخلوقات مخلوقات شريرة ان أهل المنزل كانوا يطاردونها. وكانت النوافذ الضخمة ذات الزجاج

الملون تثير في نفسي القلق لضخامتها وللأضواء الملونة الحزينة التي كانت تنفذ منها، أضف إلى هذا الضباب والثلوج وشدة البرد، فقد تعاون ذلك كله على اثارة خيالي العاجز، حتى تأصل الرعب في نفسي.

أما الأشخاص الذين كانوا حولي فهم أبي وأمي والمربية، وكانت علاقتي بالمربية أمتن من علاقتي بأبي الذي كان يغيب عن المنزل طول النهار فلا أراه الا ليلا، وأمتن من علاقتي بأمي فقد كانت شابة ضعيفة، لا تمكنها صحتها الواهية من الاهتمام بي.

وكانت المربية مثلنا من مراكش، ولم أكن أفارقها لا في الليل ولا في النهار، وكنت استغرب لكثرة ما تعرف، فهي لا تنفك تحدثني عن بلاد بعيدة تقول اننا جئنا منها، بلاد تشبه احداثها احداث الخرافات والأساطير، وكانت تروي لي كذلك أقاصيص الصغار. وقد كان لمثل هذه الأساطير على تأثير شديد حتى نشأ عندي بعد ذلك ميل إليها، وقد أثارت في نفسي عالما يعج بالاشباح والحيوانات والمخلوقات الخيالية.

وقد كنت متأكدا من أننا أربعة أشخاص نعيش في هذا المنزل، كما كنت متأكدا من انني أعرف كل غرفه ومداخله ومخارجه، بحيث لم يكن عندي أي شك في أنه لا يمكن أن يكون هناك أحد لم أره، فما راعني ذات يوم الا اننا أصبحنا خمسة أشخاص، فمن أين أتى هذا الشخص الخامس ؟ هو طفلة صغيرة اندست بيننا وازعجتنا بعويلها وصراخها، وقد كنت أعرف ان الذين يزوروننا ليسوا منا، فلا داعي للاستغراب من وجودهم، ولكن هذه الطفلة منا وهم يقولون عنها انها أختي.

راقني جدا ان تكون لي أخت، ولست أستطيع أن أنسى الغبطة التي شعرت بها عندما رفعوني لانظر إليها وهي نائمة في مهدها. ومن يدري، لعلها أعادت إلى ذهني ذكريات كانت قريبة مني يومذاك، ولكنها ضاعت مني الآن بعد أن تراكمت عليها الأيام والسنون.

واقترن بهذا الحادث حادث آخر كاد يطير صوابي، ذلك أننا تعارفنا مع عائلة انجليزية تدعى (آل باترنوس) وهي تشمل أما وثلاث فتيات وشابين وكثرت بيننا الزيارات حتى توثقت وشائج الود بيننا، وكان هؤلاء الأفراد يحبونني برعايتهم ومحبتهم، وربما قضيت في منزلهم اليومين أو الثلاثة، كان منزلهم الصغير يذهب عن نفسي ما أحس به من الوحشة في منزلنا، ولذلك كنت أحرص على أن أصحبهم إليه كثيرا، ثم بدأت أشعر بأنهم يتحاشون مصاحبتي معهم، وبدأت اسمع ان الأم مريضة، ثم قيل ذات يوم أننا سنزورهم. وما كدت اقترب من البيت مع المربية حتى شعرت بأن سحابة من الحزن تظلله. ودخلناه فإذا بجو غريب مكتئب يملأ ارجاءه، وإذا بالدموع الصامتة تنحدر من العيون، والذهول مرتسم على الوجوه، وقضينا بعض الوقت لاحظت خلاله حركة غير عادية محورها غرفة في الدور الثاني. حاولت أن أفهم ولكنني لم أستطع، حتى إذا انصرفنا سألت المربية ونحن في الطريق :

ــ لماذا يبكون ياماما ؟

ــ مسز باترنوس.

ــ مالها ؟

ــ كانت مريضة.

ــ هل يبكون لأنها كانت مريضة ؟

ــ لا

ــ واذن لماذا يبكون ؟

ــ لأنها سافرت وسوف لا ترجع أبدا، فلا تستغرب إذا أنت زرتهم ولم تجدها. سافرت إلى بلاد بعيدة، لا يرجع منها من سافر إليها.

ثم قالت وكأن الكلمة قد أفلتت منها : ماتت يابني.

ماتت ! انه فعل اسمعه لأول مرة. وبالرغم من أنني لم أعرف مدلوله، فقد أحسست بقشعريرة تسري في جسمي الصغير، فسألت :

ــ ماذا يعني ماتت ؟

ــ ذهبت عند الله.

ــ ومن هو الله ؟

همست بنزعتها الدينية : اسكت. ثم بعد هنيهة اردفت : وحينما نجلس في المساء إلى المدفأة سأحدثك عنه.

وجلسنا إلى المدفأة في المساء وقد استولى على نفسي هذا الحوار منذ سمعته فلم أفكر في شيء غير الله والموت.

وكانت الغرفة كبيرة ذات نوافذ عالية تظهر من ورائها الحديقة الموحشة، وذات أثاث ضخم عتيق، وكانت النار تلتهب في الموقد بألسنة لافحة حمراء، ولست أدري هل كانت ماما ــ وهكذا كنت أدعوها ــ تروي لي قصصها، أو كنا في صمت. ذلك انني كنت أرنو إلى النار وقد استولى عليَّ ما سمعته في الصباح.

وبدأ الليل يسدل استاره، واخذت ذراته السوداء تتسرب إلى الغرفة الكبيرة فتشيع فيها مسحة من الغموض، ويزيدها ضوء اللهب الأحمر رهبة وجلالا، وكذلك الأشجار الموحشة التي كانت تبدو وكأنها اشباح شوهاء قائمة في الحديقة، وانتظرت من مربيتي أن تحدثني عن الله والموت فلم تفعل. وأخيرا سألتها دون مقدمة :

ــ لماذا لا يرجع من يسافر إلى الله ؟

ــ لأنه لا يستطيع الرجوع.

ــ ولماذا يسافر ؟

قالت وقد انعكس على محياها ضوء اللهب الأحمر، وبدت تقاطيع

وجهها الحادة كأنها تمثل صرامة القدر، وكانت معانيها تتسرب إلى نفسي مجردة فيخيل إلي أن صوتها يأخذني من كل مكان :

ــ هناك عالم آخر يابني خفي عن الأنظار، ونحن نقضي في هذا العالم عمرنا ثم نموت فيدفن جسمنا في الأرض وتنتقل روحنا إلى ذلك العالم الآخر. ويخلقنا الله حتى إذا متنا حاسبنا على الأعمال التي نقوم بها. فإذا كنا أخيارا أرسلنا إلى الجنة حيث نعيش دائما في سعادة، وإذا كنا أشرارا أرسلنا إلى نار نحترق فيها، ولذلك فلابد من أن تحاسب نفسك وان لا تقوم بالأعمال التي لا يحبها الله، حتى لا يحكم عليك بالاحتراق حينما تموت.

لست اذكر ان حديثا أثار نفسي مثل هذا الحديث، فقد كانت كل كلمة من كلماته تهزني هزا عنيفا، ولم أفكر في الجنة ولا في السعادة الموعودة وانما فكرت في النار، وكنت انظر إليها بعينين ضارعتين متوسلتين كما لو كان في استطاعتها أن تنقذني من هذا المصير المروع الذي ينتظرني، فقلت لها لكي أتأكد مما تقول :

ــ وهل سأموت أنا أيضا ياماما ؟

ــ أنت وأنا وكل من في الدنيا.

ــ ولكن الله لن يبعثني أنا إلى النار ؟

ــ إذا فعلت الخير.

ــ وإذا فعلت الشر فسيأتي أبي وتأتي أمي وأنت فلا تدعونه يرسلني إلى هذه النار. أليس كذلك ياماما ؟

ــ لا يتدخل أحد في شؤون الآخر هناك يابني. ثم سمعتها تقول باللغة العربية دون أن أفهم. «لا إلاه إلا الله. محمد رسول الله، عليها نموت وعليها نحيى».

شعرت بيأس رهيب يتملكني، وكانت عيناي مثبتتين في اللهب المضطرم الراقص أمامي، وخيل إلي أن ألسنته تتطاول لتلتهمني، وكان تفكيري مركزا في النار حتى أنني كنت أحس بروحي تصرخ بين ألسنتها.

ياللبأس ! لا مفر من أن أموت في يوم من الأيام، فيلقى جسمي في التراب المظلم ويظل هناك إلى الأبد يصرخ ويبكي، وتلقى روحي في النار وتظل هناك تصرخ وتبكي إلى الأبد أيضا، فلا اظفر بمساعدة أبي ولا أمي كما اظفر بها في الدنيا، ولا يأتي لانقاذي أحد.

منذ ذلك اليوم اقتطع من نومي جزء ليس بالقليل، وعجت أحلامي في النوم واليقظة بصور مرعدة مبرقة. كنت أتمنى من صميم قلبي ان أجد شخصا يقول لي أن هذا غير صحيح، فلم أجده، وكان كل واحد يروي نفس الخبر ويختمه بدعوتي إلى عمل الخير، الأمر الذي ضايقني. فكيف أستطيع أن أفكر في الخير وأنا مهدد بكل هذا الويل والثبور.

وابت الحياة بعد هذا الحادث مباشرة الا أن تصيبني بحادثة أخرى أشد وأقسى.

2

كانت أمي كما قلت من قبل شابة ضعيفة، فكثيرا ما كنت أراها طريحة الفراش، وما أزال أذكر ان أياما كاملة كانت تمر دون أن أراها. وقد كنت أشعر نحوها بعطف خفي، بالرغم من أنني كنت أميل كل الميل نحو المربية، لأنها كانت مستأثرة بليلي ونهاري كما قلت، ولكن صورتها ضاعت من ذاكرتي تماما، ولست أذكر الا حادثة واحدة تقترن بها.

كنت ألعب ببعض اللعب وحيدا في الغرفة، وإذا انصرفت إلى اللعب، انصرفت إليه تماما كما لو كنت أزاول عملا من الأعمال، وكانت عندي لعبة تتطلب مني جهدا كبيرا، وهي عبارة عن قطار يجري على قضبان من حديد، وكانت هذه القضبان طويلة ومتشعبة تشغل أرض الغرفة كلها تقريبا، يستغرق تركيبها مني وقتا كبيرا. وقضيت وقتا طويلا في تركيبها، ثم في انزال العربات فوقها، ثم شد العربات إلى القاطرة وأخيرا تم ما كنت أرمي إليه، وبدأ القطار يجري فوق قضبانه في سهولة ويسر.

دخلت أختي إلى الغرفة في هذه اللحظة بالذات وهي تحبو، وما كادت ترى القطار يجري حتى حبت إليه مغتبطة به، ولكنها لم تكتف بذلك وإنما وضعت يدها الصغيرة على القضبان ورفعتها فتفككت أجزاء القطار وانقلب على الأرض، وتبعثر في لحظة ما جمعت في ساعات، فلم أطق صبرا على هذا الاعتداء، ولم يكفني أن أصرخ واستغيث وانما خرجت من الغرفة أجري ثم رجعت وأنا أحمل عصى كبيرة أخذت أضربها بها فبكت المسكينة بكاء مؤلما، وسمع أفراد العائلة في الغرفة المجاورة بكاءها فأقبلوا مسرعين وأقبلت أمي ورفعتها من الأرض، ثم ناولتها إلى المربية وأرادت ان تضربني فهربت فتبعتني، ولجأت إلى أبي الذي حماني،

وماتزال صورتها إلى الآن أمامي وهي تحاول عبثا أن تضربني، وهو يهدئها، فتقول له انه بحمايته يشجعني، وانه لابد من تربيتي حتى لا أتعلم الاعتداء على غيري مرة أخرى. هذه هي الصورة الوحيدة التي احتفظ بها لأمي.

ثم احتفظ لها بالصورة الأخيرة، وهي الصورة التي لا يمكن أن أنساها ما حييت. اختفت أمي وبدأت أرى شخصا غريبا يحمل في يديه حقيبة يزورنا كل صباح ويصعد إلى غرفتها، ثم شعرت بالعيون تتعلق بهذا الشخص، ثم بدأت الأحاديث تنقلب إلى همس، وساد البيت جو من الكآبة والحزن ذكرني باليوم السالف الذي زرت فيه آل باترنوس، ولكنني لم افهم من الحقيقة شيئا ولم يحدثني أحد عنها.

بدا القلق على أبي بشكل واضح، فقد أصبح يقضي اليوم كله ــ على غير عادته ــ في المنزل، ولست أدري كم طال هذا الشذوذ الذي ساد المنزل ولكني أذكر ذات يوم أن مربيتي بدأت تغير لي ثيابي كما اعتادت ان تفعل حينما نكون على أهبة الخروج، وكانت الدموع في عينيها. ثم جاءت (ميللي باترنوس) وأخذتني إلى منزلها، ودخلت المنزل فإذا بالاخوة يعانقونني ويتحدثون عن عمري. وقضيت معهم بقية اليوم في هذا الجو الغريب. وأخيرا في المساء سمعت ميللي تقول لإخوتها :

ــ ان هذا لا يجمل، لابد من أن يرى المسكين أمه للمرة الأخيرة. كيف يمنعونه من هذا ؟ ان في اخفاء الأمر عنه قسوة لا تطاق، ثم التفتت إلي ورفعتني إلى المائدة وعانقتني، ثم قالت : لا تثق بكل ما يقال لك، انهم يضللونك، لقد ماتت أمك المسكينة، وسآخذك الآن لرؤيتها على فراش الموت، ولكن عدني بأن لا تبكي ولا تخاف.

لست أدري هل وعدتها أم لا، ولكنها أخذتني من يدي ورجعت بي إلى المنزل، فوجدنا فيه أناسا كثيرين، وتقدمت إليهم قائلة : انه لابد أن يرى أمه.

ما أزال أذكر هذا الموقف الرهيب، حينما أخذنا طريقنا إلى السلم المظلم، وبدأت أصعده بخطوات مضطربة، وهذه الفتاة الانجليزية النبيلة آخذة بيدي، وكانت عيناي مركزتين في أعلى السلم، كما لو كان شبح الموت يطالعني منه. لم أكن أدرك تماما جلال الموقف، ولكنني كنت حزينا مغموما يخيل إلي أن المنزل يكاد يطبق علي، ودلفنا قليلا إلى باب الغرفة، ثم وقفنا أمامها وهي مقفلة، ثم فتحتها ميللي، فإذا بي أرى من خلال فتحة الباب غرفة ساكنة كما لو كان كل شيء فيها قد مات أيضا، ولم أر أمي جالسة في السرير، تستقبلني على عادتها بوجهها البشوش المستبشر، وانما رأيت أمامي سريرها وقد ظللته سحابة رهيبة، وتدلت إلى جانبه اغطيته الساكنة حتى كادت تلمس الأرض، ولم تكن تبدو منه حركة، حتى الصدر كان هادئا كما لو كان قطعة من السرير.

ثم تقدمت ميللي وأخذتني من يدي وبدأت تسعى بي إلى داخل الغرفة. كان كل شيء يغرق في الصمت ويغرق مع مرور الوقت، حتى خيل إلي أن الحياة قد انهارت وأصبحت اطلالا صامتة لا حراك ولا ركز.

واقتربنا رويدا من السرير، ثم وقفنا إلى جانبه، وقد تعلقت به نظراتي حتى لم أعد أرى ولا أحس في الغرفة بشيء سواه، ورفعتني ميللي فرأيت من وراء ثوب شفاف ملامح وجه أمي الباهتة، وكأنه عني بعيد بعيد، يبدو وراء ضباب الموت، ثم تقدمت إلى هذا الوجه بيد مضطربة وكشفت عنه الثوب الشفاف، وإذا بوجه واضح هو وجه أمي بعينه قد علته صفرة ذهبية هامدة، وتدلت على جانبي رأسها خصلات شعرها الكستنائي الكث الطويل وقد غار فيه ما كان يحفل به من حيوية وبشر، وحل محلهما الهدوء والاطمئنان والرحمة، وقربتني ميللي إليها لأقبلها، فلمست بشفتي المرتجفتين خدها واحسست وانا أفعل ببرودة الموت تسري في أوصالي المضطربة واغرورقت عيناي بالدموع.

وأخيرا أعادتني ميللي إلى وضعيتي، فلم أعد أرى وجه أمي، وهكذا اختفى عني إلى الأبد. وكانت تلك النظرة هي النظرة الأخيرة إلى ذلك الوجه الذي أحس نحوه اليوم بحنين غريب.

ثم خرجنا من الغرفة ونزلنا السلم بنفس الخطى الوئيدة التي صعدنا بها، واستقبلنا في أسفله وجوه مكتئبة ونظرات تائهة، ولكن ميللي أبت ان تسلمني لأحد، مخافة أن يكون للمنظر تأثير سيء على نفسي، وإنما أخذتني إلى الحديقة الخلفية حيث جلست معي على مقعد خشبي لكي تسري عني.

كنا في فصل الصيف من السنة، وكانت الليلة صافية والقمر الكبير يتلألأ في كبد السماء، فتتسلل أضواؤه خلال الأغصان وتضيء الحشائش، وتمتد تحتها على الأرض ظلال الأشجار الباسقة، فامتلكني المنظر بجلاله ورهبته، ولكن ميللي صرفتني عنه بحديثها، إذ سمعتها تقول :

ــ لا تحزن يا صغيري، فهذه هي الحياة، ان أمك لم تغب ولن تغيب لأنها كانت امرأة خيرة، ولذلك فسوف تظل معنا بروحها، وسوف يجازيها الله على طيبتها فتعيش في جنات النعيم، فلا تخف عليها، وحاول أن لا تحزن. انظر إلى السماء ان الجنة هناك وراء القمر، ووراء النجوم، فإذا أردت أن تراها فانتظر بزوغ القمر، ثم انظر إليها، فستراها هناك تطل عليك مبتسمة مستبشرة ؟ انظر، انظر الست تراها ؟

ورفعت عيني إلى القمر، تحت تأثير إيحائها خيل إلي أنني أرى من خلال دموعي وجه أمي يطل علي من السماء داخل صفحة البدر الكبيرة. وكان إيحاؤها قويا حتى انه ما يزال يخيل إلي إلى الآن انني أراه كلما رفعت عيني إلى القمر، فأقول انه وجه أمي.

خفف من كآبة نفسي ما قالته لي ميللي في الحديقة ذلك المساء، وعزاني قليلا، ذلك أنني منيت نفسي بأن أمي معي في العالم وانها تزورنا

من آن لآخر بواسطة تلك الصفحة المضيئة التي تنير سواد الليل البهيم.

ولست أدري كيف انتهت تلك الليلة، ولكنني اذكر أن هذا الحادث كان له تأثير كبير على المنزل وعلى حياتنا. فلم يمر وقت طويل حتى فارقنا هذا المنزل الضخم المستوحش الذي ما تزال ذكراه إلى الآن تشيع في إحساسي نوعا من الرهبة والاضطراب.

وقد أخذتني المربية في اليوم التالي إلى الحديقة العامة وحاولت أن تصرف نفسي عن ذلك الحادث، وأخذت تحدثني عن حبها لي وعطفها علي، وتحاول أن توحي إلي انها أمي، حتى كدت اقتنع، وقد استمرت بعد ذلك تلح في اقناعي حتى اقتنعت بأنها أمي وبأن المرأة التي ماتت كانت أختها.

وهكذا قضيت ــ ومعي أختي الصغيرة ــ الأيام التالية من طفولتي، وأنا أعتقد أنها أمي. ومما رسخ عندي هذا الاعتقاد رعايتها لنا وحدبها علينا، فقد جعلت من حبها العميق لنا بلسما سحريا شفى نفسينا من ذلك الجرح الممض الذي أصابنا. فإذا قلت بعد هذا «أمي» فإني فخور بأن تكون هي المرأة التي أعني.

3

كان المنزل الجديد الذي انتقلنا إليه على عكس القديم صغير الغرف حديث الأثاث أمام واجهته حديقة صغيرة منسقة، ولم يكن فيه شيء يثير في النفس الرهبة والخوف، ولذلك فقد استأنست به ورأيت فيه خلاصا من ذلك المنزل الغامض القديم.

كان المنزل الجديد يقع تماما أمام منزل آل باترنوس، ولذلك لم أعد في حاجة إلى أحد إذا أنا أردت أن أزورهم، فنحن معا نسكن شارع «بارك فيلد» وليس علي إلا أن اقطع الشارع لأصل إلى منزلهم وما أزال أذكر ان رقمه كان (47) بينما كان رقم منزلنا الجديد (40).

سرعان ما ترعرعت وبدأت الحياة تتفتح أمامي، فلم تعد محدودة في بضع غرف وحديقة، وانما اتسعت وبدأت أتعرف إلى العالم الواسع، وقد اتسعت بشكل جعلني أتعطش إلى متابعتها واكتشاف ما لا أعرفه منها. وشجع آل باترنوس هذا الميل عندي، لأن الحياة معهم كانت أوسع أفقا.

كثيرا ما كانت ميللي تقبل عليّ وتخبرني بأننا سنخرج، فعلي أن أذهب إلى أبي ليزودني بالنقود، فاذهب إليه وأطلب منه ذلك، فإذا دفع إلي بورقة مالية أرجعتها إليه وآبى الا ان يعطيني (بنسات)، ذلك أنني كنت أعتقد أن البنسات وحدها هي النقود الثمينة، فيضحك أبي ويعطيني ما أريد. ولكن ميللي تصيح بي أول ما نخرج وتحذرني من مثل هذا التصرف، وتقول لي خذ منه الورقة ولك علي من البنسات ما تشاء. وكان نفس الشيء يتكرر في المرة التالية لأن قول ميللي لم يكن مقنعا.

بواسطة هذه الفتاة بدأت أتعرف إلى الحياة، واتسع افق وجودي، فكان من أول الأماكن التي عرفتها السينما والمسرح، والحديقة العامة وحديقة

الحيوان، وكانت لها منزلة خاصة لأنها كانت تشبع عندي غريزة حب الاستطلاع.

كانت السينما تخلق أمامي مثلا عليا، وكانت هذه المثل العليا تدور حول القوة العضلية التي تهب للشخص القدرة على السيطرة على ما حوله، وكنت اغتبط إعجابا بركوب الافراس والملاكمة والقفز والسباحة، وكل ما يعبر عن تلك القوة العضلية، وكنت انفعل عند رؤيته انفعالا شديدا أنسى معه كل ما حولي. وقد كانت الافلام السنمائية في ذلك الوقت حافلة بهذا اللون من التمثيل.

أما المسرح فكنت أشعر فيه بشيء آخر. كانت الأنوار الملونة التي يذوب بعضها في بعض تفتر إحساساتي، وتخلق عندي نوعا من الاستعداد للشرود والهيام، فينقلب المسرح إلى سحابة شفافة ترقص فيها فتيات من نور قد أفرغن في قوالب سحرية يتابعن الألحان في رشاقة تخلب الألباب، فيخيل إلي الناظر إليهن انهن موسيقى مجسمة أروع تجسيم، ناضجات الصدور ناعمات الأجياد، خفيفات الخطى، مستبشرات الثغور، تتحرك صفوفهن حركة واحدة مع الألحان الراقصة الناعمة. ويتناثرن ثم يجتمعن ثم يتتالين زمرا كأنهن الأحلام. كنت أحبهن حبا بريئا، وأعجب كيف لا نقابل مثلهن في الحياة، واعتقد أنهن أمثلة لصفاء النفس، ونقاء الضمير، وحب الخير، وان الله خلقهن من الرحمة المجردة.

ولا يعني هذا أنني كنت أطمئن تمام الاطمئنان للمسرح. ذلك أنني كنت أعرف ان الممثلين أحياء مثلي، وانه يمكن لمسهم ومعاملتهم، على عكس الممثلين في السينما فقد كنت أعرف أنهم لا يعدون ان يكونوا مجرد خيالات، لذلك كنت أخشى المناظر المثيرة في المسرح. ظهر أمامي ذات يوم فجأة على المسرح فهد خيل إلي أنه هائل، فما كدت أراه حتى دب الخوف في قلبي، ولما رأيته يتحرك كما يشاء بدأت أحس أنني

في خطر، وشعرت بأنه إذا رآني وأراد أن يلتهمني فليس عليه الا أن يقفز ويتخطفني، ولذلك أحسست بفيض من الارهاب لم تتحمله أعصابي، فصرخت وظللت أصرخ إلى أن اضطرت ميللي إلى الخروج معي.

ومما أذكر عن المسرح أننا ذهبنا إليه مساءاً أنا وأمي وميللي وأختيها، وكانت الرواية هزلية، ولكن شيئا منها لم يبعثني على الضحك، فقد كانت حركات الممثلين تبدو لي سخيفة فاستثقلتهم ومللتهم، ثم بدأت احقد عليهم، وانظر إليهم في عبوس، وفطن النظارة حولي إلى عبوسي إلى درجة أنهم بدأوا يتهامسون به، وأخيرا استطاع أحد الممثلين أن يبتسر مني الضحك ابتسارا. وما كادت شفتاي تنفرجان بالضحك حتى علت حولي عاصفة من الضحك المماثل. وانتبهت فإذا بالعيون كلها متعلقة بي، فبعثني ذلك على أن اتضاءل في مكاني، فقد كنت أكره كرها شديدا ان تتعلق بي الأنظار أو أن أكون محورا لحديث بين جماعة من الناس.

وربما ذهبنا إلى إحدى الحدائق العامة، حيث كان يتمثل لي تفتح الحياة وازدهارها. وكنا نذهب إليها غالبا في فصل الصيف أو الربيع، فلا نكاد نقبل عليها حتى أحس بنفسي تنشرح وكأنها تنطلق من عقال. ألتفت يمينا ويسارا فتأخذ عيني الزهور المتفتحة ذات الألوان البهيجة التي تخلق حولي جوا من الخيال وتستقبلني حيث التفت رائحة الأريج المنعشة التي كانت تثمل روحي الصغيرة، وتحيط بهذه الزهور خضرة الأرض والأغصان، وفوقها زرقة السماء الصافية، تسطع فيها أشعة الشمس الدافئة.

كنا نقابل أصنافا من الناس يعلو البشر وجوههم جميعا على تباينهم، ومن بينهم أمثالي من الأطفال. وكنت إنتبه لكل شيء، لأن كل شيء كان جديدا بالنسبة إلي، ولكن هؤلاء الأطفال كانوا يسترعون انتباهي أكثر من الآخرين، فلا تكاد تقع عيني على واحد منهم حتى أتابعه بنظراتي إلى أن يغيب. كنت انتبه للباسهم ولعبهم وتصرفاتهم، وكنت أشعر بأن المخلوقات

الأخرى التي تقع عيني عليها بعيدة عني فلا يمكن أن أفكر فيها، وكأنها شيء لا يتعلق بي. أما هؤلاء الأطفال فشأنهم شأن آخر، كنت أشعر بأنني ندلهم، ولذلك فلابد من متابعتهم ومعرفة الجو الذي يعيشون فيه حتى استفيد من ذلك، كنت استمتع بكل ما أرى استمتاعا مجردا عن الأغراض، أما الأطفال فكنت أتابعهم بدافع من تلك المصلحة، ولم أكن أحس نحوهم بعاطفة مجردة. كنت اتتبع عندهم ما استحدث من المخترعات في عالم الألعاب، فلا يقر لي قرار حتى اقتنيها، واتتبع عندهم كل ما يكون جديدا بالنسبة لي فانتفع به في حياتي.

وكان في طليعة ما يأخذني كثرة ما يوجد من الناس في العالم. فأنت لا تستطيع أن تذهب لأي مكان دون أن تقابل فيه أناسا وأناسا كثيرين من كل لون ومن كل صنف، فكانوا يشغلونني فاعجب لكثرتهم واختلافهم : الطويل والقصير، النحيف والسمين، الجميل والقبيح. اضف إلى ذلك أنني كنت مغرما بتتبع اختلاف الثياب التي يرتدونها، فإذا رأيت منها جديدا لا عهد لي به من قبل وقفت وأطلت إليه النظر في استغراب حتى ينتبه إلي صاحبه، وحتى ينبهني من قد يكون معي إلى أن مثل هذا التصرف معيب لا يليق بالطفل المهذب.

وامتع منظر كان يثير اعجابي في تلك السن المبكرة، هو منظر فتاة تأبطت ذراع فتى وكل منهما منصرف إلى الآخر يحادثه ويضاحكه. ولست أدري ماذا كان يبعثني على الاعجاب بهما ان لم يكن ما يبدو في طلعتهما من عافية.وشباب وجمال.

لقد كنت أوقن بأن ما أعرف من الحياة ضيق ومحدود، وان ما أجهله منها واسع وبعيد. ولذلك فقد كانت هذه الحدائق العامة بالنسبة لي كالمعرض الذي يحوي هذه الأشياء الجديدة التي لا أعرفها. ومن الأمكنة التي كنا نزورها حديقة الحيوان. ولعلي لست في حاجة إلى أن أقول أن

حديقة الحيوان كانت أوقع في النفس من أختها حديقة الانسان. فإن كل شيء فيها لم يكن جديدا بالنسبة إلي فحسب، ولكنه كان غريبا أيضا.

أليس غريبا أن تنظر لأول مرة إلى هذه المخلوقات المخيفة في أمان منها وهي وراء قضبان الحديد في الأقفاص، وان تطيل أمامها الوقوف دون أن يمسك منها سوء ؟ أضف إلى ذلك حاجتي إلى رؤية نماذج من هذه المخلوقات التي كنت اسمع عنها كثيرا في القصص، دون أن يستطيع خيالي الصغير تصورها.

كانت الحيوانات والطيور مختلفة، منها الجميل الذي يستأنس برؤيته، ومنها المخيف الذي تهز رؤيته الجنان. اما هذه الأخيرة فقد كنت أقف أمامها في تمام الحذر، فلم يكن عندي من المستحيل أبدا أن تتمرد هذه الأجسام الجبارة في أقفاصها، وتندفع في قضبان الحديد، فتتساقط كأنها من زجاج، وكنت أحاول أن أتصور بخيالي مدى ما يحدث من الكوارث لو أنها فعلت ذلك، وكان من المرعب أن تنتقل مثل هذه الهواجس من رأسي إلى رؤوسها... وكنت أقف أمام الأسد فأسمع الناس يقولون عنه انه أقواها جميعا، فأرفع إليه بصري لأتأمله في حذر، فإذا بهامته الضخمة وتفاصيل جسمه القوية تثير الرعب، وأبصره يحرك عينيه البطيئتين البراقتين ثم ينزل بهما حتى يستقر نظره عليَّ، فتكاد تلك النظرات الثابتة المغمومة تصعقني. ولم يكن يخفف من هذا الارهاب الا أن تلك النظرات كانت شاردة لا تقف عند شيء تقع عليه، ولذلك فإنه لم يبد عليه وهو يخترقني بنظراته انه يقيم لي أي وزن.

وقد ادفع إلى ركوب الفيل مع جماعة من الأطفال، ولولا أنني كنت استأنس بهم لارتميت من فوقه دون تردد، لأنني لم أكن عاجزا عن تصورهم جميعا داخل تلك البطن العظيمة التي كانوا يوجدون مباشرة فوقها.

حتى إذا تكررت زيارة حديقة الحيوان بدأت آمن ما فيها، وبدأت أستطيع الوقوف دون خوف أمام الحيوانات الشديدة الافتراس وأتأملها. وكنت كلما وقفت أمام حيوان منها تصورته طليقا في الغابات ثم أقارن حياته الحرة تلك بحياته السجينة هذه، فأرثي لحاله ولحال أقربائه الذين فقدوه في الغاب.

هذه هي الأشياء الجديدة التي تعرفت إليها بعد انتقالنا إلى المنزل الجديد فإذا لم أذهب لزيارة أحد هذه الأمكنة فانا في منزل آل بترنوس القريب.

4

لا أستطيع أن أتذكر اليوم الذي تعارفنا فيه مع آل باترنوس، فإن ذلك أبعد من متناول ذاكرتي. وآل باترنوس عائلة انجليزية من أصل يوناني، نزحت إلى انجلترا فيما غبر من الزمان، وهي تتألف من أخوين اسم أحدهما «جورجي» وهو شاب أنيق اجتماعي، قل ان يوجد في البيت. واسم ثانيهما «أندريه» وهو أيضا شاب، ولكنه يختلف عن أخيه بكثرة صمته وشروده وميله إلى العزلة. فهو لا يكاد ينتهي من عمله حتى يهرع إلى البيت، ويقضي فيه الساعات الطوال، اما جالسا وحده في غرفته واما أمام المدفأة يقرأ الصحف.

ثم تأتي بعد ذلك الأخوات الثلاث. وكبراهن «ميللي» وهي قصيرة القامة ذات شعر فاحم كث، وحاجبين كثيفين أسودين، تحتهما عينان عميقتان. ولها شخصية مرحة عابثة بريئة. ثم «ألليني» وهي أطول منها قامة وادق جسما، يميل شعرها إلى الحمرة، دقيقة الملامح زرقاء العينين، تميل كل الميل إلى الجد. ثم بعد ذلك صغراهن، واسمها «انجي» وهي اجملهن واحفلهن بالحياة، ذات قوام رشيق، لها بشرة صافية، وجيد طويل ناعم، وتقاسيم واضحة، لا تستطيع أن تعبرها بعينيك إذا ما رأيتها، ولها ميل إلى الترف والظهور بمظهر المعتز بنفسه وجماله.

وكانوا يقيمون جميعا في هذا المنزل الذي ورثوه عن أمهم الراحلة، ويشغل أربعة منهم وظائف كتابية، أما الخامسة وهي ميللي فمتفرغة للاشراف على شؤون المنزل، ولذلك فقد كانت أقربهم إلي، وكذلك أندريه الذي كان يقضي ساعات طويلة من النهار في المنزل، وكانت المائدة تجمعهم في الساعة السادسة مساء، فيتناولون طعام الغداء ثم يستريحون، ثم يخرج معظمهم وتظل ميللي واندريه غالبا في المنزل وحدهما، وقد يظلون حيث هم يتسامرون إلى أن يحين وقت النوم.

يتألف المنزل من دورين وتوجد في الدور الأول غرفة الاستقبال، ذات المقاعد الوثيرة، وقد زينت جدرانها بالصور. وتقع فيها العين هنا وهناك على تمثال صغير أو باقة من الزهور أو تحفة صغيرة تسترعى الانظار. ويوجد بها إلى جانب ذلك حاكي ومجموعة كبيرة من الأسطوانات، ثم تليها غرفة الجلوس العادية، وبها بعض المقاعد والكراسي، ومنضدة قد تراكمت عليها الصحف، وفي الزاوية رفوف عليها كتب. ثم غرفة المائدة وفيها مائدة كبيرة مربعة تحيط بها الكراسي، وعلى أحد الحيطان رفوف طويلة ملأى بمستلزمات المائدة، وفي الزاوية قفص كبير به ببغاء. ويتألف الدور الثاني من ثلاث غرف، لكل من الشابين غرفة والثالثة وهي أكبرها مخصصة للأخوات الثلاث.

في هذا المنزل قضيت الكثير من أوقات الطفولة، وكنت أقطع الشارع إليه في الصباح فأجد ميللي منهمكة في عملها فأؤنس وحدتها، وربما انصرفت عن عملها لتلاعبني قليلا، وربما جلست إلى جانبها في المطبخ لتحدثني عن شيء أو تحكي لي قصة. فإذا وجدتها في الدور الثاني تعيد ترتيب الأسرة فقد ترفعني وتلقي بي على أحدها فوق ظهري وهي تداعبني.

وعندما يحين وقت عودة الجميع في المساء أسرع إلى ميللي لاستقبلهم فيغتبطون بي، فإذا حدث ما يمنعني من ذلك، قالت ميللي في الصباح انهم سألوا عني وافتقدوني، وقد اخرج مع إحداهن يوم الأحد فأذهب معها إلى المسرح أو السينما أو الحديقة العامة.

كان أروعهم جميعا بالنسبة إلي هو اندريه المتصوف، فقد كنت أقضي الساعات إلى جانبه انظر إليه وهو يقرأ، كان يجلس إلى المائدة دون سترة، وقد نزع ربطة عنقه، وفك عرى قميصه، ثم يفتح الصحيفة أو كتاب وينكب عليه يلتهمه. كان يفنى فيما يقرأ، وكان منظره رائعا حينما أراه وقد غابت أصابعه بين شعوره الطويلة الكثة الفاحمة، وأخذ يداعبها

دون شعور، حتى تدلت فوق صدغه. كنت أجلس صامتا إلى جانبه أرنو إليه فأراه مرة يبتسم، ومرة يضحك، ومرة أخرى يعبس، وربما نهض إلى الغرفة المجاورة، ورجع منها حاملا كتابا ضخما، فيفتحه وينظر فيه قليلا ثم يعيده إلى مكانه. كنت أشعر ان القراءة جزء من حياته، وانه كان يحيا فيها، وأتمنى أن أعرف لماذا يبتسم أو يضحك أو يعبس، وأرجو أن أعرف لماذا يأتي بالكتاب الآخر، ولماذا كان ينظر فيه. وكنت أسائل نفسي وهو يقرأ ماذا في هذه الكتب ؟ عم تتحدث ؟ ومن الذي يضعها ؟ ولماذا يضعها ؟ وكنت ألح عليه في السؤال، وأخيرا جاءني ذات يوم بكتاب يحتوي على قصة مصورة، تمثل كل صورة مرحلة من مراحل القصة، فشرحها لي، فاغتبطت بها وخيل إلي انني فهمت المراد من هذه الكتب.

كان اندريه سريع الانفعال، حطمت مدافع الحرب العظمى الأولى أعصابه، فهو يغضب بسرعة، ويضحك بسرعة، وكنت أنظر إليه وهو يدخن ويرنو إلى نار الموقد، ثم فجأة أرى أوداجه قد انتفخت، وإذا به ينتفض وينهض في اضطراب ليذرع الغرفة جيئة وذهوبا، ثم يقف فجأة، ويغرس أصابع يديه المنفرجة في شعره ويضغط بيديه على رأسه بشكل عصبي مثير، فأتضاءل في الكرسي خوفا منه، ولكنه لم يكن يلتفت إلي، وكانت تمر عليه لحظات طويلة وهو على هذه الحالة. وقد عرفت فيما بعد ان الحوادث المرعبة التي شاهدها وهو جندي، سكنته بأشباحها وأتلفت كيانه، وهيمنت على شعوره، فهو لا يستطيع أن يتذكرها دون أن تتوتر أعصابه، وتغمره موجة من الانفعال الشديد. ولكنني بالرغم من ذلك كنت أحبه وأعجب به لأنني كنت أشعر وهو يتحدث إلي بقلبه الكبير.

أما ألليني فكنت أشعر بشيء من البرود وأنا معها. فهي فتاة يضل الابتسام طريقه إلى ثغرها، وهي تقيم وزنا كبيرا للتقاليد، وقلما تنطلق من قيودها لتداعبني. لقد كانت تحبني حبا محترما.

والأخ جورجي كان يشبع فضولي وحبي للاستطلاع. فهو دائما محاط بالأشياء الجديدة، وقد كنت ألتقط منه حركاته وعاداته، لأنني كنت معجبا بأناقته، فكنت أتتبع تصرفاته، وانتبه لما يلبس وكيف يلبس، ولم يكن أحب إلي من أن أتسلل إلى غرفته وهو يستعد للخروج، لأنظر إليه وهو يتأنق، وكنت في خلال ذلك أتمنى من صميم قلبي أن أكبر حتى أستطيع أن أكون مثله. فإذا أتم تأنقه ثم لبس القبعة وسعى إلى المرآة يتأمل نفسه يمينا وشمالا، خرج إلى الباب وشيعته بنظرات كلها إعجاب، حتى يغيب عنها في الشارع الطويل الذي ينطلق فيه. وفي يوم الأحد صباحا يرتدي جورجي بذلة (الجولف) ويخرج حاملا أدوات اللعب، ثم يركب سيارة تكون في انتظاره عند باب المنزل.

كان هناك تجاوب ودي بيني وبين ميللي، أما أنجي فقد كنت أحبها واستظرفها، كانت جميلة حقا، ولكن جمالها لم يكن جمال ضعف واستكانة، وإنما كان جمال قوة وسيطرة، كانت مثلا للعافية والرشاقة والجمال، وكنت أشعر وأنا إلى جانبها بأنها تمتلك قوة سحرية تسيطر بها على من يكون معها، وهي أصغر اخوتها وأبعد ما تكون عن القيود والتقاليد، مرحة النفس طيبة القلب، ذات ميل طبيعي إلى الروائع وما ثمن من الأشياء، فكل ثمين في المنزل ملك لها، ولكن هذا الميل فيها لم يكن يدفع بها إلى الكبرياء.

كانت تناديني في بعض الأحيان وهي جالسة وحدها في غرفة الاستقبال، حتى إذا ما أسرعت إليها أخذتني بين ذراعيها تحدثني في دعابة وخفة، وكان وجهي يحاذي وجهها فأشعر بدافع غريب يرغمني على تأمل محاسنها : عيناها الدعجاوان الواسعتان الضاحكتان، جيدها الناعم الطويل الذي طالما دفنت فيه وجهي، خدها الأسيل المورد، صفحة وجهها الساحرة الملساء، وشعرها الكستنائي المتموج، ووجهها المشرق الصبوح.

كنت أذهب معها في بعض الأحيان إلى المسرح فيقابلنا شاب أنيق عند مدخله، ولست أستطيع أن أنكر أنني كنت أضيق بهذا الشاب وأستنكر وجوده، خصوصا حينما أجدها منصرفة إليه في الحديث، فقلت لها ذات مساء بعد أن فارقناه :

ــ أنجي، من هو هذا الرجل ؟

ــ لماذا تسأل عنه ؟ انه صديقي، ألا يروقك ان يكون لي صديق ؟

ــ نعم يروقني، ولكن هذا الرجل لا يعجبني.

ــ ولماذا لا يعجبك ؟

ــ لست أدري لماذا.

ــ الم أقل ان الطفل المستقيم يحب الناس جميعا ؟

ــ نعم ولكن الطريقة التي يكلمك بها !

ــ ولكنه صديقي.

ــ انني أخاف أن يهرب بك فلا تثقي به، ألم تنتبهي إلى الطريقة التي يكلمك بها ؟ انه ماكر.

ما كدت أنطق بهذه الكلمات التي كانت تعبر عن شعوري نحو هذا الشاب، حتى لاحظت عليها الشرود، وكانت قد أثرت فيها، ولذلك ضمتني إلى جانبها قائلة :

ــ يالك من طفل مشاكس.

ولما رجعنا إلى المنزل، سمعتها تحدث أختيها عن هذا الحوار، وختمت حديثها قائلة : انها تخشى أن يكون ذلك انذارا على لسان الطفل الصغير.

هؤلاء هم آل باترنوس، وذلك هو منزلهم الذي قضيت فيه وقتا ليس بالقصير من الطفولة، فإذا لم أوجد عندهم فأنا في منزلنا.

5

كان منزلنا أيضا يتكون من دورين، تقع في الدور الأرضي منه غرفة الاستقبال وغرفة المائدة وغرفة الجلوس، وتقع في الدور الثاني غرفة جعل منها أبي مكتبا له ثم غرفة نومه ثم غرفة ثالثة أنام فيها أنا وأختي.

وقد تعرفت في هذا المنزل إلى كثير من صور الحياة عن طريق أبي وأمي وأختي، وعن طريق هؤلاء الذين كانوا يزورونا، وقد كان أسلوب الحياة يختلف عندنا كثيرا أو قليلا عن أسلوب الحياة في منزل آل باترنوس.

وأول هذا الاختلاف أن منزلنا قلما كان يخلو من زوار، وكان هؤلاء الزوار غرباء تمام الغرابة بالنسبة إلي أنا الذي لا يعرف الا قليلا عن اختلاف طبائع الناس وألوانهم باختلاف الشعوب. لم يكن الذين يزورونا من الانجليز الذين ألفتهم وإنما كانوا مراكشيين، وقد كنت أتتبع حركاتهم وسكناتهم فأجد فيها شيئا جديدا، وكنت أصغي إلى كلماتهم وهم يتخاطبون فاستغرب لهذه الحروف الضخمة التي يلفظونها في سهولة ويسر. أي أناس هؤلاء ! انه لا يكاد يجتمع منهم ثلاثة أو أربعة في غرفة حتى يملأوا جوها بأصواتهم العالية وضحكاتهم الصاخبة، وكانت عندهم قدرة غريبة على التقاط الأصوات المختلفة إلى درجة انهم كانوا يتكلمون جميعا مرة واحدة، فيكون الواحد منهم متكلما وسامعا في وقت واحد.

كان النساء يزرن أمي أثناء النهار فيعلو ضجيجهن وهن يتكلمن حتى أنك لتسمعهن من الشارع، كن يرفعن أصواتهن بحيث يخيل إلي أنهن يتنازعن، ولكن ذلك لم يكن يتلاءم مع الضحك الذي يتخلل حديثهن، فأبقى في حيرة من أمرهن. ولم أكن أعرف حرفا واحدا مما يقلن، وكنت

أعجب للزي الذي كن يرتدينه في المنازل، وأعجب من صنع هذا الزي، ولكنني في نفس الوقت كنت أطمئن إليهن اطمئنانا غريبا، لأنني كنت ألمس طهارة نفوسهن حينما يداعبنني، كما كنت ألمس قوة شخصيتهن في تصرفاتهن، ولكنني كنت لا أطيق النظر إلى بعضهن، وهن الخادمات السود، كنت أخشاهن من أعماق قلبي، وأزعم أنهن أمثلة حية لما يرد في أقاصيص أمي من مخلوقات مشوهة قاسية، وان حشو أجسامهن السوداء نفوسا سوداء كذلك كلها قسوة وحنق وبغضاء، ولذلك فلا تكاد إحداهن تدخل المنزل حتى أتسلل منه وأهرع إلى منزل آل باترنوس عبر الشارع فلا أعود إلا بعد أن أتأكد من أن منزلنا قد خلا منهن، وعبثا كانت أمي تحاول أن تطمئنني إليهن، وكيف تستطيع ذلك بعد أن أرعبتني بأقاصيصها عن أمثالهن ؟

هناك شيء بالذات حيرني دون أن أجد له تفسيرا، ذلك هو ابتعادهن عن الرجال حتى خيل إلي أن بين الجنسين عداوة لا تمحيها الدماء، ولكن ذلك كان يضيع حينما تكون الواحدة منهن مع زوجها. وإذن فما هو السبب في ابتعاد النساء عن الرجال والرجال عن النساء ؟ كنت ألاحظ في بعض الأحيان أن إحداهن تدخل غرفة تحسبها خالية، حتى إذا وقعت عينها على رجل خرجت مسرعة وقد احمر وجهها، وربما صرخت، ولم تكن تكتفي بذلك وإنما كانت تسرع إلى غرفة أخرى وتقفل خلفها الباب.

لم يخطر ببالي ان ما كنت أراه كان لعبة الظهور والاختفاء يلعبها هذان الجنسان دون ملل على النحو الذي خطر على بال أحد الأدباء الأوروبيين حينما زار مراكش ــ كما علمت فيما بعد ــ لأن عقلي كان أصغر من أن يتصور ان أمة بأسرها تلعب لعبة خالدة لا نهاية لها. واذن فما هو السر ؟ حاولت أن أجده عند أبي وعند أمي وعبثا حاولت أن أفهم

تفسيرهما، وأخيرا انصرفت عاجزا عن الفهم حينما قيل أن ذلك من تقاليدنا، وتخيلت أن التقاليد شيء مبهم ليس من الضروري أن يفهم.

كنت معجبا بوجوههن النضرة وجمالهن الغض، ولكنني كنت أرثي لحالهن فهن مثل انجي في الجمال، فلماذا تكون انجي ساحرة تشيع حولها الغبطة والبهجة ؟ ولماذا تكون ـــ دونهن ـــ رشيقة أنيقة وكل شيء فيها رائع جميل، كنت أرى من الواضح أنهن جميلات ولكنهن لم يكن أنيقات، وكنت أعرف ان ذلك يرجع إلى الزي الذي كن يرتدينه، إذ لم يكن فيه ذوق ولا أناقة، فبدلا من رأس انجي العاري ذي الشعور المتموجة كنت أرى كومة من الحرائر والمجوهرات تعلو رؤوسهن، وبدلا من جسم انجي اللدن المتكسر، كنت أرى الثياب المدلات كأنها الستائر، وبدلا من قوام انجي الرشيق كنت لا أرى شيئا على الاطلاق، وبدلا من وجه انجي المتفتح العاطل كنت أرى وجوها ملطخة بالاصباغ فأرثي لحالهن، وقد أراهن عاطلات فأشعر بسحرهن ثم اتفقد هذا السحر والجمال بعد ذلك واستغرب أين ضاع، ولكن لا تسل عن عجبي حينما أبصرت ذات يوم إحداهن وقد ارتدت وهي تعبث زيا مثل زي انجي، فبدت رائعة ساحرة مثلها، لا تقل عنها رشاقة ولا أناقة ولا جاذبية، وبذلك استطعت أن أنفذ إلى سر جمال أخفته عني الحجب والاستار والاصباغ، وساءني بعد ذلك جدا أن أعود فأراها في زيها القديم.

أما الرجال فكانوا في الغالب يجتمعون في المساء، فإذا اجتمعوا فلابد من أن أقضي معهم أكبر وقت مستطاع، لأنني كنت أجد لذة في ذلك. كانوا أبرع من النساء في رفع الأصوات والاستماع في وقت واحد، وكانوا أكثر صخبا وأشد حرارة، كان حديثهم صيحات وقهقهات، وكانوا يكثرون من العبث حتى يخيل إليك انهم لا يعرفون الجد، ويكثرون من الجد حتى يخيل إليك انهم لا يعرفون العبث.

وربما اجتمع أربعة منهم للعب الورق، أثنان ضد اثنين، وكان لعبهم غريبا، فأرى اللاعب يتناول ورقة بين أصابع يده ثم يلوح بها في الفضاء مرات، ثم يتناولها بإبهامه ووسطاه ويضربها ضد سبابته بضع مرات أخرى، ثم يحولها يمينا أو يسارا، كل ذلك وصاحبه منتبه إلى هذه الاشارات كل الانتباه، ثم يلقي بالورقة إلى الأرض في قوة ويرنو إلى صاحبه محاولا أن يتأكد من انه فهم عنه ما يريد، فإذا حصلت غلطة بسيطة ضجت الغرفة بالصياح، وويل للمغلوب فإنه كان يحكم عليه بلبس قلنسوة من الورق كانت تروقني جدا، ولا يجوز له أن ينزعها إلا إذا محا عن نفسه الغلب.

لم يكن ليغيب حتى عن طفل صغير مثلي أن ما يحيط بهؤلاء الناس مبالغ فيه، فهم يبالغون في صياحهم وفي ضحكهم وفي أكلهم وفي لباسهم وفي غضبهم وفي عبثهم وفي كل ما يتصل بهم، كل ذلك في بلاد لا تعرف المبالغة إليها سبيلا، كانوا يصيحون بين قوم يهمسون ويقهقهون بين قوم يبتسمون، ويحركون أطرافهم بين قوم لا يكادون يتحركون، ولست أدري هل كان الهمس والابتسام والسكون يزيد في تشويه الصياح والقهقهة والحركة أم ان هؤلاء الناس كانوا حقا مبالغين !

حدث ذات مرة ان بلغت أحدهم رسالة بوفاة والدته، فرفع صوته بالعويل في منزله، وكان السكون يسود الشارع بحيث سمعه أهل الحي جميعا، فاقبلوا كلهم وأحاطوا بالمنزل يستفسرون عما حدث كما يفعلون عندما يشب حريق أو تنزل نازلة، وحدث مرة أخرى أن داهم هذا الرجل نفسه كلب ضخم في وسط الشارع فانطلق يصيح ومن ورائه الكلب ينبح، وأسرع سكان الحي إلى نوافذهم فإذا بهم يرون منظرا عجيبا ربما كان الأول من نوعه في تاريخ القطر كله.

كان هذا حالهم أيضا عندما يخرجون، فهم قوم تعلموا في بلادهم حب الربيع وأيامه النضرة، وعلى ذلك فقد كانوا يتقابلون في عشاياه

ويخرجون إلى الحدائق العامة ليتملوا مفاتن الطبيعة الجميلة، وطالما صاحبتهم في مثل هذه النزهات، لم يكونوا يسيرون على الأرصفة وانما كانوا يسيرون في صف طويل يضم أكثر من عشرة أفراد في طريق السيارات والعربات وهم يتحدثون بأصوات عالية، دون أن يكون لوجودهم في الشارع تأثير على صياحهم وقهقهاتهم وحركاتهم، ولكن سكان الحي كانوا قد الفوهم فلم يعودوا يستغربون لتصرفاتهم، كانوا يعرفون بين الأطفال «بذوي القبعات الحمر» وبالرغم من ذلك كانت سمعة ذوي القبعات الحمر هؤلاء بين السكان سمعة حسنة لما لمسوه فيهم من عزة النفس وحب الخير وحسن السيرة، ولذلك أحبهم جميع من عرفهم من الانجليز.

وإذا قدم منهم شخص لأول مرة فلابد من أن يتعرض لبعض الصعوبات لجهله بلغة البلاد وشوارعها، ولكن لم يكن لجهله هذا المؤقت أي تأثير على تصرفاته، فهو يخرج وحيدا ويبتاع ما يريد ويتفاهم مع الناس، اما كيف يتم ذلك وبأية لغة فالله به عليم.

حدث ان اقبل زائر جديد من مدينة الدار البيضاء وأقام عندنا، وكان أبي مريضا لا يستطيع الخروج ولذلك كان عليه أن يخرج وحده، ولما خرج لأول مرة خرجت معه أختي لتتكفل بمهمة التعبير، وأعطاه أبي ظرفا كتب عليه عنوان المنزل ليستطيع أن يدلي به إلى الشرطي عند الضرورة فيهديه الطريق. خرج صاحبنا مع أختي وانطلق في الشوارع الواحد تلو الآخر، وركب السيارة العامة فابتعد تماما عن المنزل، فلما قضى ما كان يريد وأراد الرجوع ضل السبيل. سأل أختي هل تعرف الطريق فلم تعرف ما يقول، ثم أخذته إلى أحد الدكاكين ظانة أنه يريد أن يبتاع شيئا، فتضايق بعدم فهمها واستقر رأيه أن يتصرف وحده، وأخيرا تقدم إلى أحد المارة وابتسم له محييا، فرد عليه هذا الابتسامة بمثلها، ثم ادخل صاحبنا يده في جيبه واخرج الظرف، فناوله الرجل الذي أدرك من هيئته انه غريب، فأخذ

منه الظرف وقرأ العنوان ثم أخذه إلى أحد الدكاكين واشترى منه طابعا للبريد الصقه على الظرف، ثم أشار له بأن يتبعه، ولشدما كانت دهشته حينما رأى الرجل يدنو إلى أقرب صندوق بريد ويلقي فيه بالظرف، ووقف الرجل مدهوشا حينما رأى صاحبنا يكاد يستلقي على قفاه من الضحك، ولم يسعه الا أن ينصرف في استغراب.

لم تكن مهمة هؤلاء الناس التجارة فقط، وانما كان عندهم أيضا ميل غريب إلى الاستمتاع بالحياة، تلك الحياة الضاحكة التي تقدمها إليهم مدن انجلترا ومصايفها.

6

كان الشتاء يطول في منشستر، وكان هذا الطول يبعث الحنين في النفوس إلى الأيام التي تعود فيها الطبيعة إلى نضارتها وجمالها، وتبدو الشمس الدافئة سافرة في السماوات وكان الشتاء إلى جانب ذلك عنيفا مزمجرا، فيتجاذب البرق أطراف السحب الكثيفة السوداء، وينتقل الرعد وصداه في الأجواء غاضبا مخيفا، وتمطر السماء فإذا بالمدينة تكاد تسبح في سيل طام، وإذا هي مبللة من أقصاها إلى أقصاها، وكل شيء فيها يتقاطر منه الماء، ويتراقص المطر على أرصفة الشوارع فيحدث موسيقى رتيبة ذات لحن واحد مستمر، وتنطلق الرياح معولة نائحة يسمع لها في بعض الأحيان صفير مزعج فتقصف الحواجز الخشبية وأغصان الشجر ويتوجع في مهبها الصفصاف الباسق، أو ترجم السماوات الحالكة المدينة بوابل من البرد ينفر زجاج النوافذ نفرات متتالية سريعة، كأن أسرابا من الطير تحاول عبثا أن تخترقه بمناقيرها، أو يمتلئ الجو بنفايات الثلج تهفت في بطء وقد ازدحم بها الفضاء، فما هي الا لحظات حتى ترتدي المدينة السوداء ازارا أبيض ناصعا، فإذا بالشوارع والبيوت والأشجار وكل شيء فيها يبدو كأنما لمسته عصى سحرية. وقد انهض في الصباح وأطل من النافذة فإذا بالشوارع وما فيها قد اختفى فلا أرى الا ضبابا في ضباب قد يجثم على صدر المدينة طول النهار، فيضطر الناس إلى إضاءة المصابيح كأن الليلة الماضية ما تزال مستمرة، وتبدو مصابيح الشوارع خابية باهتة كأنها نجوم بعيدة تكاد تغور، وحولها هالة سوداء من الضباب الكثيف يحاصر النور لكيلا يتسرب منه شيء.

كان هذا الشتاء العنيف يثير في نفسي صورا من الجبروت لن أنساها ما

حييت، وكان الرعد من أبرز هذه الظواهر التي تثير خيالي فبدأت افهم ان السماء تضج بالمخلوقات كما تضج الأرض، وان السماء بالنسبة إلى الأرض في العالم مثل الدور الثاني بالنسبة إلى الدور الأول في المنزل، فهذا الرعد ضجيج أهل الدور الثاني، وإذا كان الرعد ضجيجهم فلابد أن يكونوا عمالقة جبابرة تحدث اقدامهم على السقف كل هذه الضوضاء وهم يجرون أو يعبثون، وربما كان أبناؤهم فقط هم الذين يجرون أو يعبثون. ثم بدأ صوت الرعد يقترن بالصوت الذي تحدثه العربة وهي مارة في المحجة يجرها جواد مطهم جموح، فبات يخيل إلي كلما عبر السماء هزيم ان جماعة من هؤلاء العمالقة قد ركبوا عربات جبارة وانطلقوا يتسابقون في جنون وبأقصى ما يستطيعون من سرعة فترتجف أنحاء العالم من تحتهم.

كانت الريح هي الظاهرة الثانية في إثارة هذا الخيال. كنت أصغي إلى عويلها في ظلمات الليل وأنا مدثر في الفراش، وطالما ساءلت نفسي ما معنى الريح دون أن اظفر بجواب، وعندئذ الجأ إلى الافتراض، فيخيل إلي أنها مقبلة من مكان سحيق، وانها تهب منه كلما رفعت بينه وبين العالم السدود، وكان صوتها يحدث في نفسي نوعا من التشاؤم والتطير، فإذا بها ترتجف وكأنها شجرة صغيرة في مهبها، كما كان يخيل إلي أن هناك سببا لهذا العويل، وان كارثة خفية قد حدثت في مكان ما من مجاهل العالم فانطلقت الريح تندب الاطلال والخرائب، وكان يخيل إلي أحيانا أخرى ان الفضاء الرحب يضج بآلام وأحزان مبهمة وان هناك كائنات خفية برح بها العذاب فامتلأت الأجواء بالأنين والعويل.

كانت هذه الظواهر الطبيعية العنيفة التي لم أكن أعرف معناها تترك في نفسي صورة مخيفة للعالم، حتى انها أصبحت ـــ لطول ما سمعت من أساطير ـــ رموزا لحياة أخرى خفية يعيش فيها أناس أضخم وأقدر من بني البشر لأن كل ما يتصل بهذه الرموز عنيف وجبار.

ولكن هذا لم يكن كل شيء في هذا الشتاء الطويل فقد كان له جانب آخر يحببه إلي وينسيني هذه الصور المخيفة التي كانت تداعب مخيلتي، وكان البرد القارس يملأ جسمي الصغير نشاطا فيدفعني إلى العدو والوثب والانغمار في اللعب، واللعب حقا مظهر من مظاهر اغتباط الطفل بالحياة فيرى صدره يعلو وينزل بأنفاسه المجهدة وقد تلألأ وجهه بشرا وبرقت عيناه رضى واحمر خداه احمرارا بهيجا، فإذا به يشيع البشر والرضى في نفس كل من يراه.

وكان من أحب الأشياء إلي في الشتاء أن أجلس إلى المدفأة أستمع إلى الأقاصيص الغريبة التي كانت ترويها لي أمي، وإلى مدفأة آل باترنوس أستمع إلى أحاديث أفرادها وهم يتحدثون عن تقدم الحضارة والتغير الذي غمر الحياة فلا تستقر في ذهني من ذلك الا صور باهتة لا تمت إلى الحقيقة بسبب، ولكنني كنت مع ذلك أستمتع بتلك الأحاديث.

مثل هذا الشتاء الطويل القارس العنيف كان يصرف الناس إلى أعمالهم الجدية. وقد كان المراكشيون ينهمكون في أعمالهم انهماكا كليا ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يسمروا في منازلهم ليحيطوا جدهم هذا بشيء من اللهو والمرح، فإذا كانوا يسمرون في منزلنا سمعت ضحكاتهم من الغرفة المجاورة التي كنت أنام فيها أنا وأختي ووصلتني أحاديثهم تلك التي لم أكن أفهم منها شيئا.

اما هذه الأعمال التي كان ينصرف إليها هؤلاء المراكشيون النازحون انصرافا تاما أثناء فصل الشتاء فقد كانت أعمالا تجارية لم أكن أفهمها ولا أقيم لها كبير وزن في تلك السن المبكرة. وأستطيع الآن أن أقول انه كان يبدو عليهم جميعا ترف ومرح لاشك انهما مظهر من مظاهر النجاح. ولكن هذه التجارة ــ كما علمت فيما بعد ــ لم تكن تستند إلى دراية أو المام بالشؤون التي لابد من الالمام بها لتسيير الدفة أثناء الزوابع الاقتصادية، ولذلك عصفت بهم جميعا أول زوبعة صادفوها بعد ذلك.

كان أبي كبقية القوم يزاول أعماله في مكتب، فإذا مللت من الحياة الرتيبة طلبت بعض التغيير في الالحاح عليه بأن يصحبني معه، حتى إذا ما قبل انتظرت صباح اليوم التالي بفارغ الصبر.

كنا نغادر المنزل في حوالي الساعة الثامنة صباحا بعد تناول وجبة الافطار مباشرة فنقابل في الشارع جمهورا من جيراننا الرجال والأطفال الذين يغادرون منازلهم مثلنا ذاهبين إلى أعمالهم أو إلى مدارسهم، فكانوا يغمرون الشوارع بجو من الحيوية والنشاط بعد الراحة التي أصابوها أثناء الليل.

حتى إذا ما ركبنا قطار الترام انصرفت أنا إلى نافذته أتأمل المدينة التي تزداد حركة ونشاطا كلما توغلنا في شوارع الأسواق والعمل، وكان يخيل للمرء انها هي أيضا قد استيقظت باستيقاظ سكانها، فلم تكن العين تقع إلا على حركة دائبة متزايدة تغريني بأن أتحرك وأعمل ولكنني لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أزاول.

واتبع والدي في نشاط ونحن نغادر الترام وأسير إلى جانبه متوثبا لنخترق باب إحدى البنايات ونصعد سلالمها، ثم نقف عند أحد الأبواب ليدير فيه والدي مفتاحا قبل أن ندخل المكتب، ولم يكن يفوتني ان ألقي نظرة على الحروف السوداء المنقوشة على زجاج الباب، وكنت أعرف أنها حروف اسم والدي (مستر ت. بن جلون) الذي كنت أميزه بالرغم من أنني لم أكن أفهم القراءة بعد لكثرة ما رأيته مطبوعا على الظروف التي يستعملها والدي في مراسلاته بالمنزل.

وسرعان ما يفتح السكرتير الانجليزي الباب وهو يخلع معطفه ويحيينا تحية الصباح، ثم يجلس لمكتب مقابل لمكتب والدي ويبدأ العمل. فأجلس على كرسي إلى جانبه وأشرع في محاولة جديدة فاشلة لفهم ماهية العمل الذي يقومان به. وكنت أبدأ هذه المحاولة بتأمل ما في

الغرفة، علني أعثر على شيء يهديني إلى الفهم : الدفاتر والملفات والمطبوعات وورق الكتابة والظروف والأقلام والمحابر والرسائل وآلة الضغط الناسخة، وطوابع البريد، والصور، والخزانة الحديدية والمفاتيح وسلة المهملات ونماذج الأقمشة... الخ.

عبثا كنت أحاول أن أربط بين هذه الأشياء المختلفة لأخرج بفكرة واضحة عن عمل والدي، وعبثا كنت أحاول أن أفهم الألفاظ التي يستعملها والدي وسكرتيره لأستعين بها على الفهم.

كنت أفهم الغرض من وجود أدوات كثيرة كأدوات النجارة والحلاقة والخياطة مثلا. فهلْ يعقل أن يكون لهذه الأشياء التي تحيط بي أغراض مماثلة، وإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه الأغراض ؟ ثم أيأس من الفهم في ملل وأنصرف إلى الحركة والتنقل بين هذه الأشياء متأملا لها تارة ولامسا لها بيدي تارة أخرى.

شيئان فقط كنت أدرك الصلة بينهما : القلم والورق. فهل كان ذلك يرجع إلى رغبة صبيانة في العبث أو كان إيذانا بأنني سأبتلي بهما هذا الابتلاء العظيم فيما يستقبل من أيامي !؟

كان والدي ذات مرة منهمكا في عمله مع السكرتير، فمللت من تأمل هذه الأشياء ومحاولة فهمها ولذلك تناولت جريدة عربية كانت موضوعة على المكتب وأخذت أتأمل حروفها ثم تناولت القلم وبدأت أحاول أن أقلد الكتابة على ورقة بيضاء دون جدوى.

وهنا خطرت ببالي أول فكرة في حياتي خيل إلي أنها براقة، فقد وضعت الورقة البيضاء على الصحيفة المكتوبة فإذا بي اكتشف أن حروفها واضحة تحت الورقة الشفافة، فتناولت القلم وأخذت أعيد على الدوائر والخطوط والنقط. ثم رفعت الورقة فإذا بها مكتوبة، وكان سروري عظيما إذ بدا لي أنني وضعت يدي على أسرار «العمل» الأولى، وازداد يقيني بذلك

حينما قدمت الورقة التي كتبتها إلى والدي فبرقت عيناه ببريق الغبطة والاعجاب.

ثم فجأة أمل من هذا كله بعد مرور فترة قصيرة من الوقت. فقد كانت الأشياء محدودة وإمكانيات العمل ضيقة، يضاف إلى ذلك الانقباض الذي تصاب به النفوس في فصل الشتاء الداكن حينما يوجد المرء في مكان ليس فيه ما يغري بالمرح... فاطلب العودة إلى المنزل، ثم ألح في الطلب إلى أن يضيق والدي فنعود إلى المنزل قبل الميعاد وهو يقول ان هذه هي المرة الأخيرة التي يصحبني فيها معه إلى المكتب، وكنت أقول ذات الشيء في نفسي، وأستغرب كيف يقضي كل يوم هذه الساعات الطويلة المملة في مكان مغموم يعج بأدوات لا أفهم الغرض منها، ولكن ان هي إلا أيام حتى تعاودني الرغبة في زيارة مكتب عمل والدي لتجديد المحاولة.

هذه صورة من حياة الشتاء في تلك الأيام الذاهبة. وقد كان حنين الناس إلى الصيف يزداد كلما ازداد الشتاء طولا، فليس من الغريب إذن أن يحدث الصيف حينما يقبل تغييرا في الحياة، وكان من أشد الناس احتفالا بالربيع وبالصيف هؤلاء المراكشيون الذين كانوا ينظمون أعمالهم بحيث تسمح لهم بأن ينصرفوا إلى الحياة الجديدة التي حملها إليهم الفصل الجديد، ومن ذا الذي يستطيع أن يظل في منشستر وقد أقبل الصيف ؟ وقد كنت أتطلع أنا أيضا بفارغ الصبر إلى الصيف لا لشيء أكثر من أننا سنترك هذه المدينة وما قاسيناه فيها من غم إلى الشواطئ مع آل باترنوس ومواطنينا المراكشيين.

7

وأخيرا أقبل الصيف بنضارته وجماله فإذا بي أتطلع إلى اليوم الذي نبرح فيه المدينة، ولكن صبري لا يطول فقد آن لنا أن نبرحها. بيد أن هناك عقبة صغيرة كنت أحسب لها ألف حساب تلك هي محطة القطار، لقد كنت أكرهها كرها شديدا إذ لم أكن أطيق النظر إلى القاطرة وهي تدخل المحطة، كان منظرها يفزعني وهي تزفر وتتنهد وترسل الدخان الأسود الكثيف ويكاد صفيرها الحاد يطير صوابي. كان يتمثل لي فيها الطغيان في أبشع صوره حينما أراها مقبلة في عبوس بشكلها الكالح الأشوه وحجمها الضخم البشع، وحينما أرى عجلاتها الغليظة القاسية تدور كأنها جائعة إلى السحق، وحينما تمر بالقرب مني وأرى جوفها يضج بألسنة من اللهب الأسود يتطاير منه شرار أحمر فيخيل إلي أنها ألسنة من الحقد يغلي بها جوف ذلك الحيوان الآلي البغيض، وما تزال القاطرة تمثل لي إلى الآن الحيوان الآلي الذي خلقته الحضارة في أبشع صورة، انها مثال للقسوة والصرامة والعمى والجبروت، وهي صفات لاشك ان قلوب الصغار لا تطمئن إليها.

فإذا انطلقت بنا من المحطة انطلقت بطيئة وتزفر كأنها تستجمع قواها ثم لا تلبث سرعتها أن تزداد ثم تنطلق بعد لحظات فإذا بها تلتهم قضبان الحديد التهاما كأنما برح الجوع بعجلاتها، ثم تهيم على وجهها لا تلوى على شيء. وكان يخيل إلي أن لها نفسا تنشط كما تنشط نفس الجواد إذا أطلق له العنان فإذا العجلات تحدث صوتا رتيبا راقصا كما لو كان ذلك تعبيرا عن رضاها عما هي فيه من جهد، وإذا بالقاطرة ترسل من آن لآخر صفيرا طويلا تعبر فيه عن اغتباطها بكل هذا العنف، وهو صفير لا يمت

مطلقا إلى ذلك الصفير المغتم الذي أرسلته من قبل وهي داخلة إلى المحطة.

على أنه سرعان ما تتلاشى هذه الاحساسات حينما يخرج القطار إلى فضاء الطبيعة الواسع، ومن ذا الذي يستطيع ان يذكر شيئا كهذا وهو يخترق حقول انجلترا في القطار ؟ على الشمال واليمين بساط سندسي أخضر تنافس روعة خضرته روعة زرقة السماء، ولا ترى العين الا الألوان البهيجة في كل مكان، ألوان الزهور والطيور والأشجار، ألوان الأغنام والأبقار والافراس، ألوان يخيل إليك لشدة انسجامها أنه قد أشرف على تنميقها فنان قدير.

وهذا هو الجو الذي يعيش فيه الناس وهم يصيفون، ولقد اختلطت الآن في ذهني كثير من الصور، ولم يعد في استطاعتي أن أرجع كل صورة إلى مكانها من الجزيرة الجميلة، ولكنني أذكر انها ترجع في جملتها إلى المسافات الواقعة بين منشستر من ناحية ومدن بلاك بول وسنت آنز وويلز من ناحية أخرى.

كلا أنني أذكر بلاك بول مدينة الملاهي الجبارة، فهذه عجلتها الضخمة العتيدة تدور في الفضاء وهي تحمل عالما من الناس، وهذا برجها الضارب في السماء لا أكاد أطل من أعاليه حتى أتراجع خوفا وحذرا. ماذا جرى لذلك القطار الذي أرعبني في المحطة ؟ لقد أصبح مثل دودة صغيرة مستطيلة تزحف في بطء وهي شبيهة بتلك اللعبة التي اعتدت أن ألعب بها في المنزل، اما الناس فيخيل إليك أنهم بقع صغيرة سوداء تضطرب على صفحة الأرض كما لو كنت تراهم تحت مجهر... بقع سوداء تجتمع وتفترق في غير نظام كما لو كان هناك من يعبث بها. تلك هي الحياة حينما نشرف عليها من الأعالي.

مازلت أتصور نفسي في مدينة الملاهي المتلألئة «بلاك بول» فبينما

أجد نفسي صاعدا إلى السماء كأنني سهم قد انطلق من قوس، إذا بي أنزل ثانية في سرعة جنونية، حتى إذا كدت أرتطم بالأرض ارتفعت مرة أخرى في اتجاه السماء وأنا ذاهل أحاول أن أسيطر عبثا على أعصابي الصغيرة، وأعقد العزم على أن لا أركب هذه اللعبة الجهنمية مرة أخرى، ولكن لا يكاد اليوم التالي يقبل حتى. يعاودني الحنين إليها من جديد.

وها هو ذا رجل يطلب مني أن أجلس على بساط صغير فلا أكاد أفعل حتى يرفع صوته بصيحة مدوية وهو يدفع بي نحو الهاوية فيكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، نعم نحو الهاوية، وماذا تكون الهاوية ان لم يكن هذا السرداب المنحدر الضيق الملتوي الأملس ؟ وأكاد أصيح، ولكن ماذا يجدي الصياح ؟ وارفع عيني فإذا بالأعمدة والأخشاب والحواجز وقطع الحديد تتراقص من فوقي كما لو كان قد أصابني جنون، ولكنني لا أرتفع من جديد حينما أقترب من الأرض هذه المرة، وإنما ينتهي السرداب فاندفع في الفضاء، ولا أكاد أفيق حتى أجد نفسي أتدحرج فوق الرمال، فأنهض وقد أفلت مني زمام نفسي وأحاول أن أتبين عبثا ما حولي، أن العالم يتراقص، وأنا أيضا أتراقص، ثم أسقط مرة أخرى، لقد أصابني الدوار.

ثم بعد ذلك قد تختلط الصور، فهذا شاطئ البحر قد عج بالفتيات والفتيان حيث تسمع الاذن هدير الأمواج قد اختلط بصياح الأطفال وضحكات الشباب فأحدث ذلك كله موسيقى مستحبة بليغة، انني أتسابق أنا وأختي فوق الرمال وخطواتنا الصغيرة المتعثرة تندفع نحو البحر اندفاع المتهالك الظمآن.

وتختفي هذه الصورة فإذا بنا نتسلق جبلا منيعا فنمر برعاة وهم مضطجعون في الظلال وكأنهم يستمتعون بالثغاء والبغام حتى إذا وصلنا القمة وأردنا النزول عجز أحد أصدقاء أبي عن ذلك فلم يكن له بد من أن ينزل جالسا يدب قليلا وينحدر كثيرا.

ثم تأتي صورة أخرى فإذا بنا نسير في المساء على شاطئ البحر، وكانت الطريق خالية موحشة نمر فيها من آن لآخر بحصن قديم يرجع إلى عصر الرومان، ولقد سرنا فيه المساء بأسره نحاول أن نجد فيه منفذا نرجع منه إلى المدينة دون جدوى، والطريق خالية من المارة وكل ما يمكن أن يركب، ولذلك ظللنا نسير ونسير إلى أن عجزنا عن المسير، ولكن لم يكن لنا بد من أن نستمر في السير إلى أن خيم الظلام بأسدافه على العالمين، وأطلت النجوم تتلألأ فوق الطريق الرومانية المكتنفة بسورين عظيمين، وبدأ هدير الموج يملأ هذا الجو الموحش بالأصداء الغامضة، ومازلت أذكر اننا قضينا شطرا غير قصير من الليل ضالين ولم تنقذنا الا سيارة مرت بنا بعد منتصف الليل.

لن أنسى تلك الأيام الرائعة التي قضيناها في مصايف انجلترا الجميلة، لقد استيقظت فيها على بهجة الحياة، وعلى جمال الطبيعة. فهذا هو البحر المتلاطم تتكسر أمواجه على الشاطئ الصخري وقد أثار هذا العالم المائي الدهشة في نفسي. ما هو البحر ؟ عالم من الماء محفوف بالغموض يضيع خلف الأفق دون أن يدرك مداه البصر. وقد سمعت أن وراء هذه المياه عالما آخر، وقيل انني سأعود مرة أخرى فاخترق هذه المياه عائدا إلى بلاد زعموا أنني جئت منها.

والناس في هذه المصايف غير الناس في المدينة، فهم هنا جميعا مستبشرون ضاحكون، يرتدون الثياب البيضاء الناصعة فتزيدهم بشرا ووجوههم محمرة مترعة بالصحة والعافية.

وهكذا يمر شهر في السنة نتسلق فيه الجبال ونجوب الشواطئ ونرود الحقول ونرتاد الملاهي، شهر ضاحك راقص بهيج كان له أكبر الأثر في نفسي فقد كنت أصبح بعده قادرا على تصور ما يدعى بالرضى على الحياة أو ان شئت ما يدعى بالسعادة.

وينتهي الشهر هكذا فنقفل راجعين إلى منشستر وقد خلفنا وراءنا تغريد الطيور وفوح الأزهار والورود وهدير البحر، وعدنا إلى منشستر بسوادها وكآبتها مرة أخرى لكي نكون في استقبال الشتاء الكالح العبوس حينما يعود.

كان الشتاء طويلا عابسا وكان الصيف قصيرا مشرقا، ولكن بهجة الصيف القصير كانت كافية لتنسية الشتاء العابس الطويل.

8

كانت الغرفة تسبح في ظلام دامس ندير فيها عيوننا الصغيرة فيخيل إلينا انها قد اختفت من شدة الظلام. كنا نأوي إلى الفراش منذ الساعة السابعة مساء فيستعصي علينا النوم مرات كثيرة، لم تكن لنا حيلة في هذا النوم المبكر. كنا نقضي الساعات الطويلة أثناء النهار نتوسل إلى أمنا أن تؤخر نومنا ساعة أو بعض ساعة، ولكن ذلك كان عبثا، وحينما يبتدئ المساء تتعلق عيوننا بالساعة الكبيرة ودقاتها، نعد الثواني والدقائق فتتعلق أنفاسنا بها وهي تتقدم نحو الساعة المحتومة، لقد عرفوا في نفسي كراهية النوم المبكر منذ ذلك الحين، كنت أتمنى اليوم الذي تصير فيه أموري إلي لكي يكون أول ما أتصرف فيه هو أن أسهر كما أشاء.

كانت رهيبة تلك الساعة التي أقضيها بين الوقت الذي آوي فيه إلى الفراش والوقت الذي كنت أنام فيه، أفتح عيني في الظلام الدامس وأحدق فيه إلى أن يكل بصري وحينئذ تلوح أمامي بقع مختلفة الألوان تبرق ثم تسبح قليلا ثم تنطفئ، حمراء صفراء خضراء، وكان ذلك إيذانا بأن الحياة قد دبت في الظلام، ثم يقفز أمامي عبد أسود يمرق كالظل العابر، وعن يميني وشمالي وفوقي وجوه كالحة تكشر لي عن أنيابها، بارقة العيون منفوشة الشعور متقلصة العضلات، عشرات من الوجوه الكالحة تقترب من كل اتجاه حتى تكاد تطبق عليَّ وأفتح فمي بالصراخ ولكني لا أسمع لي صوتا، وأشعر بأنفاسي تختنق فلا تنقذني إلا حركة عنيفة آتي بها، فإذا بي قائم فوق السرير أحدق في الظلام من جديد، وتبدأ البقع الملونة سيرتها مرة أخرى، فأنادي أختي ولكن قلما كانت تجيب لي نداء، فلا ينقذني الا أن أستلقي ثانية وأدفن وجهي بين الوسائد.

لذلك لم أكن أحتمل مطلقا أن تنام أختي قبلي ولذلك أيضا كنت أكثر من الكلام قبل النوم وأحاول دائما أن أحدثها في الموضوعات التي تهتم بها لئلا تتركني أتكلم وتنام، والا فويل لي حينئذ من تلك الأشباح.

ثم ان التحدث إلى أختي كان متعة بالنسبة إلي، ذلك أن مسحة من الغفلة كانت ترين على فكري، فلم أكن أحسن الانتباه إلى ما حولي بل لم أكن أشعر بأن هناك أشياء يحسن ان أنتبه إليها، كنت بواسطتها أعيش لأنها هي التي كانت تنقل إلي ما يحيط بي، ولقد طالما تبرمت بي وهي تتحدث إلي دون أن أستطيع متابعتها، وكان من المسلم به فيما بيني وبينها ان أعرض عليها كل مشكلة تعترضني فأنا دائما السائل وهي دائما المجيب. كنت أصدق كل ما يقال لي دون أن أحاول تمحيص أي شيء، ويخيل إلي الآن أن نظراتي حينذاك كانت تعلوها مسحة من السذاجة لم يكن يجمل بي عدم الانتباه إليها هي أيضا.

طال الليل وطال الحديث ولكنني كنت صاحيا تماما. ان أخوف ما أخافه هو ان تنام أختي وتتركني فريسة للأشباح، والغريب ان هذه الأشباح كانت ترهبها فلم يسبق لها ان رأتها قط كما أنها كانت تتبدد سريعا حينما أناديها فتجيب.

ما العمل اذن وأنا مهدد بمواجهة تلك الصور الغريبة ؟ لأحاول أن أثير ذلك الموضوع القديم الذي تحدثنا عنه ساعات وساعات دون أن نصل فيه إلى جواب. فسألت :

ــ لشد ما أتمنى لو كان لنا أخ يؤنسنا في هذا الظلام.

ــ أخ ومن أين لنا بأخ ؟

ــ نوصي مسز شلمداين فتقطف لنا واحدا من حقل الكرمب، الم تقل لنا أنها تأتي بهم في حقيبتها من هناك ؟

ــ نعم قالت لنا ذلك.

ـــ اذن فالمسألة بسيطة، لنكرر رجاءنا غدا، ان مسز شلمداين امرأة طيبة القلب.

ـــ انني أعجب لقولها. كيف يمكن أن ينبت الطفل داخل الكرمب ؟ هل تصدق أنت ذلك ؟

ـــ فمن أين اذن ؟

ـــ لست أدري ولكنني متأكدة من أنه لا يأتي من هناك، لأننا كلما سألنا أحدا عن ذلك أجابنا جوابا مختلفا عن جواب الآخرين. قال اندريه : ان الطفل يولد وحده في مدخنة المدفأة. وقالت انجي : ان الأطفال يباعون في السوق، وقالت الليني : انهم يأتون في البريد، وقالت أمي : انها لا تعرف من أين تأتي مسز شلمداين بهم. وقالت مسز شلمداين : انها تأتي بهم من حقل الكرمب. وهكذا كلما سألنا أحدا أجابنا إجابة جديدة فماذا تظن ؟

ـــ لست أدري.

ـــ وأنا أيضا لست أدري ولكنني لاحظت أن الأم التي تريد ولدا لابد من أن ترتفع بطنها. رأيت مسز فلتشر منتفخة ثم رأيت معها توأمين، ورأيت فاطمة منتفخة ثم رأيت معها ولدا أيضا فلماذا ينتفخن هكذا كلما أردن أن يكون لهن ولد.

ـــ هل رأيتهن أنت ينتفخن ؟ ياليتني كنت معك !

ـــ لم ارهن ينتفخن وإنما رأيتهن منتفخات ورأيتهن أنت أيضا. كن كذلك هنا معنا في المنزل، ألم تلاحظ ذلك.

ـــ أبدا لم أر شيئا مما تقولين.

وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أتذكر ذلك ولكن دون جدوى ولكنني صدقتها. لقد كانت لها عينان.

وسألتها بعد ذلك : اذن من أين يأتي الأطفال ؟ انني أريد أخا.

فقالت : لا أدري، ولكن لابد لنا من أن نهتدي إلى طريقة نحصل بها على أخ صغير نلعب معه.

ساد الغرفة صمت عميق مرة أخرى، لقد انصرفنا معا إلى التفكير في الجواب على هذا السؤال العويص، فلم نستطع أن نجد له جوابا، والذي تساوي أمامه ذكاؤها بغفلتي، ذلك السؤال الذي طرحناه على كل من نعرف. والغريب أن المسألة بسيطة فلماذا يحرصون على إخفاء سرها عنا ؟ وياليت الأمر كان مجرد جواب على سؤال ! ولكنه كان أمر رغبة ملحة تملكتني أنا وأختي زمنا طويلا، فلم نكن في غنى عن معرفة الحقيقة، لم يكن الأمر أمر معرفة وإنما كان أمر مصلحة نريد تحقيقها. اننا نريد أخا صغيرا.

وطال صمتنا في الغرفة، ونحن نفكر، علنا نهتدي إلى حقيقة نرضي بها هذه الرغبة في نفوسنا. وقلبت أنا الأمر على وجوهه ولكن لم أر فيه الا مثل ما أرى في الغرفة من ظلام. وحاولت ثم حاولت.... ثم تذكرت بأن هذا الصمت حري بأن يكون قد حمل النوم إلى أجفان أختي، وحلق بها في سماء الأحلام.

ــ ما العمل اذن يا آمنة. كيف نستطيع أن نظفر بأخ... آمنة، ماذا ؟ هل أنت نائمة ؟ لا، لا تفعلي يا آمنة.

لقد نامت وتركتني وحدي لتطبق علي الأشباح مرة أخرى ولكن لأحاول ايقاظها.

ــ آمنة ! آمنة ! آمنة !

يا ويلتاه لقد اطبقت أختي جفنيها، واستسلمت لنوم هادئ مريح. وانتقلت من العالم الذي كانت تبصر فيه عيناها : عالم النور. وبقيت أنا في العالم الذي كانت تبصر فيه عيناي : عالم الظلام.

9

عاهل المملكة المتحدة وأمبراطور الهند !

أليس هذا لقبا جديرا بأن يثير إلى النهاية خيال طفل يذهب به الوهم كل مذهب عند الأباطرة والأقيال والأقطاب وأرباب الصولجان والمستحوذين على أسمى ألقاب المجد والسعادة ! فكيف إذا ذكر اسم من لا تغيب الشمس عن ممتلكاته وضياعه في سائر أنحاء العالمين.

نعم لقد بدأ الطفل يسمع عن جورج الخامس عاهل المملكة المتحدة وامبراطور الهند أحاديث كلها اجلال واكبار، ولقد طالما سمع عنه مثل هذه الأحاديث فكان يخيل إليه انها تدور حول شخص لا يلمس ولا يرى لجلاله وسمو مكانه، لقد كانت الصورة التي تركتها في نفسه تلك الأحاديث قريبة من الصورة التي تركتها في نفسه الأحاديث التي سمعها عن الله جل جلاله.

وأسأل القارئ عن شعوره لو سعى إليه ساع وأخبره ان الله تقدس اسمه سوف يمر بالشارع الذي يقيم به في الساعة الخامسة من مساء يوم معلوم. انه نفس الشعور الذي تملكني حينما سمعت أن ذلك الرجل العظيم جورج الخامس الذي تسبل الأجفان مهابة عند ذكر اسمه سوف يمر بشخصه في الشارع الذي نقيم فيه في الساعة الخامسة مساء، بعد يومين.

وقد حاولت أن أستنجد بالمنطق لاستبعاد ما لا أستطيع فهمه كما تعودت أن أفعل كلما وقفت وجها لوجه أمام خرافة جديدة.... ولكن هذه ليست خرافة، فإن جيراننا ماضون في إقامة معالم الزينة التي سوف

يستقبلون بها العاهل العظيم حينما يزور مدينتهم التجارية العتيدة وينزل من عليائه ليمر بشارعهم المتواضع البعيد في أسفل سافلين.

وترك الجيران وسكان الشوارع ماضين في إقامة معالم الزينة وانزوى في اندهاش يحاول أن يعطي لذلك الشخص الخرافي المجيد صورة يقبلها العقل وتنسجم مع كل ما يسمعه من سمو وجلال. وأخذت الألوان الناصعة تبرق أمام مخيلته ثم بدأت الأشكال والصور تتلاحق في نفسه، فهو يتصوره مرة مخلوقا سامي التكوين ينبعث من جسمه نور ساطع لا يمكن العين من إطالة النظر إليه، ثم يتصوره عملاقا هائلا قديرا يقبل في عربة هائلة تمر بين السماء والأرض، لا بل سيقبل ممتطيا سحابة من نور تنزل به من عليائه ثم تمر به في فضاء الشارع ليسعد الناس بالقاء نظرة خالدة على وجهه النوراني.

كان في استطاعته أن يسأل أحد أهل المنزل أو أحدا من آل باترنوس.

ولكنه خجل من أن يظهر جهلا بهذا الشخص الذي لا يصح أن يجهله أحد، وهو لا يزال يذكر تلك النظرات التي كان يقابل بها كلما حاول الامعان في السؤال عن الله وصفاته لكي يستطيع أن يتصوره، ولذلك آثر ان يتريث وسوف يدرك الحقيقة كاملة في الساعة الخامسة من مساء الغد.

وقضى ليلة مفعمة بالاخيلة البراقة الناصعة لا يميز بين ما رآه منها وهو نائم وما رآه منها وهو صاح يرنو إلى السقف قبل أن يدركه المنام، وكانت كلها تدور حول شكل الملك العظيم الذي سوف يراه في الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي.

ولقد كنت أشعر دائما بانفعال الغبطة كلما أقبلتَ على رؤية شيء جديد، واستوى في ذلك مع جميع الأطفال — وان كل امرئ منا لا يزال يذكر الشعور الذي تملكه حينما رأى هذا الشيء أو ذاك لأول مرة في

الحياة، فما الرأي إذا كان هذا الذي أنا مقبل على رؤيته مخلوقا لا ثاني له وربما لم يتح لي أن أراه مرة أخرى مدى الحياة ؟ وهكذا استقبلت صباح اليوم التالي على أنه صباح أروع يوم في حياتي، وازداد إيماني بذلك حينما أشرفت من النافذة على الشارع فبدا لي كما لم أره من قبل وهو يرفل في أزهى الحلل، وبدأت الأحداث تتوالى فازداد إيماني قوة واقتناعا.

ظهر في الشارع هنا وهناك رجال الشرطة الانجليز بقاماتهم المديدة وبذلهم السوداء المرصعة بقطع نحاسية براقة وأحذيتهم اللامعة، اما رزانتهم التي تضرب بها الأمثال فقد ازدادت روعة. انه ليخيل للمرء انهم رجال جدد صنعوا منذ نصف ساعة فقط بهذه المناسبة الكريمة.

كانت تمر في الشارع من آن لآخر عجلة بخارية يمتطيها ضابط من رجال البوليس بلغ انسجامه معها مبلغا كان يخيل إلي معه انه هو وعجلته قطعة واحدة.

ولم تزل المظاهر الرائعة تبدو الواحد تلو الآخر كما هو مألوف في مثل هذه المناسبات إلى أن اقترب موعد الزيارة، وإذا برصيفي الشارع يكتظان قليلا قليلا بالناس ثم توقف مرور السيارات والعربات، وازدحم السكان وضيوفهم في النوافذ والشرفات على طول الشارع. حقا لقد كان منظرا رائعا بالنسبة لمن يراه لأول مرة...

وبدأت حرارة نفسي تستعد للارتفاع إلى درجة الغليان حينما أخذت فرق الشرف تمر بالشارع في ملابسها المزركشة على أنغام مختلفة من الموسيقى منها الحماسي الذي يلهب المشاعر ومنها الناعم الذي يثير الاخيلة. ولشدما كنت غرا وأنا أبتهج بالمناظر التي رأيتها حتى الآن على خشبة المسرح، فأين هي من هذا المنظر الحي الرائع الذي تشعرك كل حركة فيه أن دم الحياة والحقيقة ينبض فيه.

ثم أخذ المشهد يدخل في أدواره المثيرة، فبدت الفرق العسكرية في

الشارع وهي ترتدي ملابسها البهيجة وتخطو على نغمات الموسيقى العسكرية ولكن دون عنف.

ولما ألقيت ببصري على الرصيفين من نافذتنا ــ وكان يحف بي عدد كبير من الناس يزداد عددهم مع مرور الدقائق دون أن أحفل بمعرفة من هم ــ خيل إلي أنهما اختفتا وراء آلاف من علم المملكة المتحدة، العلم العتيد الذي أتعب الشمس وهو يغازلها دون ملل في دورانها حول الأرض...

وبدأت أشعر بموجة غير عادية بين الجماهير المتلاطمة تؤذن بأن الساعة الموموقة قد آن لها ان تحل. فسرت فيهم موجة حماسية ما لبثت ان اكتسحت صفوفهم جميعا وانتقلت إلى النوافذ والشرفات.

ثم بدأت الموجة تتحول إلى هياج عاطفي غامر. وإذا بالناس يصيحون وهم يصفقون أو يلوحون بالأعلام، وفجأة شعرت بكل الجلوس في الشرفات وأمام النوافذ قد وقفوا وانطلقت من أفواههم تعابير وأصوات تعرب كلها عن الاعجاب.

وشعرت هنا بأن موجة الحماس قد أخذت تكتسحني وأنني بدأت لشدة وطأتها أفقد التمييز بين الأشياء، فقررت ان انفثها عن نفسي لكي أتملى بالنظر إلى نصف الالاه وهو مار بالشارع، فأخذت أتتبع كل ما يحيط بي.

وكنت متأكدا من أنني تتبعت كل ما جرى أمامي وأستطيع أن أقول أنني رأيت كل كف صفقت وكل فم هتف وكل علم صغير لوح به وكل حركة مهما كانت صغيرة وقعت في المحيط الذي يدركه بصري وكان انتباهي في ترصد ما يجري دقيقا جدا بحيث لم أشعر الا بعد لاي للذين كانوا يصيحون بي في الشرفة. انظر ! الملك ! الملك !

واستدرت إلى الصائحين لأتأكد من سلامة عقولهم، ثم أخذت أتتبع

إشاراتهم إلى أن وقع نظري على «الملك» ! وتأكدت من أنني رأيت الشخص الذي يشيرون إليه على أنه «الملك».

وفي سرعة البرق مسحت يد خفية الجماهير من الشارع كما لو كانت مرسومة بالطباشير على سبورة، واضمحلت الهتافات واختفت الموسيقى وبدا لي أن أكذوبة كبيرة تنتفخ وتنتفخ إلى أن انفجرت واضمحلت مرة واحدة.

وبارحت الشرفة في كآبة لا تخلو من غضب، كنت كمثل الطفل الذي مناه والده بلعبة رائعة حار خياله في تصور مباهجها ثم قدمها إليه بعد ذلك لعبة من لعبه القديمة !

وجاءني والدي يسأل :

ــ أرأيت الملك ؟

ــ لا

ــ ألم تستطع أن تميز الشخص الذي كنت أشير إليه ؟

ــ نعم، ولكنه شخص وليس الملك.

فتضاحك والدي ولعله أدرك ما يدور في خلدي، وما كان يدور في خلدي هو «حضرة صاحب الجلالة جورج الخامس عاهل المملكة المتحدة وامبراطور الهند، له رجلان ويدان وصدر ورأس ووجه وأنف وفم وعينان، إنك تسخر مني يا أبتاه، وإلا فنحن جميعا حضرة صاحب الجلالة جورج الخامس عاهل المملكة المتحدة وامبراطور الهند».

قل شيئا غير هذا يا أبتاه !!!

10

دق الجرس وفتح الباب، وإذا بصوت وقور يقول :

ـــ صباح الخير يا سيدتي، أليس عندكم طفل قد بلغ سن المدرسة ومع ذلك ما يزال لم يلتحق بها، فهل هو مريض ؟

ـــ لا ياسيدي الشرطي، انه في تمام العافية.

ـــ هل والده موجود فاكلمه ؟

ـــ لقد خرج إلى عمله.

ـــ اذن فأخبريه ياسيدتي انه لابد من أخذه غدا في الصباح إلى إحدى المدارس المحلية، وأكدي عليه في ذلك، لأن من المحظور في هذه البلاد عدم الالتحاق بالمدرسة في مثل سنه.

ـــ سأخبره بالطبع.

ـــ شكرا ياسيدتي، عمي صباحا.

هكذا فتح أمامي باب جديد أخشى أن يكون مايزال مفتوحا إلى الآن، ان الأمر لا يتعلق في هذه المرة بأبي، ولو كان يتعلق به لهان، ولكنه أمر الشرطي، هذا الشخص المستقيم الذي لا يضحك، والذي كان يمثل لنا الصرامة مفرغة في قالب من الرحمة، كنت أراه من النافذة وهو يذرع الشارع بخطاه المتزنة وقامته المديدة وأزراره اللامعة، فكان يثير في نفسي معنى غامضا، ولكنه جليلا.

هذا شخص لا يعصى له أمر، واذن فلا مفر مما لا مفر منه، ولقد أخبرني أبي في المساء بأنه سوف يتأخر عن عمله صباح اليوم التالي ليأخذني إلى المدرسة.

لم أنم طول الليل. المدرسة ! مررت كثيرا قبل الآن بالمدرسة فكانت تملأني حواجزها الحديدية وبوابتها المقفلة وبنايتها الهامدة بنوع من الارتياب والخوف، فكنت أحمد الله على أنني لا أرتادها مع الأطفال الصغار، ومع ذلك كنت أستغرب كيف يقضون أوقاتهم هناك، قيل انهم يتعلمون، ولكن ما معنى أن تتعلم.

حادثت أختي كثيرا قبل أن أنام، فقالت لي : ان الأطفال يتعلمون في المدرسة القراءة والكتابة، ففهمت، ولكني مع ذلك تساءلت في نفسي : لماذا يتعلم الناس القراءة والكتابة، وبالرغم من هذا فإن مسحة من الحزن كانت تسود حوارنا، لأنني سوف أعيش بعيدا عنها منذ الآن ساعات طويلة من كل نهار.

وجاء الصباح فإذا بي أرتدي ثيابي وأسير مع أبي إلى المدرسة. لقد تملكتني الرهبة وأنا أخطو معه عتبة الباب، ثم رأيتني أدخل بهوا فسيحا وأتقدم إلى جانب أبي نحو مكتب جلست خلفه سيدة جليلة، فحيت هذه أبي وابتسمت لي ابتسامة ذات مغزى، كأنها تريد أن تقول لي «وأخيرا ها أنت ذا !».

ورأيت بعينين مندهشتين دفترا يفتح وقلما يرفع، وبدأت السيدة تسأل أبي عن اسمي وسني ومولدي، وتعقب السؤال بكتابة الجواب، ثم رأيت أبي يخرج ويتركني وجها لوجه أمامها في زاوية من هذا البهو الكبير، كنت أريد أن أصرخ وأن أتمرد ولكنني أدركت أن الأمر جد، وأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنقذني، ولذلك فالأجدر بي أن أسيطر على أعصابي وأحاول أن أساير المقادير.

ذهبت السيدة بي إلى أحد الفصول وما كدت أخطو عتبته حتى أخذتني عيون الصغار من كل مكان وهم يتطلعون في شيء من الفضول نحو هذا الزميل الجديد، فكدت أصعق لأنني كنت أكره أن أكون محط

الأنظار، وتسلمتني المدرسة فأخذتني إلى مكان من الفصل وهي تحاول أن تهدئ من روعي.

ما هي اللغة التي يتكلمها هؤلاء الناس يارب ! انني لا أفهم شيئا، فما الفائدة من مجيئي إلى هنا !؟

ضاعت حريتي، وكان لضياعها ألم عظيم في نفسي، فمنذ ذلك اليوم لم يعد في استطاعتي أن أعبر الشارع إلى منزل آل باترنوس كما أريد، ولا أن ألعب مع أختي، ولا أن أستمع إلى أقاصيص أمي، ولا أن أجلس إلى جانب ميللي، كل هذا قد ضاع فمتى استرد حريتي يارب لأفعل ما أشاء حينما أشاء !

راقني في المساء أن تكون الأسئلة لأول مرة من جانب أختي والأجوبة لأول مرة من جانبي، ولكن ذلك لم يعزني عن ضياع حريتي.

لقد تحقق ما كنت أخشاه وأصبحت تلميذا، ولكن اعتيادي للمدرسة بدأ يهون الأمر مع تقدم الأيام، وبدأت أشعر بأن لهجة الناس قد تغيرت حينما يوجهون الحديث إلي، فماذا حدث !

كنت أجد الأشياء المقلدة بسيطة التعلم، فتعلمت الحروف بسرعة وتعلمت أن أشد بعضها إلى بعض بسرعة كذلك، ولكنني كنت أجد صعوبة في الأشياء التي تفهم. كنت أسمع ميللي وأختيها يتحدثون بأنني أستفيد بسرعة من المدرسة ولكنني لم أكن أصدقهن، لأنني لم أكن أشعر بأنني فهمت شيئا واحدا مما يتحدث به هناك، وكنت مصرا على ذلك بيني وبين نفسي.

وفي المدرسة عرفت شيئا جديدا أزعجني. حضرت يوم الأحد الصلاة مع التلاميذ فلما رجعت إلى المنزل وحدثت أمي عن ذلك أربد وجهها، وسمعتها تقول انها لا تسمح لي بالصلاة مع هؤلاء الأطفال، ثم وصفتهم بصفة المسيحية ووصفتني أنا بصفة أخرى لم أتبينها الا في اليوم التالي

حينما صحبتني إلى المدرسة لترجو من الناظرة ان تعفيني من الصلاة... لأنني لا أدين بالمسيحية وقالت لها انني مسلم. كنت أتوقع أن ترفض الناظرة حرماني من الصلاة وهي التي سمعتهم يقولون عنها انها مقدسة، ولكنها على العكس من ذلك قبلت رجاء أمي ورأت انه واضح ومعقول.

كنت أعرف أنني أختلف عن هؤلاء الناس في جنسيتي وكان ذلك يؤلمني، إذ لماذا لا أكون مثل سائر الناس ؟ فلما عرفت أنني أختلف عنهم في الدين ــ ولو أنني لم أكن أعرف ما هو الدين ــ أزعجني ذلك كثيرا، أما أثناء الصلاة فقد أصبحت بعد هذا اليوم أنتظر المصلين في ساحة المدرسة.

وما أزال أرى نفسي إلى الآن والتحسر يملأ قلبي ! خرجت من البناية أسعى بخطى بطيئة مطأطئ الرأس، حتى إذا وصلت إلى الباب جلست على السلم القصير وأمامي ساحة المدرسة خالية صامتة تملأ النفس رهبة ووحشة. لماذا أنا سيء الحظ هكذا ؟ ما لزوم التحاقي بالمدرسة مادمت أختلف عن سائر التلاميذ ؟ كيف أواجههم إذا ما خرجوا ووجدوني واقفا وحدي هكذا وعرفوا أنني لم أحضر معهم الصلاة ؟ هل أنا كافر شرير طريد من رحمة الله ؟ آه يا رباه !

عرفت ان المدرسة حذرت على التلاميذ ان يفاتحوني في هذا الموضوع، وفعلا لم يفاتحني أحد فيه، ولكن كانت تعلو نظراتهم إلى مسحة من الاندهاش كلما خرجوا من الصلاة ووجدوني واقفا أنتظرهم.

كانت المدرسة تروي لنا الأقاصيص الدينية بلغة استطاعت أن تلمس قلوبنا وتفهمنا معنى الدين، كنت شغوفا بهذه الأقاصيص إلى حد بعيد وأتمنى لو كانت الدروس كلها هكذا. ان صورا منها ما تزال عالقة بذهني إلى الآن، وهي نفس الصور التي تقوم أمام مخيلتي كلما قرأت هذه القصص اليوم :

يوسف وهو ملقى في الجب بعد أن حسده إخوته، والشرور التي تعرض لها ومحنة أبيه وهو شيخ كبير، ثم انتصاره على الشر وعدم انتقامه من إخوته بعد ذلك الانتصار. والنبي موسى يرهبه البحر فينشق له عن طريق حتى إذا نجا انطبق على فرعون وجنوده ذلك الملك الشرير، والنبي عيسى وهو يرحم الضعفاء والمساكين، في أقاصيص ضاعت مني الآن. كانت مثل هذه السيرة توحي إلينا بمعنى جليل للخير وتجعلنا نرهب الشر ونخشاه. ثم أقاصيص قوم كانوا يعبدون الحجارة والتماثيل : قوم كافرون جاهلون، وعلى ذلك فالناس قسمان : مؤمنون يعبدون الله رب العالمين فيبارك حياتهم، وكافرون يعبدون تلك الصور الحجرية الضخمة، وهذه صورتهم أمامنا، لقد كانت صورة أبي الهول وعنده جمال قائمة وجباه في الرمال.

فهل أنا من هؤلاء الكافرين يارب ؟ لقد تحدثت إلى أمي بوساوسي فنقلتها إلى أبي، ومنذ ذلك اليوم بدأ يعلمني أنا وأختي ما معنى الاسلام، فعرفت أنني لست من أولئك الكافرين الذين يعبدون الحجارة، ولكن من يبلغ ذلك اخواني التلاميذ الذين يستقبلونني بالدهشة كلما خرجوا من الصلاة.

زاد اطمئناني في السنة التالية، لا لأنني اعتدت المدرسة فحسب، ولكن لأن أختي بدأت تصحبني إليها أيضا. فقد مرت بنفس الدور الذي مررت به، فأفضى بها إلى نفس المصير، ومنذ ذلك الحين، بدأ الجيران يروننا كل صباح نفتح باب المنزل وننحدر معا إلى الشارع، فنسير فيه جنبا إلى جنب، إلى أن نغيب عن الأنظار، وكانوا يروننا كذلك حينما نعود.

ضاع مني الآن ما كنت أتعلمه تلك الأيام، الا أن درسا واحدا لا يمكن أن أنساه أبدا، ذلك هو درس النحو. وكنت أساير المدرسة في كل

دروسها، لكنني في درس النحو كنت أنقلب إلى تلميذ بليد لا حيلة له. الاسم، الفعل، الحرف، كلمات ــ وياما قاسيته منها ــ تترك في الذهن صورا مشوهة ملتوية لأشياء لا تحديد لها. كنت أحاول دائما أن لا تلاحظني المدرسة في دروس النحو، ولكنها فطنت إلى أنني لا أسايرها. آه ترى أين هي الآن تلك الآنسة الرصينة ذات القسمات الحادة، والشعور السوداء، والوجه الجميل ؟ فطنت إلى عدم مسايرتي، فحاولت أياما أن تفهمني باللين فعجزت، ثم حاولت أياما ان تحملني على الفهم فعجزت أيضا، فلم يبق لها الا ان توقفني على كرسي أمام التلاميذ وتصيح في وجهي غاضبة بمصطلحات نحوية كانت تزداد غموضا كلما ازداد صياحها. ومنذ ذلك اليوم صار وجهي يحمر خجلا كلما سمعت أحدا يقول عني أنني تلميذ ناجح، وهذا الخجل نفسه هو الذي منعني من أن أذكر لأحد ما أقاسيه من عنت في درس النحو هذا. ولذلك لم يعد لي بد من أن اتجرع صامتا كؤوسا مريرة من الحسرة، دون أن يعلم بذلك أحد.

ومع هذا لم أستطع أن أقول ان المدرسة كانت شرا كلها. فهناك زمالة هؤلاء التلاميذ المهذبين، ومصاحبة أختي، ورضى الناس عنا، واللعب أثناء الاستراحة، واللعب قبل افتتاح المدرسة في الصباح، وخصوصا الانزلاق على الجليد والتقاذف بكور الثلج أيام الشتاء.

كانت باب المدرسة هي نفس باب الحياة، فإن حياتي كانت ضيقة محدودة، وكانت صورها مستمدة من نفسي أكثر مما كانت مستمدة من الواقع. فلما اجتزت عتبة باب المدرسة، لاحت لي الحياة في صور أخرى. ولم يكن ذلك بفضل الدروس، ولكنه كان بفضل البيئة التي أصبحت أقضي فيها جزءا غير قصير من النهار.

11

ان مسز شالمداين تزورنا كثيرا في هذه الأيام على غير عادتها، ولما كنا ننتظر بفارغ الصبر رؤيتها لكي نتوسل إليها ونحن نطلب منها أن تأتي لنا بأخ صغير فإنه لم يكن لنا حديث معها سوى هذا.

هل تريدان أخا صغيرا ؟ انني على استعداد للاتيان به، لكن ذلك يكلفكما شططا، لاشك أنكما تتعهدان بأنكما ستحبانه وترعيانه، ثم ان عليكما بعد ذلك أن تشترياه من مالكما الخاص، فعليكما منذ اليوم أن توفرا نقودكما حتى يتجمع لكما المال الكافي لشراء طفل جميل يكون لكما أخا. هل فهمتما اذن ما أريد ؟

كنا نخبرها في كل زيارة بعد ذلك بما تجمع لدينا من هذه النقود وهي تستزيدنا، ثم قالت لنا ذات يوم : انها قدمت عند صاحب حقل الكرمب، فحدثته عنا وعن استقامتنا، فرضي أن يمنحنا طفلا حينما ينبت، ولكنه يشترط أن نظل مستقيمين، والا فإنه سيسحب منا وعده، ويبيع الوليد الجديد لعائلة أخرى يكون أطفالها أكثر استقامة.

رحمتك يا صاحب حقل الكرمب ! اننا نرسل إليك تحياتنا كلما رأينا المسز شالمداين واننا لندعو الله في سرنا وفي جهرنا ان يهب لك البركة في عملك، وكثرة الأطفال في حقلك، فارحم هذه الخلجات التي يخفق بها قلبانا الصغيران. ان الأيام لتمر موشكة ان تنقلب إلى سنين، ونفسانا تذوبان شوقا إلى ثمرة من ثمرات حقلك الخصيب. ياصاحب حقل الكرمب، ليت لك اذنا تسمع حوارنا كل ليلة قبل أن ننام، لقد استبطأنا هبتك الموعودة فمتى تتكرم بإرسالها. ارحم أملا في قلبين أوشك أن يعصف بهما اليأس. جمعنا نقودنا ولم نعد نشتري ألعابا ولا حلوى،

واستقام سلوكنا فكل واحد منا رقيب على نفسه وعلى الآخر، واننا لا نسمح للنفس بأن يختلج فيها مالا يرضى، ليت المسز شالمداين تقبل ان تقودنا إليك، واذن لسفكنا دموعنا عند قدميك، ولجعلناك ترق لنا بهذه الدموع. ولكنها تقول عنك انك لا تستقبل المشترين الا بواسطتها، وهي ماضية في تسويفنا، وان كانت قد وعدتنا وعدها، فمتى تصلنا هديتك ياصاحب حقل الكرمب !

مناجات نفسين برح بهما الشوق إلى أخ صغير، لقد زادنا وعد المسز شالمداين شوقا إلى شوق، وانا لنعلم انه لحق ولكن صبرنا قد نفد.

وكثرت زياراتها فكنا نفتح باب الغرفة لنرى تلك السيدة الجليلة تخطو بخطواتها الوئيدة، وقامتها المديدة التي لم تستطع الأيام أن تثنيها، نحو السلم إلى الطابق الثاني حيث توجد أمي التي لم نكن نزاها في هذه الأيام لمرضها، وكنا دائما ننتبه إلى حقيبتها لعلمنا أنها لا تحمل المواليد في الحقيبة العادية، وانما تحملهم في أخرى جديدة ممتازة أكبر من الأولى.

طرقت الباب ذات مساء ففتحت لها الخادم، وما كادت أختي تسمعها حتى أسرعت إلى باب الغرفة تطل منه، لقد كانت على البيت مسحة غير عادية، ولابد أن ذلك هو الذي دفع أختي إلى الحرص على شدة الانتباه. ثم أقفلت الباب مرة أخرى، واستدارت نحوي تنظر إلى نظرات غريبة، للأمل فيها بريق شديد.

رأيتها تقترب مني وهي تغافل ميللي التي كانت معنا في الغرفة ثم تجلس إلى جانبي صامتة وقد احتبست أنفاسي وأنا أترقب كلامها واستطلع أساريرها، ثم خرجت ميللي مسرعة كأن صوتا دعاها.

لم تكد تقفل الباب حتى استدرت نحو أختي لأسألها، ولكنني لم أجدها إلى جانبي، لقد قفزت في الهواء ضاحكة مستبشرة، ثم دنت مني وهي تقول :

ــ مسز شالمداين !

ـــ مالها ؟

ـــ احرص على أن لا تقول شيئا لئلا نفسد الأمر.

ـــ ما للمسز شالمداين ؟ سوف لا أقول شيئا.

ـــ رأيتها تحمل الحقيبة الكبيرة، لقد صعدت بها إلى أمي !

ـــ رباه ! هل صحيح ما سمعت ؟ أيمكن أن تكون تلك الحقيبة المرموقة ذات الجلد اللامع دخلت إلى منزلنا وفيها أخ صغير.

كنا نتحدث همسا خوفا من أن يسمعنا أحد، وبودنا لو كان في استطاعتنا نملأ المنزل ضجيجا من شدة الفرح. ولكن شعورا غريبا استولى علينا معا، هو انه يجب أن لا نسبق الحوادث حتى لا نفسدها، فقد يغضب صاحب حقل الكرمب ويسترد هبته إذا كان قد بعث بها حقا.

قضينا ليلة قلقة ننام لنستيقظ ونستيقظ لننام على صوت يهمس تحت الوسادة : أخ جديد أخ جديد ! تحدثنا عنه ماشاء لنا الحديث، ولم أسمع أختي تخبرني بأنها تريد أن تنام، ولم أر أشباحا في الظلام، لقد تبددت تلك الوجوه الكريهة، ولم يعد هناك خوف يملأ نفسي، فلقد ملك على حواسي أن يكون لي أخ جديد. وظللنا هكذا ساعات إلى أن حملني النوم إلى عالم الأحلام الوديع.

من هذا الذي ينادينا من عالم الأحلام في الصباح المبكر : استيقظا ! استيقظا ! لقد أصبح لكما أخ جديد ! انها ميللي توقظنا لتبشرنا بالحادث السعيد.

فركنا عيوننا، وتبينا ما يقوله الصوت، فطارت الوسائد في الهواء وطرنا نحن في اثرها نثب ونصيح ونغني، واندفعنا نحو الباب في سباق نحو غرفة أمي لكي نرى أخانا الجديد.

لا ليس الآن، إنه نائم، سوف لا تريانه إلا بعد يومين، انه متعب.

جلسنا إلى المسز شالمداين وهي تحدثنا عنه وعن صاحب الحقل،

وكيف رضي أن يبيعه لنا، وماذا قالت له وماذا قال لها، وعن رضاه عنا وعن سلوكنا. ولكنني لم أكن أستمع إلى شيء مما تقول، كنت أتأمل وجهها الطافح بالبشر والخير، وجهها الطويل المتغضن الذي كان ممتلئا في يوم من الأيام، وفوق رأسها الغطاء الأبيض الناصع حوله شريط أزرق عريض، كان خداها غائرين بعد سقوط أسنانها، وكانت شفتاها ترتعشان وهي تتحدث إلينا فيغمرني حديثها بإحساس كله رحمة وخير. ان هذه السيدة الجليلة ذات الخطى الوئيدة تسحب خلفها تاريخا طويلا كله عطف وإنسانية. لطالما سهرت الليالي لكي ينام الآخرون، وما تزال إلى الآن تبذل المجهود الجبار على ضعفها لكي تسدي الخير إلى الناس، وتغمرهم بعطفها. انها فوق السبعين من عمرها. ولكن روح الخير فيها شاب يافع لا يعرف الكلال إليه سبيلا. وحول رأسها هالة المجد، مجد الأيام الغابرة التي لا تشوب شائبة ما ذكراها.

هذه السيدة الجليلة المحطمة هي التي تنهض من فراشها متحاملة على نفسها لكي تسوق السعادة إلى البيوت. انها تسعف الأمهات، وتواسي الأرامل واليتامى، وتعزي الشيوخ والعجزة، وتحمل الغبطة إلى الأطفال، دون أن يهدأ لها بال إلا إذا قامت بكل ما في استطاعتها لكي تشرق الحياة في بيوت الآخرين.

وها هي ذي جالسة معنا وقد انصرفت عن الكبار إلينا، سعيدة لسعادتنا، مغتبطة لاغتباطنا. لقد حققت لنا أملا، وتحدثت إلينا، وها هي ذي تقوم قائلة : لقد أطلت معكما الجلوس، والآن يجب أن أقوم لأبحث عن الأطفال الآخرين الذين يريدون الحصول على أخ جديد كما كنتما تريدان، أليس كذلك ؟

خرجت متحاملة على نفسها كما دخلت متحاملة على نفسها، ولكن لم يبدو عليها انها متعبة لأنها كانت تجد لذة في القيام بواجبها، وعند الباب وعدتنا بأن تزورنا في وقت قريب.

أما الأخ الجديد فقد رأيته أخيرا، حملوني فأشرفت عليه، فإذا بي أمام مخلوق غريب : أعضاء تافهة، رأس أملس، عينان صغيرتان، انف أفطس. وما كدت أشرف عليه حتى أرسل في وجهي صيحة كأنه يريد أن يقول : «أأنت الذي كتب علي أن أكون أخا له ؟» فمالك ياأخي تتأملني ياأخي الصغير، الا تقبل أن أكون لكما أخا ؟ لا تخف، سوف نبذل كل ما في استطاعتنا أنا وأختي لكي تكون سعيدا. فرأيته يبتسم ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة كما لو كان سره ان يختلج قلب أخيه بمثل هذا الشعور، وشد بيده الصغيرة على أصبعي، كأنه يقول : هل أنت متأكد من هذا. فابتسمت له كأنني أقول : وهل تشك في أخيك ؟

ملأنا زهوا وفخرا أن يكون لنا أخ، ولم يكن لاغتباطنا نهاية، أحببناه قبل أن يولد، فلما ولد جننا به جنونا. وكان الناس يداعبوننا بهذا، ولكنهم كانوا يعجبون لشدة اهتمامنا به وحبنا له.

فيا صاحب حقل الكرمب ! لقد وهبت لنا السعادة ممثلة في هذا الأخ الصغير، فكيف ننساك بعدما رزقنا به. لقد وصلنا الأخ الجديد ودفعنا للمسز شالمداين النقود التي جمعناها، ولكنها رجعت إلينا بعد يومين قائلة انك ارجعتها إلينا لأنك راض عن سيرتنا، وان الأخ الصغير هدية خالصة منك إلينا، فيكف نشكرك على صفاء نفسك وطيبة قلبك.

سوف نذكرك ما سعدنا بهذا الأخ الصغير ياصاحب حقل الكرمب، وندعو الله دائما أن يبارك لك في تجارتك، ويهبك دائما ما تريد. وسنوصي الأطفال الذين يريدون إخوة بأن يشتروا أخوتهم من الحقل الذي تعامله مسز شالمداين، فإن صاحبه لا نهاية لطيبوبة قلبه وحبه للخير.

ولكن مع هذا كله لا نستطيع أن نفي بما نحن مدينون به لك ولو ظللنا نسدي لك الخير طول حياتنا. ولذلك نرجو أن تقبل ما يستطيع ان يقدمه إليك طفلان صغيران بعد أن أرجعت إليهما نقودهما، وهو ان يشكراك آناء الليل وأطراف النهار، يا صاحب حقل الكرمب.

12

وأخيرا أقبلت ليلة الميلاد، تلك الليلة المرموقة التي انتظرناها طويلا وانتظرنا ما فيها من ابتهاج وانفعال وغبطة، لقد قابلنا «شيخ الميلاد» وحدثنا في لطف وبشرنا بأننا سوف ننال هداياه ما دمنا محافظين على الاستقامة، وانه سوف يسعى بها إلينا ونحن نيام في هدوء الليل البهيم. سوف ينحدر إلينا وهو يتنقل بين النجوم ثم ينزل إلى غرفتنا من خلال المدخنة ويتحفنا بما كنا نتمناه خلال السنة. سوف يحقق لنا أحلامنا، تلك الأحلام التي يعرفها جيدا ويعرف كل ما يتعلق بها. أجل قابلناه، ورأينا لحيته البيضاء الطويلة البهيجة، وصافحناه فمنانا، وهو لاشك ساع إلينا بما نريد، فهو أبو الأطفال جميعا، أبوهم الرحيم الرؤوف الذي خصص حياته الطويلة لأجل إدخال السرور على قلوب أبنائه الأبرياء.

أقبلت ليلة الميلاد واحتوتنا غرفتنا لنستيقظ في الصباح على المفاجأة المحبوبة ولكننا لم نستطع النوم من فرط الابتهاج والتوقع، والاطمئنان إلى الأمل البراق. كنا نحاول أن ندفع الأفلاك ونستعجل الصباح الجديد لنحتضن أمانينا.

وبدأنا نتحدث كما كنا نتحدث دائما، ولكن حديثنا هذه الليلة كان يمتاز بالحرارة والسرور. كان تفكيري انا منحصرا في الأماني التي سوف أستيقظ فأجدها حقائق ملموسة، غير أن تفكير أختي تحول فجأة عن هذا الموضوع حينما تساءلت :

ــ كيف يستطيع شيخ الميلاد ان يدخل علينا غرفتنا ونحن نائمون، والباب مقفل. أليس هذا غريبا ؟

ــ لاشك أنه يدخل، والا فمن ذا الذي يأتي بالهدايا ؟

ـــ نعم انك لا تلاحظ ما يحيط بك، أنا أيضا كنت أظن ذلك، ولكن تبين لي أن في الأمر سرا.

ـــ أي سر ؟

ـــ ألم تلاحظ أن لحية شيخ الميلاد ناصعة البياض دائما وان ثيابه نظيفة، كيف لا تسود ليحته وتتسخ ثيابه لكثرة ما ينحدر مع المداخن، ثم كيف يستطيع رجل في مثل حجمه أن ينحدر مع المدخنة الضيقة ؟ هل تصدق أنت هذا ؟

ـــ كيف لا أصدقه والناس جميعا يتحدثون إلينا بذلك، والا فمن يأتي للأطفال بهدايا الميلاد ؟

ـــ آباؤهم وأمهاتهم، يفتحون عليهم الغرفة وهم نائمون ويدسون الهدايا الصغيرة في الجوارب المثبتة في مؤخرة الأسرة، أما الكبيرة فيضعونها على الأرض. وإذا كنت لا تصدق ذلك فلنظل صاحيين إلى أن نرى من يأتي بها.

ـــ ولكن شيخ الميلاد سيغضب إذا وجدنا صاحيين ويرجع دون أن يترك لنا هدايا، فأنت تعلمين أن الأطفال المستقيمين يجب أن يناموا مبكرين.

ـــ إذا كنت لا تصدقني فاسمع إلى ما رأيته هذا الصباح، طرق الباب فلما فتح رأيت حمالا يدخل وبين يديه رزمتان كبيرتان، فأمرتني ماما أن أصعد إلى الدور الثاني حتى لا أرى ما يحمله.

ـــ وأي شيء في هذا ؟

ـــ لقد كان يحمل الهدايا التي سوف تجدها هنا في الصباح، فهي معنا في المنزل الآن، وإذن فليس شيخ الميلاد هو الذي يحمل إلينا هذه الهدايا.

ـــ أين هي إذن ؟

ـــ انها في غرفة الجلوس، فقد ظلت هذه الغرفة مغلقة منذ الصباح، ومنعتني ماما من دخولها حينما حاولت ذلك.

ـــ وكيف نستطيع أن نتأكد من أن ما تقولينه صحيح ؟

ـــ ألم تطلب من شيخ الميلاد ان يهدي لك دراجة صغيرة، وطلبت أنا منه أن يهدي لي عربة صغيرة لأضع فيها دميتي.

ـــ هذا صحيح.

ـــ العربة والدراجة في غرفة الجلوس، وإذا كنت تريد أن تتحقق من ذلك فهيا بنا ننزل إليها.

ـــ انني أخاف.

ـــ ليس هناك ما يخيف، هيا انزل معي، فإنه يجب أن نكتشف الحقيقة.

وترددت كثيرا قبل أن أوافق على اقتراحها فلقد كان رأيها رأيا جريئا بالنسبة لي، كان تحديا مخيفا للحقيقة التي كنت أشفق على نفسي دائما من مواجهتها، وتحديا للظلام الذي لا احتاج ان أقول انه كان يرعبني. أضف إلى ذلك أنني كنت أخشى أن يكون ما قالته صحيحا فتنهار في نفسي خرافة لذيذة، وتفقد هدية الميلاد بهاءها ورونقها.

ومازالت تقنعني إلى أن قمت معها، وسعينا إلى الباب في بطء على أطراف الأصابع إلى أن وصلناه، ثم عالجناه باللين إلى أن انفتح دون حس، ثم وضعت يدي في يديها وانحدرنا مع السلم بأقدام حافية، وبدت لنا المدة التي قضيناها في سبيلنا إلى الغرفة المقصودة أطول بكثير مما كانت في الواقع لكثرة الهواجس التي شغلتنا خلالها. كنا أثناء ذاك نضغط حتى على أنفاسنا مبالغة في الحذر، كان عملا إذا ما أتيناه تلك الليلة، بحيث شعرنا بفداحته في أعماق نفسونا شعورا دقيقا. كنا نخترق القانون ونشعر لأول مرة بما في اختراق القانون من إحساس بوخز في هذا الموضع

الذي عرفنا فيما بعد انه يدعى بالضمير. ظللنا نسمع منذ كان لنا سمع بفداحة الحركة في الظلام... واننا لنأتي اليوم عملا لا نستطيع غدا أن نقول اننا أتيناه. أتينا عملا لابد من أن نخفيه، وهذا في الواقع تصرف مروع. هيمن هذا الشعور على نفسين مازالتا بريئتين من كثير مما في الحياة، كنا نضطرب ونقشعر ونكاد نتداعى، ولكن الرغبة في كشف الحقيقة ومواجهة الواقع كانت أكبر من هذا كله، فلقد تمكنا من الوصول إلى غرفة السر وكشف الغطاء عن الحقيقة. فتحنا بابها في حذر، فإذا نحن وجها لوجه أمام الواقع... الواقع الذي شعرنا لأول مرة بمرارته... كان مصباح الشارع يضيء ظلام الغرفة فرأينا السر على ضوئه الباهت وبدا لنا مرعبا. لم نستطع أن نواجهه وإنما انقلبنا على أعقابنا ورجعنا إلى غرفتنا في صمت.

استيقظنا في الصباح على صوت أبي وأمي وقد جاءا ليقدما إلينا هدية عيد الميلاد... فقفزنا نعانقهما وقد أسرع كل واحد منا إلى الهدية التي عرف سرها في أول الليل، عرفها في الظلام، ولكن بالرغم من ذلك كله وجدنا حقيقة الصباح أروع من حقيقة الليل، كم كنت سعيدا بأن تصبح لي دراجة، وكم كانت أختي سعيدة بأن تصبح لها عربة تضع فيها دميتها.

كان يوم الميلاد يوما بهيجا كله غبطة وسرور. فلقد زرنا آل باترنوس في الصباح واستمعنا إلى الحاكي الذي كان يغرد بالأغاني الرائعة في هذه الغرفة التي ازدانت بالزهور والصور الجميلة والأثاث الأنيق، كان يوم عيد الميلاد حقيقة يوما جميلا، وهو يوم جميل في كل سنة، لأنه يحفل دائما بالألعاب والهدايا والزينات والأغاني والابتسامات.

وحضرنا هذه الحفلة التي أقامها أصدقاء المراكشيين لأطفالهم ولأصدقاء أطفالهم. ودخلنا بهو الحفلة فتعلقت عيوننا المشدوهة بشجرة بديعة لعيد الميلاد وقد أثمرت بالهدايا واللعب، واشترك الأطفال جميعا في اكتشاف لعبة السر، وهم يتضاحكون ويتلاعبون، وأحطنا بعد ذلك بالمائدة

الحافلة باللذائذ والطيبات، ثم ودعنا صاحب الحفلة لنقضي العشية في الحديقة العامة، وفي المساء ذهبنا ضمن جماعة لمشاهدة إحدى الروايات.

ابتهجنا بعيد الميلاد ابتهاجا أنسانا قصة الليلة السالفة، وكانت حرية بأن تنغص علينا بهجتنا وسرورنا.

ولكنا تذكرناها خلال الليل، قبل أن نصعد إلى غرفة نومنا، فقد قالت لنا (ماما) ونحن جلوس حول مائدة العشاء :

ــ استمعا إلي. ان شيخ الميلاد يبلغكما تحياته، وهو يعتذر إليكما لأنه لم يستطع أن يزوركما في غرفة نومكما خلال الليلة الماضية فسلمكما هديتكما عن طريقي... راجيا مني .أن أنوب عنه في تسليمها إليكما، كما رجا مني أن أوصيكما على لسانه بالاستقامة وحسن السلوك. هل فهمتما ؟

كانت تحدثنا بلهجة غريبة، ولكننا لم نفطن إلى هذا آنذاك، وإنما تبادلنا النظرات أنا وأختي وقد طاف بنا طائف من الاستغراب... ثم رفعنا عيوننا إلى (بابا) فرأينا بريقا مريبا في عينيه.

كانت أختي أكثر اضطرابا مني، فقد كانت هي التي أوحت إلي بالفكرة في أول الأمر، ولكن غمرنا معا شعور من الندم صرفنا عن الكلام، ولم تنبس أختي حينما صعدنا إلى غرفة النوم ببنت شفة خوفا من أن ألومها... دون شك.

لم نتبادل أي حديث، ولكن أرقنا طال. فلقد كانت أختي تفكر دون شك فيما دفعتني إليه وما ارتكبناه من جرم، كما كنت أنا أيضا أفكر في نفس الحادث. لقد أسأنا النية بعيد الميلاد... وتسللنا في الظلام... واتهمنا والدينا... ولذلك فقد احتضننا النوم بين ذراعيه الرحيمتين ونحن نتذرع إلى الله من أعماق قلبينا ان يغفر لنا خطايانا في ليلة عيد الميلاد.

13

لم يكن هناك ما يدعو إلى الاهتمام بفواجع الحياة، فقد اندمل الجرح الذي أحدثه موت الأم في نفسي، واندفعت في الحياة ألعب مع أصدقائي الصغار ومع أختي وأتردد بين منزلنا ومنزل آل باترنوس والمدرسة.

كان لنا أصدقاء صغار يلعبون معنا في الشارع والمنزل لا أزال أذكر منهم ريجي واردن وأرين فليتشر، فماذا يا ترى صنعت الأيام بهما بعد هذه السنين الطويلة ؟ ولست أعرف لماذا علق هذان الاسمان بفكري دون غيرهما خلال هذه المدة الطويلة.

لا أريد أن أتحدث عن هؤلاء الأصدقاء هنا، وإنما أريد أن أذكر على سبيل المثال رأيهم في وفي أختي. ذلك أنني كنت ضعيف البنية، وكانت أختي تبدو أقوى مني وأنضر جسما. وعندما كنا نلتقي بعد الخروج من المدرسة لنعدو ونمرح في طريقنا إلى المنزل كان هؤلاء الأصدقاء يشيرون دائما إلى صحة أختي وعافيتها ثم يقيسون ذلك إلى ضعفي وشحوبي. اضف إلى ذلك أنني كنت أمرض كثيرا دون أن تصاب هي بشيء، ولذلك كان الناس الذين يقابلونها بالابتهاج يقابلونني أنا بالعطف، وكانت هي في الواقع أكثر بشاشة وحركة ونشاطا.

لست أدري كيف حدث ذلك، ولكنني وجدتني وحيدا بين هؤلاء الأصدقاء. وكان لاختفاء أختي من بيننا تأثير عميق. لقد غابت عن اللعب لأول مرة لأنه لم يعد في استطاعتها أن تبارح المنزل.

اقض مضجعي هذا المرض، لأن الناس كانوا يتهامسون حوله، ويكثرون

من التأسف. وجاء الطبيب، وهو رجل لن أنساه أبدا، فقد كان مهيبا وقورا يقبل إلى المنزل في سيارته السوداء اللامعة وكان كل من يراه يحترمه ولا يجرؤ أحد على رفع الصوت في حضرته. والواقع أن منظره كان يفرض الاحترام على كل من يراه، وكثرت زيارات الدكتور وادل، وأخيرا أعلن أنه لابد من أن تذهب إلى المستشفى لتجري لها عملية جراحية.

خيم الصمت على المنزل من جديد، وأعاد ذلك إلى ذهني تلك الأيام الكئيبة التي ماتت فيها أمي، وأبى والدي أن يوافق على مثل هذه العملية وطلب من الدكتور وادل ان يجد طريقة لانقاذها دون إجرائها، وبكت أمي بكاء حارا وخلوت أنا إلى نفسي فإذا بالحادث يتمثل لي في أبشع صورة.

لست أدري ما نوع المرض الذي أصابها، ولا أريد أن أعرف، وكل ما أدري هو أنها أصيبت بانتفاخ في عنقها، وكان انتفاخا بشعا، ومع ذلك كنت أطيل النظر إليها ونفسي تكاد تذوب حسرات عليها، ولم أنس منظر أولئك الأصدقاء حينما كانوا يقبلون إلينا لعيادتها، وكانوا يقبلون صامتين مهمومين ويدخلون إلى المنزل في حزن وحيرة، ثم يدخلون الغرفة التي توجد فيها الطفلة المريضة شاردي الأبصار، وهم يخطون في بطء إلى أقرب كرسي أو مقعد، ثم يسأل أحدهم كيف حالك ياطفلة، فتجيبهم هي في ثبات ويقظة بأنها بخير وأن ما أصابها لا يلبث أن يزول. ويتكرر هذا السؤال من زائر آخر وتتكرر الاجابة وتبدو على الوجوه مسحة غريبة من الحيرة والعطف والخوف، ثم يسود الصمت، ويتبادل الأطفال نظرات كلها ألم وحسرة، ثم يستأذنون في الانصراف ويخرجون وهم يدعون في سريرتهم ان يشفي الله صديقتهم الصغيرة.

وأيقنت بسبب هذا الجو الذي بات يحيط بنا أن الأمر جد خطير وجثم الخطر على صدري وانتابتني هواجس رهيبة، وكنت أشعر بفداحة العجز عن التصرف في مثل هذا الموقف وفي نفس الوقت أشعر بأن هناك

واجبا ملقى على عاتقي لا أعرف ما هو، ولكنني أعرف أنني عاجز عن القيام به.

وأخيرا أعلن الدكتور وادل أنه لابد من العملية الجراحية، وان تأخيرها ليس في مصلحة المريضة. وحاول أبي أن يقاوم لكنه أفهمه في وقاره الصارم ـــ وكأنه يتكلم بلسان القدر ـــ ان نصيحته التي لا يملك غيرها هي أن يضحي الأب بعواطفه في سبيل مصلحة ابنته، وان الطب تطور تطورا لم يعد معه خوف من العمليات الجراحية، وانه مندهش لتردد أبي وهواجسه.

وذات صباح رهيب في جو يطفح بالدموع والزفرات والألم، نقلت أختي إلى المستشفى وهي ثابتة الوعي، وأقل أفراد العائلة جزعا. وما أزال أراها خارجة من المنزل لتواجه الخطر بجبين مرتفع، وخطوات ثابية، وهي تؤكد لأمها أن كل شيء سوف يتم على ما يرام.

خلا المنزل من البهجة ومن الحركة ومن النشاط ليخلفه جو كله صمت وتوقع، كما لو كانت أنفاسه محبوسة، وحواسه مرهفة لسماع أخبار الطفلة الموجودة في المستشفى. خلا المنزل كما لو كان قد غادره سكانه جميعا، وعششت فيه الوحشة والأحزان، وخصوصا حينما رجع أبي وأعلن لنا أننا لن نستطيع رؤيتها الا مرة في الأسبوع، وان العملية ستجرى بعد بضعة أيام.

وانتظرنا على أحر من الجمر موعد الزيارة، وأصبحت أنام وحدي في غرفتنا، ولكنني في الحقيقة لم أكن وحيدا، لقد كانت ذكراها تملأ الغرفة، وكانت صورتها تتداعى في مخيلتي في أوضاعها المختلفة، وفي صمت الليل وظلامه كانت أنفاسي تحتبس من فرط التأثر حتى لأكاد أختنق.

وأخيرا جاء موعد الزيارة، وذهبت مع أبي إلى المستشفى. يا للمكان الرهيب ! في هذه الزاوية الهادئة من أطراف المدينة، تقوم تلك البناية

الضخمة الغريبة، وان منظرها ليثير في النفس معنى كله ابهام وغموض. في هذه البناية أرواح في خطر. وأناس مهددون بالموت في كل حين، وقد تركوا لمقاديرهم وأبعد عنهم الناس ليلقوا مصيرهم وحيدين في هذه الغرف الهادئة الصامتة التي تطفح برائحة غريبة كأنها رائحة الأرواح التي احترقت هناك.

دخلنا الغرفة فوجدنا أختي جالسة في السرير تستقبلنا بوجه باش، وقد كادت تبكي من شدة الفرح. كانت محاطة بالرحمة ولذلك لم تكن منزعجة، ولكن وحدتها في ذلك المكان كبرت عليها. وقد تحدثت إلينا في مثل ذلك الوعي الذي فارقتنا به عن وحدتها، وما تشعر به، والمعاملة الحسنة التي تعاملها بها الممرضات. وانقضى نصف الساعة الذي كان مخصصا للزيارة في لمح البصر، ونبهتنا إحدى الممرضات إلى أن موعد الذهاب قد ازف، وهناك سادنا الصمت، وبدا الانزعاج على وجه أختي. ولما تحركنا للقيام خانها ثباتها فانفجرت باكية، فلم يكن بد من انهاء الموقف لئلا تستمر في تأثرها، ولذلك انحنى عليها أبي وقبلها فتعلقت به ترجوه ان لا يفارقها، فعانقها وهو يطمئنها بصوت مختنق، ويؤكد لها انه سوف يبذل مجهودا للحصول على إذن بزيارتها كل يوم. ثم خلص نفسه من بين ذراعيها في رفق، وأسرع نحو الباب. وكنت أنا أبكي بكاء مرا أثناء ذلك، فسحبني من يدي، وخرجت معه دامع المقلتين وأنا أشير لها بيدي الأخرى مودعا.

مرت الأيام بطيئة متثاقلة إلى أن جاء موعد العملية، وتأخر أبي عن العودة إلى منتصف الليل، وجلسنا ننتظره وقد خلا كل واحد بهواجسه في صمت وامتلأ المنزل بفتيات آل باترنوس وبعض الصديقات المراكشيات وهن يواسين أمي ويبعثنها على الاطمئنان، وكررن الكلام الذي قلنه وطال الوقت، وبدأ الصمت يسود الجميع، وتعلقت الأنفاس، وتطلع الجميع إلى

يد القدر التي توشك أن تطرق الباب، لتحمل الخبر على لسان أبي وطرق الباب، فقفزت أمي بأسرع ما تستطيع إليه، وتبعتها النساء فدخل أبي وهو مبتهج الوجه ليعلن أن العملية قد نجحت، وان أختي بخير.

وهكذا انتهت تلك الأزمة التي خيمت على المنزل أكثر من شهرين، وعادت أختي إليه بعد نحو أسبوعين، ولكنها عادت شخصا آخر، ضعيفة البنية، شاحبة الوجه، يثير منظرها الرأفة أقسى القلوب. بيد أن شيئا واحدا لم يفارقها هو ثباتها وإيمانها ودقة ملاحظتها، بالاضافة إلى لمعان لم يفارقها أبدا بالرغم من كل ما أصابها، وكان ما يزال يشع بقوة في فكرها وعينيها.

واستقبلها الناس يوم عادت في بشر وحبور، ولكن شخصا واحدا ظل مضطربا هو أنا، ذلك أنني شعرت في غموض منذ أن وقع نظري عليها للمرة الأولى أن أختي التي ذهبت إلى المستشفى ظلت هناك إلى الأبد، اما هذا الذي احتفلنا بعودته فليس سوى شبحها.

14

وانطلق بنا القطار ينهب قضبان الحديد، وهو يزفر ويصرخ، كما لو كان قد انشرح لأنه أسرنا. كنت جالسا إلى جانب والدي وإلى جانب أحد أقربائي وهو شاب في نحو العشرين من عمره، عاش مدة طويلة في منشستر، وكان وجه أبي منشرحا اما وجه الشاب فكان مغتما، وكانت عيناه تقدحان بمزيج من الحزن والغضب، واما أنا فكنت خائفا، إذ لم أكن أعلم فيم هذا السفر ولا المكان الذي نقصده، فقد حرصت أمي على أن لا تخبرني، ولكن أختي منذ يوم واحد فقط قالت لي : إن أبي سوف يأخذني وحدي إلى مراكش، تلك البلاد البعيدة.

كان ذكر مراكش يثير في ذهني صورا متعددة من الخرافات التي كنت أسمعها، لقد اختلطت في فكري ببلاد الزنوج، البلاد التي تسكنها المخلوقات الشاذة في كل شيء، في حجمها ولونها والأعمال التي تأتيها. ولم أصدق أختي بالطبع، إذ لم تقل لي ذلك على أنها مومنة به، ولكنها ألقت إلي بالنبأ المروع على أنها فهمته فحسب. فقد قلقت إذ لم أكن أتتبع أنباء البلاد من أمي وحدها، ولكنني كنت أسمعها في المدرسة أيضا. وكانت أخبارها مثيرة حقا، يلذ للأطفال أن يسمعوها، ولكن لم يكن مما يرضيهم أن يشدوا الرحال إليهم.

لم أستطع أن أصدق أننا ذاهبون إلى مراكش، هذه البلاد التي طالما روت لي أمي أعاجيبها. ولكن كل شيء كان يدل على أن أختي صدقت في حدسها، فقد قالت أننا سنسافر بعد يوم واحد فسافرنا بعد يوم واحد، وقالت انني سوف أسافر مع أبي وحده وهذا ما حصل بالفعل، وهكذا بدأ يداعبني الايمان بصحة تبينها.

ونظرت إلى قريبي الشاب فوجدته يقف ويتحدث بهذه اللغة التي يقولون عنها أنها اللغة العربية. وبالرغم من أنني لم أكن أفهم ما يقول، كان في استطاعتي أن أدرك أنه غاضب ثائر على هذه الرحلة التي حمل عليها حملا، وأدهشني أن أرى أبي يرد على هذا الغضب وعلى هذه الثورة بضحكات طويلة تعبر عن الاستهانة والسرور. فكان الشاب يقوم ويجلس في ديوان القطار، ثم يضع رأسه بين يديه في حزن عميق، ولكن أدهشني أن أرى أبي مستمرا في ضحكه الذي لم يكن يخلو من عبث لم أفهمه.

كل ذلك والقطار يلتهم الطريق في نهم كما لو كان قد أصابه جنون، وبالرغم من أنني كنت ألاحظ ما يدور بين أبي وقريبي، كنت في نفس الوقت منصرفا إلى التفكير في الغاية من هذا السفر، فقد كنت أتصور أن تحقيقها سوف يكلفنا المخاطر. لم أعد ذلك التلميذ المنسي في مؤخرة الفصل، وانما أصبحت فتى نهض مع والده ليقتحم قلب افريقيا على بلاد الأساطير. وهذا ما أطار صوابي، ولقد زاد في قلقي غضب الشاب وثورته، فقد عرفت أنه من هذه البلاد التي ننتسب إليها جميعا، ولكنني أعرف أنه لم يعد ينتمي إليها لأنه لم يكن هناك ما يدل على ذلك في الحياة التي يحياها، فهو يعيش بين الانجليز كأنه واحد منهم، وهذا ما لم ألاحظه في المراكشيين الآخرين.

واذن فأنا على صواب، واذن فهذا الشاب على صواب، اننا في الطريق إلى بلاد مرعبة مخيفة اعتادها أبي وعرفها، ولذلك فسوف لا يصيبه مكروه. أما نحن الأجانب عنها ــ أنا وهذا الشاب ــ فسوف نقاسي منها الويلات بدليل هذا الغضب وهذه الثورة.

ولكنني استقررت في آخر الأمر على أن المقاومة عبث في مواجهة ما لابد من مواجهته. استسلمت للمقادير وتركتها تجري كما تشاء دون أن أحاول أن أكفكف من دموعي.

ولست أدري هل كان ذلك في هذا المساء أو في مساء اليوم التالي، وكنت قد هيأت نفسي لقبول المفاجآت ولكنها لم تتحمل ما أرى. هذا جبل من نور في عرض البحر يتلألأ في كبد الليل تلألؤا أعاد إلى ذهني ذكري مدينة الملاهي بلاك بول، ولكن هذا التلألؤ يمتاز بالضخامة والجبروت، واذن فنحن على حدود بلاد الأساطير، وهذا جبل من نور سوف نخترقه ونحن في سبيلنا إليها، وهنا لم أطق صبرا فرفعت صوتي بالعويل، وحاول أبي عبثا أن يهدئ من روعي، فقد تحملت أعصابي فوق ما تستطيع في هذين اليومين. وركبنا زورقا وأنا أصرخ إلى جبل النور، وصعدنا سلالم واخترقنا هذه الأضواء، ودخلنا غرفة صغيرة، كل ذلك وأنا أصرخ.

لم يكن جبل النور سوى الباخرة في الليل، فقد استيقظت في الصباح وأنا مرعوب، وخرجت من الغرفة مع أبي وقريبي، ويالروعة ما رأيت ! حقا لقد دخلنا في حدود مملكة الأساطير والأوهام، مياه تمتد في كل اتجاه لا تحدها سوى زرقة السماء الشاسعة المترامية. زرقة في زرقة، فكان يخيل إلي أنني أسمع شيئا عرفت فيما بعد أنه الموسيقى التي تعزفها الطبيعة كلما اختلت إلى نفسها في عرض البحر، وفي أعماق الغابات، أو بين التلال البعيدة، فهدأ ذلك من روعي. دخلنا منطقة الأساطير فإذا كل شيء — على عكس ما كنت أتوقع — مستحب رائع، واذن فقد كان تخوفي في غير محله. اخترقنا حدودا يدل كل شيء إلى الآن على أن ما وراءها ممتع وجميل.

وآن ميعاد تناول وجبة الافطار، فرأيت رجلا في ثياب البحارة التي راقتني يتقدم إلي، ويطلب مني أن أتفضل إلى الغرفة التي يتناول فيها الأطفال وحدهم وجباتهم.

وأمرني أبي أن أتبعه فتبعته، فقد استسلمت للمقادير، وبدا لي أن لا

بأس من الاستسلام لها. ودخلت خلف البحار غرفة امتدت فيها مائدة طويلة ضج حولها الأطفال، فأخذت مكاني بينهم وراقني أن أوجد في مملكة كل ما فيها من اقراني. وكان زهوي عظيما حينما أقبل إلي رجل مديد القامة وانحنى علي يسألني عن أصناف الطعام التي أريد أن أتناولها في وجبة الافطار.

ورجعت ببصري إلى الوراء فانتهى بي التفكير بسرعة إلى أن أحب شيء هو البيض، وهو ما كان يحذر عليَّ أن أتناول منه أكثر من بيضة واحدة فقط، فقلت وعلى صوتي مسحة من التعالي :

«البيض !»

فقال الرجل الذي كان يبدو لي أطول مما هو في الواقع :

وكم بيضة ؟

ولما كنت قد استأنست إلى أنه طوع أمري، وإلى أنه ليس علي سوى أن أطلب وعليه أن يطيع، فقد خطر ببالي أن أطلب عشر بيضات أو عشرين، ولكن خيل إلي أن في هذين الرقمين كثيرا من المبالغة، وأخيرا استقر رأيي على أن أطلب أربعة.

وفي لمح البصر وضعت أمامي أربع بيضات تتراقص في السمن كأنها أربعة من النجوم فالتهمتها التهاما وأنا راض عن نفسي وعن الحياة.

ودق الجرس عند انتهاء الافطار، فرأيت الأطفال يقفون فوقفت، ونظرت يمينا وشمالا فرأيت وجوها صغيرة تبتسم لي فلم يكن لي بد من أن أرد عليها الابتسام، وسرنا إلى غرفة الألعاب، وأي غرفة ! مملكة من الممالك ازدهرت بحضارة من اللعب لا يمكن وصفها، ولم تمر سوى لحظة صغيرة حتى اختلط القافزون باللاعبين، والضاحكون بالصارخين، والمشدوهون بالمعجبين، فلم يكن لي بد من أن أختلط بهم اختلاطا أنساني كل

همومي وأنا أخترق في هذه الباخرة العتيدة عرض البحار، ولم يعد يهمني المصير الذي سوف تنتهي إليه الرحلة.

وهكذا نسيت الشاب القريب واستغربت لاكتئابه في عالم الماء هذا اللاعب الضاحك المفتون، ولكنني لم أهتم له بعد ذلك، وقد عرفت فيما بعد أن سر غمه كان يرجع إلى أن والده قد أرسله معنا إلى مراكش ليتزوج، وكان هو يريد أن يتزوج فتاة انجليزية لا فتاة من هذه البلاد التي لم يعد ينتمي إليها بسبب من الأسباب.

ولست أدري أين انتهت هذه الرحلة، هل انتهت في جبل طارق أو في الجزائر، ولكنني لازلت أذكر أنني نزلت إلى البر من هذه الباخرة التي أذكرها بكل خير، وأنا أسبل من دموع الحنين إلى ذكرياتها القريبة ما يوازي الدموع التي أسبلتها خوفا منها وأنا أصعد إليها.

وأذكر أننا ركبنا باخرة أخرى قصيرة لا تتجاوز اليوم الواحد، كانت خالية من كل المتع التي عرفتها في الباخرة الأولى، فرغبت عن الحياة فيها، وبدأت تعود إلى مخاوفي مرة أخرى، خصوصا بعد أن وصلنا إلى الدار البيضاء ــ ولم أكن أعرف أنها كانت مسقط رأسي منذ بضع سنوات ومن يدري ؟ فقد أكون شعرت بأنها ليست غريبة عني، ولكنني بالرغم من ذلك أحسست بأنني بدأت أخترق الحدود المهمة من عالم الأساطير.

ولم أكن أعرف يومئذ مقادير الشعوب وتقلبات الأيام، ولكن راعني أن أرى بشرا غير البشر ووجوها غير الوجوه، لست أعرف الآن ما فعل الله بهذه المدينة، ولكنني أذكر أنني رأيت فيها وجوها ارتسم عليها حزن لا يمكن أن يغيب حتى عن الأطفال. حزن مروع يعبر أصدق التعبير عما يعانيه أصحابها بعد مجد الماضي الذاهب من بؤس مقيم، فأصابني نوع من الذهول. لقد بدأ الأمر يعود إلى طبيعة الجد والصرامة، هذه الوجوه

الكالحة والثياب الممزقة، والأجسام العارية، لابد أنها تنتسب إلى فصيلة أخرى من البشرية غير التي أعرفها،،، وقد دخلت في عالم المفاجآت حقا... فما لي أرى قوما آخرين على بعد خطوات من هؤلاء البؤساء يعيشون نفس الحياة التي كنت أعرفها فيما مضى. ولكن أليست هذه بلاد الأساطير ؟

وشيء آخر استثار خيالي، ذلك أنه لم يكن يخطر على بالي أن هناك رجلا آخر يشبه أبي إلى هذا الحد، ولكن هذا ما حدث، نقلت بصري من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فإذا الشخصان شخص واحد، هذا الرجل الذي طالما أحببته يوجد رجل آخر يشبهه هو أخوه.

ورفعني الرجل وقبلني وقال لي بلغة انجليزية ركيكة وهو يضحك «أو تتكلم الانجليزية ؟» قال لي ذلك كما لو كان قد ضبطني متلبسا بجريمة فخجلت، ولكن خجلي ضاع في ضحكاته المتواصلة وهو يداعبني.

قال وهو يضاحك أبي دون أن يمنعه ذلك من توجيه الكلام إلى :

تعال، تعال لا ضرورة لاضاعة الوقت هنا في هذه المدينة الخربة هيا إلى القطار لآخذك إلى فاس، حيث تجد جدك وجدتك، وحيث تتعرف إلى الحياة كما ينبغي أن تكون، يالك من طفل هذبته المدينة الغريبة ! هيا هيا، سوف أعلمك أن هؤلاء الفرنجة لا يعرفون شيئا عن الحياة في أبهى صورها، صورها البراقة الممتعة، هيا إلى فاس أرض آبائك وأجدادك، حيث اقدمك إلى الحياة التي لاشك أن هؤلاء الفرنجة افسدوا رأيك عنها.

15

رحم الله تلك الأيام، فلقد كانت مفاجآتها سريعة متلاحقة بحيث لم يعد في المستطاع متابعتها. فلنتجاوز السفر من الدار البيضاء إلى فاس، ودعنا ندخل سريعا إلى المدينة لنخترق شوارعها الضيقة، التي كانت أكبر هذه المفاجآت. أهذه هي المدينة التي كان عمي يقول منذ يوم واحد انها تمثل البلاد على حقيقتها ؟ لابد ان الناس لا يستطيعون السير في شوارعها الا وهم يتصادمون بالأكتاف. دخلنا أثناء الليل، فرأينا مصابيح الشوارع الباهتة الحزينة كما لو كانت مصابيح تركت في مكانها بعد مأتم... أي مدينة خربة هذه التي وصلنا إليها ! انتهت الشوارع ووصلنا إلى المكان المقصود، واخترقنا الباب، فإذا بوجوه عديدة تستقبلنا، وجوه نساء ورجال خيل إلي لأول وهلة أنني أعرفها، واختلط الحابل بالنابل، واختلط المهنئون بالمسافرين، فإذا بي أبحث عن أبي فأجده ضاع بين الأذرع، وأبحث عن نفسي فأجدها ضاعت بين الأذرع أيضا. هذا يرفعني إلى الفضاء فإذا اطمأننت إلى الأرض رفعني آخر، هذا وهكذا صار الموكب في ممشى طويل وكل من حولي يقولون : دعنا ننطلق إلى الجد والجدة فقد برح بهما الجوى.

وبين من رأيت أطفال صغار، قيل لي هذا ابن عمك وابن عمتك إلى أن وصلت إلى أحدهم فقيل لي هذا أخوك، ثم قيل لي هذه أختك، فهل فتح لي صاحب حقل الكرمب حقله على مصراعيه اقتطف منه ما أشاء !؟ أختي ؟ أختي ؟ لقد كان يخيل إلي أن أبي يراضيني وهو يقول لي ذلك، ولكن هذا الصبي وهذه الصبية أخي وأختي، أجدهما أمامي حقيقتين تتحركان وتسمعيان ووضعت يدي في يد أخي الذي لا أعرفه، وفي

يد أختي التي لا أعرفها، فشع في نظرهما بريق غريب خيل إلي أنه شع في نظري أنا أيضا.

ثم فجأة ساد الجميع صمت غريب، ورأيتني أدلف بخطى وئيدة إلى هذا الشيخ القابع في زاوية الغرفة الكبيرة، واقترب مني أبي ليشجعني ويقول : «هيا يافتى ! هذا جدك فضع يدك في يده».

شعرت لأول مرة بالغبطة لأن لي جدا، ثم ازدادت هذه الغبطة حينما رفعت نظري إليه، كان يبتسم في سخرية وهو يتطلع إلي بعينيه الذابلتين، كأنه يريد أن يقول : يالتقلبات الأيام ! لقد جعلوا منك افرنجيا يا صغيري، ولكن لابأس، اقترب، فسوف أعلمك كيف تكون مراكشيا.

وهمس أبي : قبل يده يافتى، قبل يده، فهذا جدك.

فاقتربت منه في ذعر وقد نسيت كل من حولي وما حولي، ولثمت بشفتين مرتعشتين يدا مغضنة، فأخذني الشيخ من يدي وهو يقربني إليه قائلا : وأخيرا ها أنت ذا، اقترب، اقترب يجب أن تخلع هذه الثياب الضيقة وتستبدل بها ثيابا فضفاضة واسعة، هل أنت خائف مني، اقترب، اقترب.

كنت أرتعش كالريشة في مهب الرياح، وأنا أنظر إلى هذا الرجل الصارم الذي قيل أنه جدي أي أنه والد والدي، هذا هو الرجل الذي ربى والدي وعلمه، هذا هو الرجل الذي أتساوى أمامه أنا وأبي، ولكن خيل أن أبي يحتفظ بشيء من شخصيته ونحن أمامه، فاستغربت لهذا.

كان يبدو لي أن جدي سوف يصيح في وجه ابنه الذي هو أبي : أين تأخرت كل هذا الزمن الطويل ؟ وفيم كان تأخرك ؟ لقد كان يجب أن تكون هنا منذ زمن بعيد، ولكنك تأخرت.

ولم يكن من المستبعد عندي أن ينهض جدي مهددا وان يهرب أبي خائفا، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.

واذن فإن العلاقة بين جدي وأبي شيء آخر غير العلاقة بيني وبين أبي، ولكن بينما كانت هذه الأفكار الصبيانية تتداعى بسرعة في فكري شق الصفوف عمى الذي استقبلنا في الدار البيضاء وهو يصيح :

هذا هو الفتى الذي نشأ في بلاد الانجليز، ألست ترى ثيابه ؟ ألست تشعر بأنه فتى غريب ؟ فلم يجب الشيخ ببنت شفة وإنما اقتصر على نقل نظره منه إلي ومني إليه كأنه يسخر منا معا.

قال عمي : هيا تحدث إلى جدك بالانجليزية.

ولكن جدي ضحك ضحكة ممطوطة استغربتها منه، فخيل إلي أن من الواجب أن أرفع صوتي بالعويل، واستولى علي شعور مرعب هو أنني خلقت لأكون غريبا، ففي البلاد التي أتينا منها كان الناس ينظرون إلي على أنني غريب وفي البلاد التي يقال أنني منها نظر الناس إلي أيضا على أنني غريب. ولذلك فقد أصابني شعور يشبه الشعور بالاضطهاد.

وصاح جدي في غمرة من الصمت : غيروا هذه الثياب انها ثياب الكفرة، هيا افعلوا شيئا لأراه في ثياب المسلمين. ثم أقبل علي وهو يضحك ليقول : سأعلمك، سأعلمك كل شيء أيها الصغير حتى تصبح جديرا بأن تنسب إلى الاسلام والمسلمين. وكان الكفر يتمثل له في هذه الثياب التي أرتديها، وكان الايمان يتمثل له في الثياب التي أمر بأن أرتديها في صرامة ممزوجة باللين.

بيد أنني لم أكن أهتم كثيرا بفهم ما لم أفهمه من حديث الشيخ. هذه الوجوه ! هذه الوجوه قبل كل شيء، لقد ارتسمت عليها ألفة محببة استطعت أن أسبر غورها لأول نظرة، شعرت بأن الجميع كان يرثي لحالي، ولكنني في نفس الوقت ــ وهذا غريب ــ أشعر بأنني كنت أرثي لحال الجميع. إذ خيل إلي أنهم في أشد الحاجة إلى شيء فقدوه، لا أدري ما هو.

لا أعرف ماذا حصل بعد ذلك، ولكنني أذكر ان صعوبة شديدة قامت بيني وبين هؤلاء الناس من حيث التفاهم، وأذكر انني أعجبت بحياتهم اعجابا شديدا كما لو كنت قد انتقلت بلمسة من ساحر إلى عالم من الخيال. واسترعى نظري كثرة ما يوجد في هذه البلاد من الثمار المختلفة الألوان والطعوم، ولا أكتم القول بأنني بدأت أنظر إلى الانجليز بعد مدة قصيرة بشيء من الاستخفاف، لأنهم لا يعرفون كيف ينتجون مثل هذه الألوان من الثمار، وخيل إلي بالضبط أنها مصنوعات محلية يجهل الانجليز طريقة إنتاجها.

وبهرتني الدور، الدور المزخرفة الواسعة الأرجاء، وبالتفاهة هؤلاء الانجليز وتفاهة الدور التي يسكنونها ! وبهرني البذخ، البذخ الممتع البراق، وبالتفاهة ما يفهمه هؤلاء الانجليز عن الحياة وما فيها من روائع.

وهكذا بدأت حياة جديدة كلها متعة ترضي الحس حقيقة وتزري بحياة منشستر الفاحمة السوداء... وقد قضيت في فاس ستة أسابيع لا أظن أن في استطاعة أية مدينة في العالم أن تقدم لي حياة شبيهة بها في الروعة.

كنت أستمتع بكل شيء، بما يرتسم على وجوه الأطفال من غبطة وسرور وعزيمة، وبما كنت أجد في الأسواق من هذه الأشياء الرائعة الهائلة التي كانت تبعثني على الاستغراب. ولقد طالما استمعت إلى أقاصيص والدتي وهي تحدثني عن مراكش، ولم يخطر ببالي ان في استطاعة الحقائق أن تتحدى الأحلام الا حينما حللت في هذه البلاد.

كنت أحسب حنين والدتي إلى مراكش ضربا من الحنين إلى مسقط الرأس، ولكنني وجدته في محله، وما زلت أشعر بهذا إلى اليوم، ولن أستغرب إذا حل بها غزاة وتمسكوا بها إلى الأبد إذا كان في استطاعتهم ذلك.

لقد طالما ارتسمت في ذهني صور مضحكة عن هذه البلاد، وذلك

بسبب الجو الذي عشت فيه، ولكنني حينما حللت بها، حينما ذقت ملذتها واستمتعت بما فيها من أطاييب، حينئذ بدا لي أن العالم الحي هو مراكش، وان مراكش هي العالم الحي. وأنا أحذرك من أن تحسبني مبالغا فإن في حسبانك هذا إضاعة لروعة ما كنت أحس به، ذلك أنني كنت أشعر حقيقة بأن سكان هذه البلاد قد ألم بهم طائف من البؤس، ولكنني لا أستطيع مع ذلك أن أنكر ان الصور التي بعثت في ذهني عنها هي نفس الصور التي بعثت في ذهنك عن الجنة بعد كل ما سمعت عنها.

ولست أعني بمراكش الوجوه البائسة التي تقابلها، ولا هذه العقول التي تكمن وراء هذه الوجوه، ولكنني أعني مراكش الخالدة، تربة مراكش الخصبة، وضميرها الواعي وعقلها المفكر، لشد ما أتمنى الآن حفنة من ترابها أستنشق منها العبير الزكي الفواح.

وما من شك أنني أستعين بتجاربي في الحياة بعد ذلك لتحديد الصور على الشكل الذي حددتها، ولكنني كنت أشعر بهذا كله شعورا مبهما.

وهكذا قضيت ستة أسابيع لن أنساها ما حييت في هذه البلاد الخالدة. رجعت إلى انجلترا بعدها أحمل لها من الشوق والحنين ما لم أحمله للبلاد التي عشت فيها منذ ولدت، وقد كان عمي في توديعنا كما كان في استقبالنا في مدينة الدار البيضاء، وكان يلوح لي بيده وهو يقول :

ستعود أيها الصغير فاطلعك على ما لم تتح لك الفرصة للاطلاع عليه من بلادك هذه، انك راجع إلى بلاد الانجليز ولكن هذه هي بلادك، وسوف ترجع إلينا مرة أخرى لتعيش هنا إلى الأبد. دعني أقبلك قبل أن تصعد إلى الباخرة، ولكن تذكر بعد هذا كله، تذكر دائما ان هذه البلاد هي بلادك مهما ابتعدت عنها وفرقت بينك وبينها الديار.

16

رجعنا إلى منشستر، واستقبلتنا أمي وأختي عند عتبة باب المنزل ومعهما آل باترنوس وآخرون، ولاحظت الانشراح على وجه أمي ووجه أختي لعودتنا، ولكنني لاحظت شيئا آخر على أختي هو هذا الشيء البغيض الذي بات يطالعني في وجهها منذ عودتها من المستشفى، ولذلك بت اتلافى النظر إليه لأن هذه المسحة الكريهة التي علته كانت تفزعني وتبعث في اشفاقا غريبا.

وما كدت أطمئن إلى أن الجميع أخذ مكانه من غرفة الاستقبال وانصرف إلى الحديث مع أبي وأمي حتى تملكتني رغبة لم أستطع مقاومتها، فانسللت رويدا رويدا من الغرفة وانطلقت أبحث عن دراجتي الصغيرة.

وجدتها قائمة إلى جانب الحائط وقد مالت عجلتها الأولى نحوه وعلاها الغبار، وهي في وضعية حزينة كأنها تشكو إلى أسفل الحائط ما أصابها من غبن في هذه الأيام الأخيرة، فأقبلت عليها انفض عنها الغبار وأنا أكاد أعانقها من شدة الحنين إليها، كما فعلت يوم قدمت لي هدية في عيد الميلاد، فخيل إلي أن الحزن يزايلها قليلا قليلا، ولم تمر سوى لحظات حتى كنت قد ركبتها وانطلقت عليها كالسهم في الشارع.

تملكني خلال ذلك شعور غريب ــ وقد تملكني منذ دخلت المنزل ــ ذلك أنني كنت أتأمل الشارع فإذا كل شيء فيه على سابق عهده : النوافذ والأبواب والأرصفة وأعمدة النور وكل شيء في مكانه القديم كما كان. ولكن بالرغم من أن الجزئيات كانت تامة فإن مظهرها قد تغير. وهذا ما لا أزال ألاحظه كلما غبت عن مكان ورجعت إليه ــ ولعل الناس

جميعا يشعرون بذلك ـــ ولابد من مرور وقت كاف لأجل أن يعود هذا المظهر العام إلى سالف عهده، فهل للأمكنة كما للانسان نفوس أم ان العيون لا تدرك الأشياء على حقيقتها الا بعد أن يتكرر النظر إليها ؟ سؤال لا مجال للبحث عن الرد عليه هنا.

وبينما كنت أستغرب لهذا سمعت صفيرا حادا فالتفت فإذا بالصديق ريجي واقف عند باب منزله يلوح لي بيديه ويدعوني، فخففت من السرعة ثم عرجت عليه.

قال وأنا أترجل إلى جانبه : متى رجعت. لقد غبت عنا مدة طويلة. وبعد ان تبادلنا بعض العبارات فهم ان الرحلة كانت مهمة فأقبل علي يقول : لنجتمع غدا في الصباح في الشارع الخلفي حيث نستطيع أن نتحدث عن رحلتك وما رأيت فيها : فوافقت، وافترقنا.

كنا جالسين حول مائدة الافطار حينما انطلق الصفير في الشارع الخلفي فاحمر وجهي لأن تنادينا بالصفير كان لا يعجب آباءنا وأمهاتنا، فقد كانوا يعلمون ان في هذا التنادي ما يدعو إلى الظن بأننا نفعل ذلك للقيام بعمل لا يحبونه. ونظرت إلى أبي ثم إلى أمي فخيل إلي أنهما لم يسمعا، ثم نظرت إلى أختي فأبصرت بريق الادراك في عينيها، وقد كنت قلت لها من قبل اننا سوف نجتمع في الشارع الخلفي لأحكي للأصدقاء الصغار ما رأيت، وبدأت أتحرك لأنزل من الكرسي، ولكن بينما كنت أفعل انطلق الصفير مرة أخرى، ونظر إلي أبي وقد شك في العلاقة بين الصوت وحركاتي، فقفزت ـــ تلافيا للحرج ـــ إلى الأرض وانطلقت أعدو.

فتحت الباب وخرجت فوجدت جماعة كبيرة من الأطفال تطوع ريجي باستدعائهم بالصفير لأجل أن يستمعوا إلى القصة التي سوف أرويها عن هذه البلاد البعيدة التي كنت فيها. جلست على عتبة الباب العالية وجلس الأطفال حولي يصيحون ويتساءلون وينظرون إلي نظرات لا تخلو من الاعجاب والتقدير.

قال ريجي : ما اسم هذه البلاد التي كنت فيها ؟ قلت : «مراكش».

قال : هيا، لا داعي لاضاعة الوقت، حدثنا عن مراكش.

قلت : بلاد جميلة شمسها ساطعة، ومناظرها بهيجة، ولكنها حافلة بالغرائب.

وما كدت ألفظ هذه العبارة حتى برقت العيون ومالت الأعناق بالرؤوس الصغيرة وتطلع إلي الأطفال.

هيا حدثنا عن الغرائب، حدثنا عن الغرائب !

فكرت قليلا وأنا أحاول عبثا أن أجد مفتتحا للحديث. وأخيرا أنقذني أحدهم حينما سألني، هل يذهب الأطفال إلى المدرسة في هذه البلاد التي تقول ان اسمها مراكش ؟

ــ آه المدرسة، نعم يذهبون إلى المدرسة، ولكن هل تعرفون ما هي المدرسة ؟ غرفة مظلمة مفروشة الأرض بما يشبه التبن، يجلس عليها الأطفال وأمامهم المدرس في مكان عال بارز يحمل عصا طويلة في يده، وهو يحث التلاميذ. هل تعرفون علام يحثهم ؟ على احداث الضجيج، على رفع الصوت والصياح، وويل للتلميذ الذي يتوانى في احداث الضجيج !

ــ هل يتعلمون إحداث الضجيج !

ــ لست أدري، لابد أنه الضجيج، فإن كبارهم يبرهنون دائما على أنهم تلقوا في صباهم دروسا قيمة وبليغة الأثر في هذا العلم. دعنا من هذا، ولنفرض أن أحد التلاميذ ارتكب ما يستحق عليه العقاب، هل تظنون أن المدرس يطلب إليه ان يمد يده ليضربه ؟ كلا. بل يوجد في كل مدرسة عادة تلميذ قوي لا يكاد ينظر إليه المدرس نظرة ذات مغزى حتى يخف الضجيج فجأة، وينقض ذلك التلميذ

القوي على المذنب في لمح البصر، وبحركة واحدة رشيقة يطرحه أرضا ويرفع باطن رجليه إلى المدرس، وهنا ينفخ هذا الأخير في يديه وهو يختار من بين العصى التي يضعها إلى جانبه أمتنها عودا واحدها وقعا، ثم يأخذها وهو يشمر عن ساعده الأيمن، ثم يضرب بها الهواء في خبرة ــ كما يفعل الحوذى ــ وذلك لكي يتأكد من جودتها. وهنا تبدأ عملية الضرب، الضرب الشديد المتواصل فيتعالى صوت المسكين بالصراخ، ثم يهدأ الضرب لينحني المدرس على التلميذ يوبخه ويتوعده، ثم تبدأ العاصفة مرة أخرى إلى أن يعجز المضروب عن الصراخ وتنهك قواه، وهنا يأمر المدرس بأن يطلق سراحه وهو يضربه ضربة أو ضربتين إضافيتين على يافوخ رأسه وقد ينبثق منه الدم، فإذا انتهت الدروس الصاخبة خرج المضروبون يعرجون.

وهنا قال طفل صغير لم يستطع أن يكتم شعوره : آه آه هذا مروع، وقال آخر متسائلا : أليست هذه بلادا غريبة.

فاستنفت : تلك الكلمة هي بلاد غريبة، كل شيء فيها غريب : أطفالها، نساؤها، رجالها، أكلها، بيوتها، كل شيء، هل تعرفون قصة الأكل هناك ؟ ان الناس يأكلون وينامون في غرفة واحدة، ويجلسون وينامون على مخدات كبيرة، في وقت النوم تنقلب إلى غرفة النوم ففي وقت الافطار والغداء والعشاء يقبل الخدم بمائدة قصيرة الأرجل يضعونها على الأرض ثم يضعون حولها المخدات ثم تقبل خادم صغيرة وهي تحمل آنية صفراء في يد، وفي يدها الأخرى ابريق، تطوف بهما على الجلوس لغسل اليدين ــ نحن نسعى إلى الحنفيات، اما هم فتسعى الحنفيات إليهم ــ ثم يجلس الناس حول المائدة على المخدات ولا يوضع عليها إلا طبق واحد كبير وقطع الخبز، ثم ينكب الجميع على ذلك الطبق الواحد بأيديهم يلتهمون ما فيه.

قال أحد الأطفال : عرفت تلك البلاد الآن، عرفتها، لقد رأيتها في السينما، انها بلاد الزنوج.

قلت : تعني البلاد التي يسكنها السود، كلا فأهل هذه البلاد وان كانوا غرباء في كل شيء الا ان بشرتهم بيضاء وهم في اشكالهم مثلنا تماما، انهم يزاولون جميع الأعمال التي نزاولها ولكن بطريقة غريبة.

وهنا احتدم نزاع علمي بين الأطفال فقد راحوا يختلفون حول موقع هذه البلاد وكانوا يستقون معلوماتهم من السينما فترددت على ألسنتهم شعوب هي الغجر، الهنود الحمر، الاسكيمو، الزنوج، كل واحد يروي ما رآه في السينما ويزعم انه يعرف البلاد التي أتحدث عنها. فوقفت أنظر إليهم وأنا أنتظر أن يصلوا في نزاعهم إلى قرار، واستطعت أن التفت وأرى إلى جانبي أختي تتطلع إلي في صمت، وقد علت وجهها تلك المسحة الغريبة التي كنت أكرهها. ولعلي ضقت ذرعا بنزاع الأطفال، فقد تعلقت نظراتهم بي وهم يخشون أن أنصرف دون أن أتمم لهم حديثي عن الغرائب التي رأيتها. حينئذ جلست مرة أخرى.

قال طفل : هيا حدثنا عن الحرب، كيف يتقاتلون ؟ قلت : هذه بلاد ليس فيها حرب ولا قتال، ولا أظن أن أهلها يغامرون، فإنهم مسالمون ينزعون إلى نعومة الحياة ورغدها، وهذا يكفي في الدلالة على أنهم ليسوا من الغجر ولا الاسكيمو ولا الهنود الحمر ولا الزنوج... انهم لا يعرفون القتال، ولكنهم يعرفون الأفراح، ويعرفون الأكل الجيد، ويولعون بالأشياء البراقة.

حضرت حفلة زواج حينما كنا هناك وسوف أروي لكم ما شاهدته فيها حتى لا تسيئوا بها الظن مرة أخرى.

كان المنزل واسعا ضخما مزخرفا، ذا أعمدة كبيرة، تتراقص في وسطه نافورة من الماء الصافي، فرشت أرضه بتلك المخدات الكبيرة، وجلس

عليها في شكل دائرة جوق الموسيقى وقد حف به المدعوون. وفي الدور الثاني يطل عشرات من النساء يستمعن إلى الموسيقى التي كان يعزفها الجوق وهو يغني. وكان الجميع يوقعون بأيديهم على ركبهم وقد اشتد بهم التأثر وكان يطوف بهم الحلاقون ــ نعم الحلاقون فإنهم يقومون بالخدمة في الأفراح لا ليحلقوا الرؤوس ولكن ليوزعوا الشاي الأخضر والحلويات في أدوات من فضة ــ وقد سطع المنزل كله بالأنوار وكثر الضجيج وعلا صوت الموسيقى، وأقبل كل موسيقي بوجهه على وجه الموسيقي الذي إلى جانبه فأقبل عليه هذا أيضا بنفس الحركة وغنيا معا وهما على هذه الوضعية مدة قصيرة، ثم يفترقان وينصرف كل واحد إلى الموسيقي الذي على جانبه الآخر بنفس الحركة.

ثم تصف الموائد القصيرة الأرجل وينقلب المنزل كله إلى قاعة للأكل ويقبل الخدم بتلك الأطباق الكبيرة الملأى بقطع اللحم الكبيرة والدجاج وصنوف غنية من الأطعمة.

كل ذلك في منتصف الليل. وعندما تنتهي هذه الحفلات في المنزل يجتمع الناس ليخرجوا إلى عرض الشارع ويسيروا في موكب كبير ينشدون الأناشيد بأصوات عالية ويضحكون ويمرحون إلى أن يصلوا إلى منزل آخر، حيث يجتمعون حول بابه ويرفعون الأصوات بكلام إلى ساكني هذا المنزل الجديد، وبعد مدة طويلة يفتح الباب ويخرج فوج من النساء فيحيط بهم المحتفلون وقد ازدادت أصواتهم ارتفاعا ثم يعود الموكب كله إلى المنزل الأول.

هكذا يأتون بالعروسة إلى منزل زوجها. وهنا ينصرف الرجال وهم يتصافحون ويتعانقون، ويقفل باب المنزل بإحكام. وعندئذ ينزل النساء من الدور الثاني لاستقبال العروسة، ثم يحطن بها ويرفعنها في السماء ويطفن بها داخل المنزل وهي مغمضة العينين وقد اثقلت بالذهب والجواهر.

وفي خلال ذلك كله يرسل النساء صراخا غريبا متواصلا يعبرن به عن اغتباطهن بالحفلة والعروسة، ثم ينتهي هذا كله، فتقف امرأة ضخمة الأنحاء إلى جانب العروسة وهي تسرد كلاما لم أكن أفهم له معنى، ولكن النساء كن يقبلن عليها وينفحنها بالنقود كلما انتهت من عبارة.

ويستمر هذا كله إلى الصباح، فينصرف الناس إلى النوم، لتبدأ الحفلات في اليوم التالي، لا لمناسبة جديدة، ولكن يوما واحدا لا يكفي للتعبير عن الانشراح في هذه البلاد، بل لابد من ثلاثة أيام أو سبعة.

وهنا انطلق صوت ممطوط يصيح : ريجي ! ريجي ! انها والدته تناديه، فهب واقفا وهو يقول : يجب أن أذهب، ان أمي تناديني، لقد نسيت ان انفذ ما طلبته مني، ولكن لا تستمر، أريد أن أسمع البقية... هل نجتمع هنا بعد الظهر ؟ قولوا انكم موافقون لأجل أن أنصرف.

كان يلقي كلماته في سرعة وهو يبتعد عنا، ولذلك لم يسعنا الا أن نوافقه فقد كان حرصه شديدا، وكان هذا الاجتماع فوق ذلك قد عقد بناء على دعوته هو دون بقية الأطفال.

17

عقد اجتماع آخر بعد الظهر في نفس المكان من الشارع الخلفي، وأخذ كل طفل مكانه حولي فراقني ان يرتفع مقامي هكذا، وكان حديث الصباح قد أزال عقدة لساني فانطلقت أتحدث مرة أخرى عن مشاهداتي في بلاد الغرائب، والأطفال ينصتون في اهتمام.

قلت لكم أيها الأصدقاء ان البلاد التي كنا نتحدث عنها في الصباح — وأذكركم مرة أخرى بأن اسمها مراكش — بلاد غريبة. ولست أحب أن يتبادر إلى ذهن أحد منكم ان أهلها غرباء في اشكالهم، كلا بل هم مثلنا تماما كما قلت لكم في الصباح، ولو نقلتهم جميعا إلى منشستر ودفعتهم في حياتها لما كان في استطاعتنا ان نفرق بيننا وبينهم، ولهذا يجب أن تنسوا الزنوج والهنود الحمر والاسكيمو والغجر... وأنا أتحدث إليكم عن أمر هذه البلاد، فهي شيء آخر.

قال الطفل الصغير صاحب الصوت الدقيق الذي أثار هذا الموضوع في الصباح : اسمعنا الغرائب، نريد أن نسمع الغرائب.

قلت : حسن، دعني أتذكر، ان الحمام من هذه الغرائب، هل تظنون ان الناس في مراكش يدخلون على انفراد إلى الحمام حينما يريدون أن يغتسلوا ؟ كلا فليس الحمام غرفة ضيقة بها حوض، وانما هو مكان شاسع يحتوي على أبهاء دامسة يدخل الناس إليها زرافات بعد أن يكونوا قد نضوا ثيابهم، ولا يوجد به حوض، وانما يقدم إليها الماء في جرادل كبيرة مصنوعة من الخشب، فيجلسون بينها... وهو مكان شديد الدفء يخنق الأنفاس، فإذا دخلت إليه رأيت الناس في الضباب وهم عرايا

كأنهم أشباح هزيلة مخيفة، وهم لا يقلعون عن الكلام حتى في الحمام بل قد ينصرفون إلى العبث ورواية القصص والأحاديث كأنهم في بيوتهم.

كل شيء موجود في هذه البلاد أيها الأصدقاء، ولكن على طريقة غريبة، ففيها الأسواق ولكن أسواقها ليست مثل أسواقنا، بل هي تشتمل على صنادق كبيرة تكدست فيها البضائع، وجلس التاجر وسطها، وهذه الصناديق الكبيرة مصطفة على جانبي الطريق الضيقة، وقد جلس فيها التاجر أو استلقى وأصابعه تعبث بعقد كبير الحبات وانطلق يتمتم بكلام مهموس سريع وهو يحرك حبات هذا العقد على عجل، وأبواب هذه الدكاكين الصغيرة غريبة حقا، فهي لا تفتح بالطول وانما بالعرض كأنها بابان، باب ينزل من أعلى وآخر يصعد من أسفل. وهي تحتوي على بضائع رائعة وخصوصا دكاكين الفاكهة، ولكن أغرب هذه البضائع هو السكر، هل تستطيع ان تشير إلى حجم قطعة السكر عندهم ؟

قال أحد الأطفال وهو يشير لي بحجمها ويقترب مني ليسمع ما سأقول : هل هذا هو حجمها ؟

قلت : هذه قطعة من السكر صغيرة جدا، آه لو رأيتم قطع السكر في مراكش، انها في هذا الحجم ــ قلت ذلك وأنا أفتح ذراعي بأكبر ما أستطيع ــ قطع كبيرة من السكر لم يكن يخطر على بالي أن لها مثيلا في الحياة.

قال طفل مشهور بالملاحظات الدقيقة : وكم يضعون من هذه القطع في فنجان من الشاي ؟

قلت دعك من هذا العبث فإنه لا يوجد فنجان ولا ابريق يسع مثل هذه القطع الكبيرة من السكر انهم يأخذونها إلى منازلهم، ويكسرونها بواسطة مطرقة وسكين، فيجتمع الأطفال مثلنا حول من يقوم بهذه المهمة، ويلتقطون فتات السكر الذي يتطاير بعيدا ثم يأكلونه وهم يتضاحكون،

والأطفال يترقبون هناك يوم تكسير السكر بفارغ الصبر، لأجل أن يلتقطو ذلك الفتات.

قال الطفل المشهور بالملاحظات الدقيقة : ولماذا لا يشترون السكر وهو مكسور، انهم يتعبون أنفسهم.

قلت : لست أدري، لقد قلت لك ان عندهم كل شيء ولكن لكل شيء طريقته الخاصة. خذ مثلا قصة الشعر عندهم، فهم أناس عندهم الشعر كما عندنا فوق رؤوسهم وفي ذقونهم. اما نحن فنحلق الذقن دون شعر الرأس، اما هم فيحلقون شعر الرأس دون شعر الذقن، ان ذقونهم في رؤوسهم، ورؤوسهم في ذقونهم. هل أدركتم ما أريد أن أقول.

قال أحد الأطفال الكبار : هذا شيء ممتع حقا، سوف يكون أول عمل أقوم به حينما أكبر هو الذهاب إلى هذه البلاد. ماذا قلت انها تسمى.

قلت : مراكش. فقال : مراكش، مراكش، مراكش لابد من زيارتها، ان هذا الذي تحكيه عنها غريب وممتع، ذقونهم في رؤوسهم ورؤوسهم في ذقونهم ! ياللروعة ! قال ذلك وهو يصفر ويهز رأسه إعجابا.

قلت دعني أسرد عليكم ما رأيت دون تعليق، لأننا نريد أن ننصرف إلى ألعابنا، أليس كذلك ؟ اذن فاسمعوا، هل تظنون ان الأطفال هناك يهتمون بلبس الأحذية، انهم ينطلقون في الشوارع حفاة فيطأون الأحجار وقطع الزجاج وتسيل الدماء من أقدامهم وهم يعدون، لقد رأيت أصبع أخي ــ فان لي أخا في مراكش كما لا تعلمون ــ رأيت أصبع قدمه محطما يسيل منه الدم وهو يتسلق شجرة.

وهل تظنون ان النسوة يتأنقن في الشوارع ويهملن أنفسهن في المنزل كما عندنا ؟ ان النساء يتأنقن في المنزل، اما في الشارع فهن يجتهدن في تشويه أنفسهن تشويها غريبا، فهن يتلففن في ازر بيضاء من الرأس إلى

القدم دون أن يظهر منهن شيئا. واما في المنزل فهن يلبسن الثياب المزركشة الرائعة، ويتفنن في الزينة على عكس ما عندنا تماما.

ولا يجتمع النساء والرجال، بل يعيش كل فريق على حدة، يهرب الرجل من النساء وتهرب المرأة من الرجال.

ــ لا تقاطعوني ودعوني احدثكم عما رأيت.

تصوروا ان الناس هناك لا يتقنون القراءة والكتابة، مثل الأطفال الصغار، فإن من بينهم من لا يعرف إلى ذلك سبيلا. فقد استوقف رجل أبي ونحن في الشارع، وأشار له إلى رقم فوق باب إحدى المنازل وهو يسأله عنه، فأجابه أبي. ولما سألت أبي ماذا كان يريد، قال انه كان يسأل عن رقم المنزل لأنه لا يعرف القراءة والكتابة. ولم يكن طفلا صغيرا، وانما كان رجلا كبيرا.

كل شيء موجود في هذه البلاد أيها الأطفال حتى الجنائز، ان الناس يموتون هناك كما يموتون هنا، ولكنهم يسيرون إلى مقابرهم على طريقة غريبة، نحن نسير في الجنائز صامتين أما هم فيسيرون فيها وهم ينشدون، وأي نشيد موقع رائع ! نحن نحزن للموتى فنصمت، وهم يفرحون لهم فينشدون.

وهل تظنون ان هناك ما يدعى العربة تشد إلى الحصان فيركب الناس العربة. كلا، انهم يركبون الحصان مباشرة ــ والحمير في بعض الأحيان ــ دون أن يكونوا في حاجة إلى عربة تشد إليه. هذا ولا يركب الحصان الا الممتازون من العلية.

وكل الألعاب التي توجد عندنا توجد عندهم، اعني عند أطفالهم، ولكنهم يلعبونها تبعا لأصول غريبة غير التي نعرفها.

ومنازلهم غريبة كذلك فنحن نحرص على أن تكون منازلنا شيقة في

مظهرها الخارجي والداخلي معا، اما هم فمنازلهم لا قيمة لها من حيث مظهرها الخارجي، ولكنها في الداخل شيء آخر، انها رائعة بما تشتمل عليه من بدائع وزخارف. ولا يمكن أن تصدقوا ان خلف هذه الأسوار العتيقة منازل في منتهى الروعة، الأعمدة المزخرفة، والطنافس، والحرائر، وكل ما يمكن أن يخطر على بال من الروائع.

وأحب أن الفت النظر إلى التطيب. ان من الغريب جدا أن ترى هؤلاء الناس يتطيبون، فهذه الخادم تقبل إليهم بمضخات يحملونها في أيديهم، ثم يرشون بها ثيابهم، وفي أثناء ذلك تكون خادم أخرى تلهب النار في آنية من الفضة، فإذا ما انتهوا من الرش نصبوا ثيابهم الفضفاضة وقدمت لهم الخادم آنية النار فيضعونها تحت ثيابهم، ويتصاعد منها دخان ذو رائحة ذكية منعشة، فيحرصون على أن يبقى هذا الدخان داخل ثيابهم، حتى إذا ما انتهت هذه العملية الطويلة، فاحت منهم رائحة الطيب. ان العطر عندهم دخان لا سائل.

ولست أستطيع أن أحدثكم عن لغتهم، لأنني لم أكن أفهم منها خرفا واحدا، فقد كان أبي ينقل إلي كلامهم، ولكنني أستطيع أن أقول بصفة عامة انهم يرفعون أصواتهم وهم يتحدثون، ويستعملون حروفا غريبة يصعب...

كنت لا أزال مستمرا في الحديث، ولكن فجأة تطاير الأطفال من حولي وهم يصيحون ويضحكون دون أن أدرك السبب، ولكنني لم ألبث ان أدركته، حينما وجدت نفسي وجها لوجه أمام منظف المداخن، هذا الرجل الذي كنا نذوب فزعا ورعبا حينما نسمع صوته وهو يمر بالشار ع الخلفي. كنا نذوب خوفا من هذا الصوت المديد الذي كان يرسله ونحن في مأمن منه، فما الرأي وأنا أمامه الآن وحيدا وقد أطبق علي بشكل لم يعد لي معه مجال للالتحاق بالأطفال.

تضاءلت في مكاني وأنا أرفع إليه بصري لأرى وجهه الذي علاه السخام كما علا ملابسه كلها. وكانت عيناه تبدوان من خلف السخام الأسود شديدتي البياض يتراقص في كل منها إنسان قلق.

ورأيته يبتسم فبدت لي أسنانه أشبه بالتكشير إذ لاحت لي من فرجة فمه أسنانه البيضاء البراقة كما لو كانت تتراقص في أمكنتها شوقا إلى السحق... وقد خطر ببالي ان أرفع صوتي بالعويل أو الصراخ ولكن تبين لي أن ذلك لن يجدي فتيلا، فقد أصبح في استطاعته ان يخنق صوتي قبل أن ينطلق من فمي. وبدت على وجهي امارات الرعب وازداد هذا الرعب وهو يقترب مني ويقول بين أسنانه : ماذا تفعلون هنا في الشارع الخلفي أيها الأشقياء... ألم ينهكم ذووكم عن اللعب في الشوارع الخلفية... هل يليق هذا بالأطفال المستقيمين... وعم كنت تحدثهم ؟ هيه !؟

فلم أجبه، وكيف أستطيع الاجابة في هذا الجو الارهابي الذي أحاطني به منظف المداخن. لذلك بدأت الدموع تتصاعد إلى عيني فقال : اذن أنت لا تريد أن تجيبني، حسن، ويم الحق لاعلقنك انت وزملاءك في إحدى المداخن إذا وجدتكم تلعبون في طريقي مرة أخرى. والآن انطلق واحذر ان أراك ثانية هنا. دفعت الباب ببطء وأنا انسحب مخافة أن يغير رأيه، فلما أصبحت في مأمن صككته في قوة وانطلقت أعدو وفي أثري ضحكاته العالية، ثم انقطع الضحك وبدأ يصيح مرة أخرى بصوته الحاد : (تنظيف المداخن ! تنظيف المداخن !) وظل يبتعد إلى أن فنى صوته.

18

كل ما يحيط بنا حزين في هذه الأيام، واننا لنحاول ــ أنا وأختي ــ أن نقارن بين هذه الحالة الجديدة والحالة التي اعتدناها فنجد الفرق كبيرا محزنا. ان أبي هذا الذي كان يقابل الحياة بصدر رحب وثغر باسم، هذا الرجل الذي تقمصه الجلد في معركة الحياة فخاضها غير هياب ولا وجل هذا الرجل أصبح اليوم حزينا تثير رؤيته الأشجان.

ولم تكن الأم أقل حزنا من الأب. فهذه المرأة التي لم تكن تحفل كثيرا بما تجري به الأيام، هذه المرأة التي كان يترع صدرها حنينا إلى أرض الوطن، والتي كانت تعيش ضاحكة مستبشرة، لأنها تنتظر يوم العودة إليه، هذه المرأة أيضا أصبحت حزينة.

وأختي، لم تكن أختي ــ وأنا أيضا ــ تعرف شيئا عن هذا السر الخفي الذي أحال البهجة إلى حزن عميق، لقد أصبحت أختي أكثر من أي وقت مضى تبعث على الحزن والشفقة، فهي تزداد ضعفا ونظراتها تزداد شرودا، انني أحس كلما نظرت إليها انها تبتعد عني شيئا فشيئا وكأن سحابة رهيبة تبتلعها فتزداد بعداً كل يوم.

ولو أطل علينا شخص من وراء النافذة وأبصر هذه الوجوه الأربعة التي كانت منذ مدة قريبة ضاحكة مستبشرة لأنكرها اليوم وقد أصبحت تحيط بالمائدة حزينة واجمة. وقد كنت أعرف ان المرض ما يزال يمتص الحياة من أختي رويدا رويدا، ولكنني لم أكن أدرك سر ما يحيط بأبي وأمي.

بيد أنني لم أكن أصدق حرفا واحدا مما كنت أسمعه أحيانا من حديث يدل على أن هناك فكرة ترمي إلى العودة إلى الوطن مرة أخرى، العودة النهائية التي لا رجوع بعدها. فقد كنت مؤمنا بكلمة طالما رددتها

ميللي وهي ان جميع المراكشيين يمكن أن يعودوا إلى مراكش، أما مستر بن جلون فسوف يظل معنا مدى الحياة، لسبب واحد هو أنه لا يميل إلى التغيير، فقد اعتاد الحياة هنا ولن يستطيع أن يتركها.

وكانت ميللي تلفظ هذه العبارات بلهجة الواثق مما يقول، ولذلك لم يكن بد من أن أصدقها وأومن بهذه النظرية التي بدا لي في ذلك الحين انها على جانب كبير من الحكمة.

كنت بالاضافة إلى ذلك قد سمعت أمي تتحدث إلى أبي حديثا مسهبا ترجوه ان نعود إلى بلادنا، وكانت تكيل الشتائم إلى هذه البلاد السوداء التي تعج بالأشرار والكفرة من بني البشر. فكان أبي يستمع إلى كلامها في كثير من التأمل ثم يبتسم وهو يحول مجرى الحديث.

ولذلك استقر في روحي ان مستر بن جلون لن يفارق هذه البلاد أبدا، فاطمأننت إلى أن مكروها لن يصيبنا، ولكن هذه الظروف الجديدة تشم منها رائحة التصميم على القيام بعمل فاصل. فهل يمكن أن يكون عامل جديد قد دخل على الموضوع فغير الاتجاه القديم ؟ ان نظرة واحدة إلينا من خلال النافذة ونحن جلوس إلى المائدة أو حول الموقد لكافية للدلالة على أننا مقبلون على قرار حاسم يوشك ان ينفذ. أي قرار ؟ هذا ما لم أدرك له كنها.

رجع كثير من المراكشيين إلى بلادهم قبلنا فهؤلاء مستر أبو عياد ومستر قرطبي ومستر ابن وحود ومستر برادة قد رجعوا إلى بلادهم مع عائلاتهم منذ زمن بعيد. ومنهم من اشتركت في توديعهم مع أبي وكم كنت أرثي لحالهم، ولم يكن يخطر على بالي أن الرحى، الرحى الجبارة التي تطحن العزائم، سوف تطحن عزائمنا نحن أيضا. لقد عرفت مراكش وعرفت كل ما يتعلق بها خلال الأسابيع الستة التي قضيتها فيها، وأعجبت بكثير مما فيها، بل كان يخيل إلي في بعض الأحيان ان الكرة الأرضية

حرمت من كثير من المباهج التي توجد فيها، ولكنني بالرغم من ذلك لم أكن أتمنى أن أرجع إليها لأعيش فيها مدى الحياة. ولكن لم يكن يخطر ببالي أنني سوف أرجع فيها مدى الحياة. وكان يخيل إلي أن من الممكن أن أرجع إليها كسائح، ولكن لم يكن يخطر ببالي أنني سوف ارجع إليها لأقيم.

لماذا ؟ لم أكن أتبين السبب يوم ذاك ولكنني أتبينه الآن : حسك في هذه البلاد طليق ومرهف ومستمتع ولكن روحك مقيد، ولكن كيف كان يمكن أن أعرف هذا في تلك الأيام من طفولتي الذاهبة ؟ ولذلك لا داعي للتفصيل ويكفي أن أقول انني كنت مومنا بأننا لا نرجع إليها كما كنت مؤمنا بأنه لا خير في هذا الرجوع.

ومهما يكن مصدر هذا الحزن الذي يخيم على العائلة فإنه ذكرني بأيام الماضي الذهبي، لقد ذكرت يوما واحدا مضى، يوم أقبل أبي من عمله في جلبة كبيرة وكنت منصرفا إلى ألعابي، فنبهتني الجلبة التي أحدثها، ولذلك اقبلت أبحث عنه فلم أجده في جميع الغرف، فقالت أمي أن أبي موجود في المنزل فإذا عثرت عليه فلي جائزة... وبحثت ولكن دون جدوى، وبينما كنت مارا من أحد الأبواب قفز أبي من خلفها جذلا مسرورا ورفعني في الهواء وهو يوبخني لأنني لم أستطع الاهتداء إلى مخبئه، ثم صاح بي في غبطة :

ـــ دعنا نمتحن خيالك، ارنا ما تستطيع أن تطلب، أطلب ما يخطر على بالك يكن بين يديك حقيقة تتحرك وتسعى.

وراقتني الفكرة فليس علي إلا أن أفتح فمي بأمنيتي فأجدها أمامي حقيقة ماثلة، فتخيلت بسرعة وأبي يستحثني كل ما يمكن أن يمر بمخيلة طفل مثلي من الحلويات والألعاب فبدت لي كلها سخيفة، ثم بدأت أتصور الأشياء الكبيرة ولكنها بدت لي أيضا مبالغا فيها. ثم فجأة

تذكرت... تذكرت انني حينما كنت مارا بالأمس في طريق العودة من المدرسة رأيت سيارة للأطفال معروضة للبيع، وتذكرت أنني أطلت الوقوف إلى جانبها وأنا أغازلها في شوق، ثم انصرفت عنها لأنساها بعد ذلك.

انها مطلب ضخم ولكن لماذا لا أجرب وأطلبها، وهكذا صحت.

سيارة ! أريد أن تشتري لي السيارة التي رأيتها بالأمس.

ـــ أين رأيتها وأية سيارة ؟

ـــ سيارة معروضة للبيع في دكان قريب من المدرسة.

ـــ هيا بنا إليها، لا غداء الا بعد أن ننطلق إلى صاحب الدكان الذي يعرض في واجهته السيارة التي تريدها، سنشتريها ولو طلب فيها صاحب الدكان النجوم بدلا من الدراهم.

وهكذا انطلقنا إلى صاحب السيارة الصغيرة واشتريناها في لمح البصر ورجعنا وأبي يظهر من الفرح والاغتباط بها اضعاف ما أظهرته أنا، بالرغم من أنني عدت إلى المنزل راكبا وعاد هو إلى جانبي راجلا.

عادت إلي تلك الصورة المرحة فزادت شجوني وأنا أقابل بينها وبين هذه الصور القائمة التي أصبحت أراها صباح مساء، وجوه كالحة لا تبتسم، وعيون مسهدة لا تطرف. ماذا جرى ؟

ولست أدري لماذا تذكرت بسبب هذا الجو اليائس الذي يسود المنزل تلك الأيام التي قضيناها في مراكش، فقد بدأ أبي فيها يفقد مرحه يوما بعد يوم، ورأيته يشتبك مع عمي في مناقشات طويلة لا نهاية لها، وأمامهما دفاتر اترعت بالأرقام والعمليات الحسابية. لقد كان كل يوم يمر منذ ذلك الحين يزيد في اكتئاب أبي، ولكنني بالرغم من ذلك لم أستطع أن أتبين حقيقة هذه الظروف التي تكتنفنا وتزيد وطأتها مع مرور الأيام.

قلت لأختي ذات ليلة ونحن في عتبة الكرى :

ـــ لست أدري ماذا أصابنا.

فقالت بصوتها الضعيف الذي كان ينتهي لي في الظلام :

ـــ اننا سوف نعود جميعا إلى بلادنا، مراكش، وسوف نقطع كل علاقة بيننا وبين منشستر. وأي شيء في ذلك ؟ ان أمي تقول ان مراكش بلاد رائعة يجب أن نرجع إليها، والأمر جد كل الجد، ولذلك فلابد مما لابد منه. ان أبي يطلب رأي أمي ولكنه لا يطلب رأينا، ولو طلب رأيي لوافقت على الذهاب لأنني ضقت ذرعا بهذه البلاد السوداء، وانني أريد أن أعيش في تلك المدن التي تقول عنها أمي انها مدن بيضاء.

ولا أحتاج أن أقول ان أختي كانت تقصد المدن ذات الأسوار البيضاء، وانها لم تكن تدرك السواد الذي يعلق بالأعناق، وهو السواد الذي لم أدرك أنا نفسي كنهه الا أخيرا.

قلت : ومن ذا الذي أنبأك بذلك ؟

قالت : ليس من المهم أن تعرف من أنبأني ولكن يجب أن توطن النفس على نسيان كل شيء في هذه البلاد، وتقبل تلك الحياة التي حدثت عنها الأطفال منذ قليل في الشارع الخلفي.

ـــ آمنة، ماذا تقولين !

ـــ هذه هي الحقيقة التي لابد من الخضوع لها.

كان بودي أن أصدق حرفا واحدا مما قالت، ورجعت بفكري إلى الوراء أتصور الماضي وأنا مطمئن إلى كلمة ميللي التي حفظتها عن ظهر قلب، وهي أن مستر بن جلون لن يسافر أبدا، لقد أصبح قطعة من هذه البلاد.

بيد أنني كنت أعرف أن لأختي عينين نفاذتين وأذنين مرهفتي الحس. وهذا ما لا أستطيع أن أشك فيه، ولذلك بت أخشى مواجهة هذه الحقيقة الرهيبة التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

ظللت أفكر مدة طويلة تلك الليلة في البلاد البعيدة النائية التي سوف يكتب عليّ أن أكون أحد أبنائها، دون أن أعلم على التحديد ماذا سيكلفني ذلك. ان علي أن أفكر بعد اليوم في الرأس الحليق والقدم الحافية والثياب الفضفاضة، وكيف يمكن أن يكتب لي مثل هذا الامتحان القاسي دون أن يطير صوابي.

وكنت أكثر الماما بحزن أبي من أن أنطلق إليه وأستفهمه، فقد كنت أعرف انه سوف يرفع إلي عينين حافلتين بالألم دون أن يجيب.

وكانت أمي حزينة لحزن أبي، ولكنها كانت في نفس الوقت مطمئنة إلى هذه الحوادث التي كانت مؤمنة بأنها سوف تضع حدا لهذا الظلال الذي قضينا فيه نحو ثماني سنوات. لقد آن للطواف ان ينتهي بنا إلى أرض الوطن الأبيض الحبيب، ويخلصنا من منشستر الكريهة السوداء.

ولم يكن في استطاعتي أن الحف على أختي بالسؤال، فقد كانت مستسلمة لعملاق المرض الجبار الذي مضى يمتص منها الحياة امتصاصا لا يخلو من نهم... وكانت هي أبعد نظرا من أن تقيم وزنا كبيرا لما يحيط بنا.

وهكذا بقيت وحدي في الليل البهيم أفكر في المصير، ولم تكن هناك صور ولا أشباح، لقد كنت أحدق في الظلام وأنا صاح فلا أرى الا صورة واحدة تبعث على الرعب والرعب الشديد. وانتابني شعور رهيب وأنا أعيش في هذا الجو الخانق، وهو أنني أصبحت غريبا عن عائلتي نفسها، وهو الشعور الذي كان يضايقني حينما كنت أحس به في منشستر وفي مراكش معا.

وأخيرا تملكني الحزن أيضا، فقد أصبحت أومن بأنني سوف أنقطع عن كل شيء ألفته منذ كنت فتى ناعم الأظفار إلى حياة جديدة ــ أكبر الظن انها مرعبة ــ لا تطمئن إليها قلوب الصغار.

19

لقد انتهى كل شيء، ولم يعد هناك أي شك في اننا راحلون. ولقد أصبحت الحوادث تتعاقب بعد أن أعلن إلى الجميع خبر هذا الرحيل المفاجئ الذي لا عودة بعده. وقد استولى علي نوع من الذهول منذ ذلك الحين، فكنت أتتبع حركات الاستعداد الدائمة بعين قلقة وقلب واجف.

بدأت أشعر لأول مرة أنني غريب عن البيئة التي عشت فيها ما يقرب من ثمانية أعوام، وهي البيئة التي لم أعرف غيرها خلال الفترة التي عشتها.

نسيت والدي ووالدتي وأختي وأخي الصغير، فقد انصرفت عنهم لأتأمل ما حولي محاولا أن أشبع روحي بالنظر إليه. فقد أصبحت موقنا بأنني أراه للمرة الأخيرة، وانني لن أراه بعد ذلك إلى الأبد. كنت أطيل النظر إلى أفراد عائلة آل باترنوس وأنا أسترجع الذكريات القديمة، وكنت أشرف من النافذة على شارع بار كفيذو أتأمل المنازل والنوافذ والحدائق والوجوه، ثم أتجه ببصري يمينا لأتأمل الطريق الطويلة التي طالما سرت فيها إلى المدرسة، ثم اتجه به شمالا لأتمل الطريق الطويلة التي طالما سرت فيها إلى الحديقة العامة، وانحدر ببصري إلى هذه الشجرة الفرعاء القائمة في زاوية حديقة منزلنا الأمامية، فتتراءى لي مزدهرة وقد أصبحت كلها مثل زهرة كبيرة بيضاء في أيام الربيع، وتتراءى لي مرة أخرى عارية الفروع قد عصفت بأوراقها الذابلة رياح الخريف، وأمامي الشارع تنبعث من كل مكان منه ذكريات فتنبعث لكل منها في قلبي حسرة من الحسرات.

ما أغرب الحياة ! فبعد أيام قصيرة سوف يضغط أصبع القدر على الزر ليغير منظر فصل من رواية الحياة تغييرا كاملا شاملا عاجلا. ولقد سرت حياتي في قافلة راقصة ضاحكة، بدلا من أسير معها إلى النهاية وجب

علي أن انحرف عنها لأسير في قافلة أخرى لا أعرف عنها غير النزر اليسير.

أما الأيام الذهبية الذاهبة، الأيام التي أوشكت أن تصبح من الماضي، فيطيب للحياة ان تضرم فيها النار... وتحيلها إلى رماد... ولكن أثر النار سوف يظل عالقا بقلبي إلى الأبد.

تقول ميللي : انني أعرف انك سوف تنسانا كما نسينا سائر المراكشيين الذين عادوا إلى بلادهم من قبل، فهل تنسانا انت أيضا أيها الصغير ؟

فابتسم لها منكرا، ولكن كان بودي أن أصرخ من الألم وأنا أحس بلفيح الحسرة يأخذ بمجامع نفسي. واستغربت في ذات الوقت لهذه الملاحظة التي كانت في رأي قريبة إلى الالحاد. ولا أحتاج ان أقول انني كنت مازلت طفلا صغيرا لا يعرف ان ستار النسيان ينسدل عقب كل فصل من فصول المهزلة... ليرتفع عن فصل آخر منها لا يلبث النظارة ان ينصرفوا إليه لاهين ضاحكين.

وكنت أتطلع إلى وجهي في المرآة فأرى مسحة غريبة من الحزن والغضب والحسرة، وكنت أتطلع إلى وجوه أفراد العائلة فلا أرى لتلك المسحة أثرا، كان الجميع فرحا بالعودة ومستسلما لها، فضايقني ذلك.

انقطع أبي عن العمل، وانصرف إلى الاستعداد للسفر، وأقبل أصدقاؤنا يودعوننا وحفل بهم منزلنا. وأخيرا حان آخر يوم لي في المدرسة، ومر النهار مسرعا، فإذا بي أجد نفسي جالسا في الفصل أستمع إلى درسي الأخير في هذه البلاد. ولم أكن أسمع منه حرفا واحدا، فقد انصرفت إلى وجوه زملائي أتأملها، وإلى كل شيء في الفصل أتزود منه بالنظرة الأخيرة، إلى أن يستقر نظري على هذه الآنسة الوسيمة التي كانت تحدثنا عن التاريخ وما مضى من العصور. وكان الزملاء ينظرون إلى من آن لآخر مشفقين.

ثم انتهى الدرس، فتقدمت مني الأستاذة تربت على كتفي وتوصيني بأن أظل حيثما حللت متشبثا بأسباب الاستقامة، فلم أحر جوابا، وانما تقدمت إليها وصافحتها وانطلقت ذاهلا صوب الباب وأنا أودع زملائي الصغار ثم سرت مطرق الرأس خلال البهو الكبير إلى الباب، واخترقت ساحة اللعب الخالية وعندما استدرت رأيت جماعة من التلاميذ واقفين بباب المدرسة يشيعونني بنظراتهم، فرفعت لهم يدي مودعا، فردوا جميعا علي، ثم اتجهت إلى الطريق العام لأسير فيه للمرة الأخيرة وأنا عائد من المدرسة. لم أكن أعي مما حولي شيئا، كنت أسير ورأسي مثقل بالهموم والحاضر كله يتراقص أمام بصري كما تتراقص الذكريات. ان التيار يبلعني والشاطئ يبتعد عن بصري قليلا قليلا.

وصلت إلى المنزل فإذا به غاص بالمودعين، فهذه ليلتنا الأخيرة في منشستر. ومر زمن طويل أو قصير لا أدري فإذا بي أرى ميللي تأخذني إلى منزلها حيث أصرت ان أقضي ليلتي الأخيرة، وجلسنا حول مائدة العشاء، وكان أفراد العائلة كلهم حاضرين وهم يتحدثون عن مراكش، وما سوف يصادفني فيها من المتاعب بعد أن قضيت في منشستر كل تلك السنين. ولكنني لم أكن أهتم كثيرا للمستقبل، فقد كانت روحي تتطلع إلى الماضي الذاهب وتذوب عليه حسرات دون أن تقيم للمستقبل أي وزن.

وأذكر أنني سمعت ميللي تقول : انها مع تقديرها الكامل للأسباب التي تدعونا إلى العودة ترى في عودتي خسارة لا تعوض، وسمعتها تروي انها ذهبت إلى والدي وطلبت منه أن يتركني معهم، أي مع آل باترنوس، لأستمر في دراستي، وانها ألحت عليه في ذلك، ولكنه لم يقبل. والواقع أن التأسفات التي أبداها آل باترنوس زادت مخاوفي، ولكنني حمدت عدم موافقة أبي على الفكرة، فقد بدا لي فراقه أفدح من فراق منشستر. ومهما يكن من شيء فإنني قضيت الليلة الأخيرة في منزل آل باترنوس.

وفي الصباح رأيت عربة النقل واقفة أمام باب منزلنا والعمال ينقلون الأمتعة إليها. وهكذا بدأت حياتنا في منشستر تقطع بسرعة خطواتها الأخيرة وهي في طريقها إلى النهاية.

وأسرعت بي ميللي إلى ذلك المنزل الذي لن يظل منزلنا بعد لحظات، فإذا كل شيء على استعداد للرحيل، وقد ارتدى جميع أفراد العائلة ثياب الخروج لا ليذهبوا إلى المنتزهات العامة، ولا ليقضوا حاجاتهم ثم يرجعوا إلى المنزل، بل لأجل أن يذهبوا بعيدا فلا يعودون إلى هذا المنزل أبدا.

كنت ساهما أتتبع الحوادث وهي تتالى بسرعة، فتأملت الجميع وهم يخرجون إلى عرض الشارع، ورأيت أبي يقفل باب المنزل لآخر مرة. ولما انحدرنا مع الممشى رأيته يرفع إليه بصره كأنه يودعه، فبالرغم من صفات الجد التي كان يطيب له دائما أن يتحلى بها حتى كان يخيل إلي في كثير من الأحيان انه لا يتأثر لشيء، بالرغم من ذلك كان من المستطاع أن تدرك في نظراته مسحة من التأثر.

وركبنا السيارة الكبيرة التي كانت تنتظرنا بالباب، وبينما كان السائق يدير مفتاحها الأمامي استعدادا للانطلاق كما كان السائقون يفعلون في ذلك الزمان، كنت أتأمل المنزل الخالي المغلق النوافذ الذي كان منذ لحظة واحدة فقط منزلنا، وخيل إلي في لمح البصر أن أناسا خياليين قد دخلوه وفتحوا النوافذ وأطلوا علينا، وان الباب يفتح، وان أطفالا آخرين قد خرجوا منه ليلعبوا في الشارع. ان منزلنا سيصبح منزل آخرين بعد أيام، وسوف يقيم به بعد الآن اب آخر وأم أخرى غير أبي وأمي ومعهما أطفال غيري أنا وأختي وأخي الصغير.

وتحركت السيارة فدق قلبي دقات سريعة ونحن نبتعد، فألقيت على المنزل نظرة أخيرة وهو هادئ ساكن كأنه حزين لفراقنا. واخترقنا الشوارع وأنا أذكر في كل مكان ذكرى من الذكريات الذاهبة إلى أن وصلنا محطة القطار.

نعم محطة القطار، هذه البناية الضخمة التي طالما أرعبني الدخول إليها، ولكن الرعب الذي تملكني في هذه المرة كان من نوع آخر. رأيت عشرات من القطر تزفر وتصفر وتصرخ، فلم أتأثر لها، بل لم أشعر لها بوجود، وانما كنت أسير وقد أمسكت ميللي بيدي فاستولى علي نوع من الاستغراب اننا سنفترق بعد لحظات مع آل باترنوس إلى الأبد، فلماذا لا أبصر دمعة واحدة في أي مقلة. ان هؤلاء الكبار ذوو قلوب صلدة كالحجارة، لا ترى منهم أحداً يبكي ولا يشكو ولا يتأثر. انه يخيل إلي من فرط تأثيري ان اللهب قد علق بروحي، وان يدا جبارة تعصر نفسي عصرا. وكنت أشعر برغبة شديدة في أن أنزوي في ركن بعيد وانصرف إلى النحيب ساعات تلو ساعات، ولكن ما بال هؤلاء الكبار ما يزالون كما كانوا، فهل حنكتهم الأيام، وجعلتهم اقدر في السيطرة على مشاعرهم، أو بترت مشاعرهم بترا ؟ هذا ما لم أستطع ان أفصل فيه في تلك الأيام.

وأخذنا أماكننا في ديوان عربة القطار، فأقبلت علي ميللي تقبلني وتحذرني من النسيان، وانصرف الجميع إلى تبادل عبارات الشكر والتأثر، وذكر الأيام السالفة، وتمني اللقاء مرة أخرى، وكانوا يتكلمون في هدوء عجيب أثار خلجاتي. ولكنني حينما رفعت بصري إلى وجه ميللي وقد سمعنا الصفير المؤذن بقرب انطلاق القطار، رأيت دمعتين كبيرتين في عينيها السوداوين العميقتين، ولا أذكر أنني رأيت في حياتي ولا احسبني سوف أرى دمعتين أعمق منهما فيما كانا يعبران عنه من رقة وإنسانية ونبل.

نزل الأخوان الثلاث من العربة، ووقفن يؤكدن علينا في ضرورة الكتابة، وهنا اهتز القطار، ثم تحرك، ثم سار رويدا رويدا. فلوحنا بأكفنا، وسارت ميللي إلى جانب النافذة تقول : إياكم ان تنسونا، انني أنتظر رسائلكم إلينا أيها الصغير. فقفزت إلى النافذة وعيناي تدمعان كما لو كنت أريد أن أرمي بنفسي إلى الأرض وأرجع إلى الماضي، ولكن سرعة القطار ما لبثت ان

ازدادت إلى أن عجزت ميللي عن متابعته فتوقفت وظللت ألوح لها بيدي إلى أن بارحنا المحطة وظللت أنظر إليها وهي واقفة إلى أن عجزت عن رؤيتها، ومع ذلك ظللت أرنو في نفس الاتجاه.

ولما رجعت إلى مكاني كان الصمت يسود الجميع وكانت النظرات ثابتة، وقد انصرف أصحابها ـــ ولاشك ـــ إلى التفكير في الماضي والمستقبل معا، اما الحاضر فلم يكن له وجود. وقد أعفى القدر شخصا واحدا من هذا العناء هو الأخ الصغير الذي لم يكن تجاوز سنته الأولى الا بقليل، فقد كان يرفع عينيه في كل شيء وهو يستغرب لهذه الأشياء الجديدة التي يراها، حتى إذا تعب من النظر إليها عاد فألقى رأسه على صدر والدته.

وكانت أختي ساهمة أيضا، تنظر بوجهها الشاحب إلى الأمام، ولم يعد مع شحوبها مجال لظهور التأثر على وجهها... وقد بدا عليها منذ أجريت لها العملية الجراحية ان سنها تتقدم كل ساعة، فكان يخيل إلي أنها أصبحت بين عشية وضحاها من هؤلاء الكبار الذين لا يحفلون بشيء. كان نوع من اليأس القاتم قد سيطر على كيانها فأخمد ابتساماتها وأكسبها حكمة مبهمة من عدم المبالاة، ولذلك لم يبد عليها أي انزعاج منذ تقرر السفر إلى هذه البلاد التي لم تكن تعرف عنها شيئا، ومن يدري، فلعلها بتلك الحاسة الغريبة التي كانت تتمتع بها قد استطاعت أن تستشف ما يضمره لها الغيب...

أما أمي فكانت مراكش بالنسبة لها أرض الميعاد... ولذلك كان من السهل أن تلاحظ في وجهها نوعا من الغبطة، لأنها كانت على باب تحقيق أمل من آمالها الكبرى في الحياة، وهو الذي ظل يداعبها منذ حلت بهذه البلاد.

أما أبي فلم تظهر على وجهه سوى مسحة الجد، تلك المسحة التي

كان يخيل لي معها دائما انه منصرف إلى معالجة عملية حسابية عويصة... ولم يكن من السهل أن تعرف هل العملية التي يعالجها الآن تتعلق بالماضي أو المستقبل.

كل ذلك والقطار يلتهم القضبان التهاما، ان هذا الحيوان الآلي الذي طالما أرعبني قد تمكن أخيرا من أن يأسرني ليقذف بي خارج حدود هذه البلاد إلى الأبد.

وتطلعت من نافذة القطار، فرأيت حقول انجلترا الجميلة وقد سادها الخريف كأنها تستعد لاستقبال ذلك الشتاء العنيف الذي أوشك أن يعصف بها، فكاد قلبي يذوب حسرات وأنا أودعها بنظراتي الشاردة.

أيتها البلاد الجميلة الرائعة ! أيتها البلاد التي امتزجت بها نفسي امتزاجا لا انفكاك له أبدا، لي في كثير من زواياك ذكريات لا تبلى مهما تقادم عليها العهد، وباعدت بي عنها الأيام. أيتها المصايف الراقصة الضاحكة ! أيتها الحقول الخضراء المزدهرة الحافلة بالألوان ! أيتها المدينة السوداء ذات المداخن العالية والشوارع الصاخبة ! أيتها الحدائق المنسقة البهيجة — انجلترا يا مرتع صباي — الوداع !

لقد انبعث الماضي كله أمام مخيلتي مرة واحدة وأنا أطل من نافذة عربة القطار، وكل ما تحفل به الأعوام الثمانية من أشياء جليلة وتافهة، كل ما خالج قلبي من أفراح ومن أحزان خلالها، كل ما مر بي فيها من أحداث كبيرة وصغيرة، اللعب مع الأطفال، أخيلة الليل، التنزه في الحدائق، الحصون التي أقمتها على رمال الشواطئ، المنزل الذي كنا نقيم فيه، الغرفة التي كنت أنام فيها، المائدة التي كنت أجلس إليها، الكأس التي كنت أشرب منها، ادراج السلالم التي كنت أصعدها، كل شيء انبعث أمامي مرة واحدة كما لو كانت عصى من السحر قد مست الماضي القريب فأيقظت كل ما فيه.

إن حديثا صامتا يدور بيني وبين الحقول الجرداء وأنا أطل عليها من نافذة القطار.

أيتها الحقول الجميلة التي سوف يزدهر فيها الربيع مرة أخرى دون أن أراه، أيتها الافراس والأبقار والأغنام التي أمر بها في الحقول، يا أسراب الطيور التي تعبر السماء في بطء وهدوء وانسجام، يا أيتها الأحجار الملقاة هنا وهناك، أيتها الأوراق الذابلة، أيتها الحشائش الميتة ــ الوداع، الوداع الذي لا لقاء بعده.

انجلترا، أيتها البلاد الجميلة انني أحس بمشاعري قد انفتحت كلها لتستوعب أكبر ما يمكن استيعابه وأنا أنقل نظراتي في كل مكان.

في النوافذ الأخرى أطفال آخرون يطلون في فرح ويذكرونني بأيام السفر إلى المصايف، فيزيد ذلك في أشجاني.

وخلفي العائلة الصامتة فلا أسمع الا أخي الصغير وهو يعبث أو يصرخ.

ثم اتجه ببصري مرة أخرى إلى الحقول لأستأنف معها الحديث الصامت، فيخيل لي أن نفسي تعاهدها على الوفاء للذكرى ما حييت.

ولم أكن أملك ــ ولا أزال ــ ما يمكن أن أعبر به عن هذا الوفاء سوى الحديث، ولذلك فقد امعنت فيه إمعانا.

فإذا رجعت إلى نفسي سمعت صدى كلمة واحدة تتردد في أنحائها كما يتردد صدى الصوت تحت القباب المترامية هي : «الوداع».

الوداع أيها الماضي الذي انقضى منذ لحظات، ومع ذلك بات يخيل إلي أن سنين طويلة أصبحت تفصل بيني وبينه لكثرة ما ضِج به قلبي منذ انقضائه من خلجات.

20

لست أستطيع أن أزعم لنفسي التفكير المصيب في تلك السن المبكرة، ولكن عقلي أنكر شيئا لا أدري ما هو في هذه البلاد. ولست أستطيع أن أزعم لقلبي الاحساس المصيب أيضا في تلك السن، ولكنني أحببت شيئا لا أدري ما هو في بلادي مراكش. لقد كنت أصغر من أن أصاب بداء التعصب، وانما كنت كائنا حيا بسيط التفكير، ولكنه سليم الشعور ساذج الاحساس. كنت على استعداد لأن أقول ان هذا باطل ولو كان من مراكش، وعلى استعداد لأن أقول انه حق ولو كان صادرا عن عدو من أعدائها.

اعتدت أن أقول لنفسي بعد قضاء مدة ليست بالقصيرة في هذه البلاد، ان هذا الطفل المراكشي لا يقل عن زميله الانجليزي في شيء، انه يتقن الألعاب، ويدرك أدق ما يمكن أن يدركه أي طفل. ومع ذلك يوجد شيء يعوقه عن أن يكون تام التكوين، فما هو ؟

إن الأطفال يلعبون بنفس الحذق الذي عهدته في أطفال الانجليز انهم يضحكون ويبكون لنفس الأسباب التي يضحك لها ويبكي أولئك الأطفال. وجوههم ناضرة، وأجسامهم مكتملة، وإدراكهم واعي. وإذا كان لي أن أتدخل بعقلي بعد نموه فلأقل ان الايمان بالنفس هو الذي لم أجد له أثراً بين أصدقائي الجدد من الأطفال المراكشيين.

كان الطفل الانجليزي كائنا تام التكوين من الناحية المادية والمعنوية معا، وكان الطفل المراكشي تاما من الناحية المادية فحسب، اما الناحية المعنوية فكانت خربة منهارة عفنة. انه لا يميز بين الخطأ والصواب الا

على ضوء ما يسمعه من الكبار. وأستطيع أن أزعم الآن أن لقدمه الحافية ورأسه الحليق وثيابه الفضفاضة دخلا في الموضوع.

إن الطفل الانجليزي يطأ برجله الأرض فيسمع وقع حديد الحذاء على الطريق الصلبة فإذا برأسه يرتفع عاليا، اما الطفل المراكشي فيطأ أرضا رخوة بقدم حافية فلا يسمع صدى لخطواته كأنه يسير في الرمال فيظل رأسه مطأطأ. وكان الطفل الانجليزي على استعداد دائم لمواجهة التحدي بينما كان الطفل المراكشي يميل إلى المراوغة وتحين الفرص.

وأستطيع الآن أن أقول أن وباء معنويا مروعا كان يكتسح نفوس الأطفال في ذلك الزمان، وهو لا يقل خطورة عن الأوبئة الأخرى التي اعتادت ان تكتسح هذه البلاد.

ولم أكن قويّ البنية ولا مفتول العضلات، ولكن انتشر بين الأطفال انني كنت في انجلترا ـــ ويعلم الله وحده كيف كانوا يتصورون البلاد الأجنبية ـــ وانني أتقن فن الملاكمة اتقانا خطيرا، ولذلك فإن من السلامة أن يتنحوا عن طريقي. كان يخيل إليهم أن في استطاعتي ان أصرعهم جميعا مرة واحدة، لأنني أتقن هذا الفن الغريب الذي لا يحتاج إلى القوة بقدر ما يحتاج إلى التدريب.

والواقع أن ذلك أيقظ في غرورا لاعهد لي به من قبل، وأخذ شيء يشبه الخيلاء يتلمس الطريق إلى نفسي.

ولن أنسى يوم تجمع الأطفال حولي وهم يتوسلون إلي أن أكشف عن رأسي ـــ وكانوا يفعلون ذلك بتواضع واضح مخافة من استفزاز فن الملاكمة ـــ وكانت لغتي ما تزال ركيكة ولذلك آثرت ان أنهي المحادثة برفع الطربوش ـــ فقد بدأت أرتدي الحلة الفضفاضة ـــ فإذا بالدهشة ترتسم على الوجوه، وإذا بالأطفال يتبادلون النظرات وينصرفون الواحد تلو الآخر، ان على رأسي شعرا، وقد أوحى إليهم هذا الشعر انني من الكافرين،

وسمعتهم يقولون بعد ذلك ان هذا الشعر سوف يتحول إلى قطع من الحديد حينما أموت، وان الله سوف يعاقبني بحمل تلك الأثقال إلى الأبد.

آه يا رب ! هل اتفق الجميع هنا وهناك على كفري ؟ لقد حز الألم في نفسي لهذا الحادث، فقد أسرعت إلى المنزل أشكو لوالدي فقال لي ان الحل الوحيد هو أن تحلق هذا الشعر، ألم تلبس الثياب المراكشية اذن فاحلق شعرك وكن مثل سائر الأطفال.

نعم لبست الثياب الفضفاضة، الثياب الواسعة التي تكفي لكساء عشرة من الأطفال في مثل حجمي، الثياب التي تقعد بي عن الحركة وتغريني بالكسل، وتقتل في جسمي النشاط قتلا، كأنها اغلال للروح كأنها اصفاد للطفولة، كأنها تسرع بي اسراعا مخيفا إلى ارذل العمر... وأنا ما أزال بعد في زهرة طفولتي.

والبيوت أيضا فضفاضة مثل الثياب، فقد ضقت ذرعا بهذا الميدان الشاسع الذي نسكنه كأننا في العراء. ألفت الزخارف والأعمدة وبدأ يستيقظ في نفسي حنين غريب إلى منزل... فهذا الذي نقيم فيه ليس منزلا وانما هو ميدان عام.

ميدان عام يقيم به خلق كثير من الشيوخ والكهول والشبان والأطفال، كأننا في رحلة لا نهاية لها. لقد كنت أفهم المنازل على أنها اعشاش هادئة توقظ بهدوئها الفضيلة والشاعرية في النفوس، وترضي نزعة الاستكانة بعد التعب. اما هذا البيت الذي أسكنه الآن فهو ميدان عام، أو بعبارة أصح، انه أشبه بثكنة عسكرية لا راحة فيه.

اننا نتتالى حول مائدة الافطار إلى ساعة الغداء، ونتتالى حول مائدة الغداء إلى ساعة العشاء، ونتتالى حولي مائدة العشاء إلى وقت متأخر من الليل. ولا توجد غرفة خاصة بأحد، الكل ملك للكل، كل غرفة بحسب

الظروف قابلة لأن تكون للنوم والطعام والسهر واللعب. ان المكان مشاع من جلس في موضع فهو له، ومن قام فقد أضاع ما ملك من قبل.

ولكن الحياة الجديدة بالرغم من هذا كله بدأت تستدرجني شيئا فشيئا، ولست أذكر المدة التي استغرقتها في تعلم لغة التخاطب، ولكنها لم تكن طويلة على كل حال، وسرعان ما أخذت دهشتي تضمحل لانساب مع التيار، فإذا بي أصاحب الأطفال وألاعبهم وأشترك فيما كانوا يشتركون فيه من أسباب التآلف والتخاصم، ولا أحسب أن سنة واحدة انصرمت حتى كنت قد اندمجت اندماجا غريبا في حياتي الجديدة، وابتعدت ابتعادا غريبا أيضا عن حياتي القديمة.

كنت اذكر منشستر وآل باترنوس وظللت احن إلى الماضي، ولكن الزمن القاهر بدأ أخيرا يعالج قلبي بالنسيان، وبدأت اللغة الانجليزية نفسها تضل الطريق إلى لساني مع مرور الأيام، حتى أصبح من المتعذر ان أفهمها إذا سمعت أحدا يتكلمها.

وهكذا أصبح ذلك الطفل القديم بين عشية وضحاها فتى مراكشيا خالصا، لا يحفظ من حياته الماضية الا الذكريات التي رسبت في الأعماق، وأصبح من المستحيل ان تطفو. وكنت من آن لآخر اذكر قول ميللي بأننا سوف ننساهم كما نسيهم المراكشيون من قبلنا، فأرى في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب. وبات في استطاعتي أن أستحضرها أمام مخيلتي فلا أحس بأنفاسي تحتبس، لقد استحال اللهيب إلى رماد.

أما أختي فما كادت تحل بهذه البلاد حتى انتبذت زاوية من زوايا المنزل، ولم تستطع أن تنسجم مع الحياة الجديدة، لذلك ظلت تتبع الحركات والسكنات بعينين منطفئتين في وجه شاحب، وكانت نظراتها العليلة تطفح بضجر ممزوج بالسخرية، ومع ذلك ظلت معتصمة بعدم المبالاة... وكان وجهها يزداد شحوبا مع مرور الزمن، وكانت العلة ماضية في ارتشاف البشر من وجهها الباهت الحزين.

اندمج والدي في الحياة المراكشية منذ اليوم الأول، ولكن أبي مع ذلك ظل شارد الفكر، مستغرقا في حل ألغاز العملية الحسابية الوهمية التي كان يخيل إلي أنه ما يزال منهمكا في حل رموزها منذ أيامنا الأخيرة في منشستر. ولكن كان يبدو انه لم يصل فيها إلى أي حل.

وفتح الأخ الصغير عينه وبدأ يخطو خطواته الأولى، ولكنه فتح عينه على مراكش وحدها، وخطى خطواته الأولى على أرضها، فكان مثله كمثلي حينما فتحت عيني وخطوت خطواتي الأولى في غير الأرض التي ولدت فيها.

وما لبثت الأمور ان استقامت واندمجنا جميعا ـــ طوعا أو كرها ـــ في هذه الحياة الجديدة التي لم يكن لنا بد من الاندماج فيها. وبات من المحتم التفكير في هذا الطفل الذي اقترب من سن العاشرة وهو لا يزال لم يتعلم القراءة والكتابة في هذه البلاد.

كنت أتمتع بحرية واسعة النطاق لأنه كان من المتعذر إرسالي إلى المدرسة قبل أن اتقن لغة التخاطب،، وقد راقني ذلك جدا، وكان الأطفال ينظرون إلى هذا الامتياز بعين الغبطة.

ولكن الأمر لم يطل فقد بدأ أبي يفكر في إرسالي إلى المدرسة، وأصبح الناس جميعا ينتقدون جهالتي... وهكذا كان علي أن أضرب صفحا عن كل ما تعلمته في المدرسة بمنشستر وان أشرع في تعلم جديد من المرحلة الأولى.

وحاولت أن أقاوم ولكن الأمر كان جدا كل الجد، وبدأ أقربائي كلهم يحببون إلي المدرسة فكان نفوري منها يزداد، لأنني كنت أسمع أحاديث الأطفال عنها، فكان صوابي يطير لهذه العقوبات التي كانت تنزل بهم فيها وخصوصا حينما سمعت طفلا يقول أن (الفقيه) الذي يعلمه يخفي تحت الحشية الصغيرة التي يجلس عليها مسدسا مخيفا، ومن المتوقع في كل

وقت إذا ما استبد به الغضب ان يشهره في وجه تلميذ مشاكس ويطلق عليه النار...

وقد طالما وقفت أمام الكتاتيب وأنا أستمع إلى هذا الضجيج الذي يحدثه فيها التلاميذ، وأتوجس خيفة من أن يزج بي في احداها ويطلب مني المشاركة في هذا الصخب بأعلى صوتي طول النهار. وكان مجرد تصور نفسي بينهم يثير في قلبي رعبا شديدا.

ولما أعربت لأبي عما يساورني ـــ وهو يطلب مني أن أستعد للذهاب إلى المدرسة غدا ـــ ضحك وهو يطمئنني إلى أن هناك فرقا كبيرا بين الكتاب والمدرسة، وأكد لي أن المدرسة التي سوف أرسل إليها لن تفترق كثيرا عن المدرسة التي عرفتها في منشستر، وقال ان الفرق الوحيد هو أن الدروس كانت تلقى في مدرستك باللغة الانجليزية أما في المدرسة الجديدة فهي تلقى باللغة العربية واللغة الفرنسية.

وبذلك بات من المفروض علي أن يتكرر حادث ذهابي إلى المدرسة لأول مرة من جديد. فحينما استيقظت في الصباح وجدتني أسير في الطريق مع والدي لألتحق بالمدرسة، وأبدأ التعلم من أول مرحلة للمرة الثانية، فاستولى على نفسي الشعور القديم حينما التحقت بالمدرسة في انجلترا. ولكنني ما لبثت منذ اليوم الأول ان أدركت الفارق الكبير بين المدرستين.

21

وجدت نفسي في المدرسة الجديدة أتلقى دروسي باللغة العربية واللغة الفرنسية، ولم يكن يخطر لي على بال انه توجد مدرسة يمكن أن تشبع في نفسي البهجة مثل مدرستي هذه.

وكانت الدروس العربية مصدرا من مصادر الانشراح، وكانت الدروس الفرنسية مصدرا من مصادر هذا الانشراح أيضا، ولم يكن ذلك يرجع إلى أنني كنت متفوقا بين التلاميذ فإنه لا يوجد في هذه المدرسة ما يدعي بالتفوق. ولا يوجد بها تلميذ واحد يعرف ما قصد إليه أهله من إرساله إلى المدرسة.

كنت أخشى المدرسة، فإذا بي أجدها لا تفترق كثيرا عن السينما. وكان آخر ما يمكن أن يخطر ببالي ان تبعث الدروس التلاميذ على الاسترسال في الضحك، وربما على التصفيق.

كان مدرس الفرنسية من الاخوان الجزائريين، وكان لنا مدرسان عربيان، أحدهما يلقي علينا هذه المادة التي تدعى (العلم) وثانيهما يدربنا على حفظ كتاب الله الكريم. كان الثلاثة يثيرون فينا الضحك جميعا، ولكن اختلاف شخصياتهم كان يجعل لكل واحد منهم طابعا خاصا في اثارة الضحك والمرح بين التلاميذ.

مدرس اللغة الفرنسية رجل نحيل، يميل وجهه إلى العرض أكثر مما يميل إلى الطول، يلبس على رأسه العريض طربوشا شديد القصر، فكان يبدو لنا كما لو كنا نراه مجلوا في مرآة مشوهة... قصير القامة، يرتدي برنسا دون جلباب، يحلو له دائما أن يرمي بجناحيه معا إلى الوراء، ويعقد عليهما يديه النحيلتين المشعرتين، وكان شعر ذقنه الحليق كثيفا يتطاول

فيكاد يصل إلى عينه، وينحدر إلى مسافة بعيدة مع عنقه. شديد سواد شعر الحاجبين، وله عينان حادتان قلقتان، وانف افطس. وكان صوته قويا حادا، وبذلك كان مجرد النظر إليه ـــ وهو يذرع الفصل ـــ يغريني بأن أسترسل في الضحك دون أن أعرف لماذا، ولهذا كنت أحرص حرصا شديدا على ان لا أنظر إليه.

كان يدخل الفصل في الصباح ويقف عند بابه وهو يمر بعينيه الضيقتين بين الكراسي يحصي من تخلف من التلاميذ، ثم يتمتم ببضع كلمات بين أسنانه في شبه حنق، ثم يتجه إلى المنصة التي كان يجلس عليها، حتى إذا ما استقر في مكانه ضرب إحدى كفيه بالأخرى وشرع يلقي هذه الحروف الفرنسية المعدودة بشفتين ممطوطتين وصوت حاد. وكان وجهه يعبر تعبيرا غريبا عما يثيره الصياح بهذه الحروف من معاني في نفسه.

ولنفرض ان تلميذا متأخرا دخل الفصل وهو يلقي الدروس، هل تعرفون ماذا كان يصنع ؟ كان يتوقف عن الصياح بحروف العلة، ويشرق وجهه إشراقا غريبا كمن عثر على ضالة، كل ذلك وهو يشد يديه خلف ظهره، ثم ينظر إلى زاوية السقف، ويسير كأنه غافل نحو التلميذ المتأخر، فإذا ما قاربه دار حوله وهو ينظر إلى السقف. كل ذلك والتلاميذ يتطلعون إلى ما سوف يحدث. وفجأة يصيح بأعلى صوته صيحة ترتج لها حيطان الفصل : (أين تأخرت أيها الخنزير ؟).

ثم يخفض صوته وينحني على التلميذ وهو يبتسم ويقول : لعلك تأخرت في أكل (الكفتة والفلوس) ؟ أليس كذلك ياعزيزي ؟

ويرتفع صوته بالصياح مرة أخرى : نعم كنت تأكل الكفتة والفلوس !

حتى إذا ما انتهى هذا الهمس والصياح والتمثيل ضرب التلميذ ضربا مبرحا وأرسله إلى مجلسه في الفصل، ثم يعود ويعتلي منصته، ويضرب يده

فوق صدره المنتفخ، وينظر إلى التلاميذ يمينا وشمالا بعينين جاحظتين كأنه يقلد نابليون بونابارت.

ولا يكاد يعود إلى الصياح بالحروف الفرنسية حتى ينصرف عنها مرة أخرى وتبرق عيناه ويقفز من المنصة ويتجه إلى مؤخرة الفصل على أطراف أصابعه ليضبط تلميذا متلبسا بجريمة الانصراف عن الدروس، فيمسكه من أذنه ويسحبه هكذا إلى مكان بارز أمام التلاميذ. كل ذلك وهو يسير على أطراف أصابعه، ويشير بالصمت والأطفال يكتمون ضحكاتهم لكي يحافظوا على ما يشير به.

ويوقفه أمام التلاميذ وهو يصيح : ها أنت ذا ! ثم يهمس مبتسما : لماذا كنت منصرفا عن الدرس ؟ وماذا كنت تصنع ؟ لقد عرفت الآن ماذا كنت تصنع. أصابك العطش فانصرفت عن الدرس إلى شرب الحبر من الدواة، أو تشرب الحبر أيها القذر !

ويضج التلاميذ بالضحك، بينما ينصرف مدرس اللغة الفرنسية إلى تلميذه الغافل.

وهكذا كان يقضي ساعات طويلة من النهار يصيح قليلا بالحروف والأرقام، وينصرف كثيرا إلى تمثيل عشرات من هذه الأدوار التي كانت بارعة في نظر التلاميذ، لأنها كانت تنقذهم من مشقة الاستماع إلى الصياح.

كان هذا المدرس يستأثر بمعظم الدروس في الصباح وبعد الظهر اما المدرسان الآخران فكانت تخصص لهما أوقات قصيرة كل يوم لا تتعدى الساعة.

واولهما مدرس مادة العلم. وهي مادة كثيرة الألغاز متشعبة، اصطلح التلاميذ دون اتفاق على أنها مستحيلة الفهم. ولذلك يئسوا منها وانصرفوا عنها إلى العبث العلني أمام مدرسها دون أن يحفلوا بضربه وصياحه،

انصرفوا عنه متحدين له، غير حافلين بما ينجم عن هذا الانصراف لأنه لم تكن لهم عنه حيلة. كان رجلا بدينا قصير القامة يرتدي ثيابا فضفاضة، وقد استقرت على رأسه عمامة واسعة الأرجاء، وحفت بوجهه لحية كبيرة بها بضع شعرات بيضاء. أما ذقنه فكان دائم البلل لكثرة صياحه... كان يضرب براحته على المنضدة وهو يرطن بألغازه، ويضرب بها على وجوه التلاميذ وهم لاهون بقوة شديدة. كان يضرب ويرفس ويصيح بكل ما فيه من قوة، وكان بصره يلتهب ووجهه يحمر وتنتفخ أوداجه وهو يصيح ويرسل الشتائم بصوت عال جدا، واضح جدا، مزعج جدا حتى انه ليخيل إليك من كثرة جلبته انه انقلب إلى عشرين من المدرسين.

ويعييه الصياح والضرب، وتعييه الحيلة لأجل أن ينبه التلاميذ ــ دون جدوى ــ إلى انه موجود في الفصل، فيتهالك على وجهه فوق المنضدة حتى يخيل إليك انه يبكي، فيقبل عليه التلاميذ يربتون على كتفه ويواسونه، فيطير صوابه ويقذف بالعمامة في الهواء ويرفع يديه ويستبد به الصياح استبدادا مخيفا فينطلق إلى الباب ليناديَ مدير المدرسة نداءات متوالية مدوية.

ويستمر في صياحه مدة تطول أو تقصر، والتلاميذ مشدوهون قد انصرفوا عن الضحك والعبث لهول الموقف، وأخيرا يقبل المدير، وهو شيخ جزائري وئيد الخطى، هادئ الأعصاب، لا تفارق الابتسامة شفتيه الذابلتين.

ولا يكاد المدير الشيخ يقترب من باب الفصل حتى يصيح به المدرس بأعلى صوته، ان تعال انقذني من تلاميذك، انهم يدفعون بي إلى الجنون، ان مدرستك هذه مباءة للشياطين والمردة من أبناء البشر. ايها المدير، انقذني، انقذني !

وبينما كان مدرس «العلم» يرسل هذه الصيحات في وجه المدير البشوش، كان هذا ينظر إليه في هدوء عجيب. وأخيرا يسأله :

ـــ ألست أنت الأستاذ في الفصل ؟

فيجيب ثائرا : نعم أنا الأستاذ، ولكن الحيلة أعيتني مع هؤلاء المردة، أقبل، أقبل وأنقذني منهم !

فيقول المدير : هل أناديك في دروسي لتنقذني منهم ؟ هل استغيث بك ؟ انت المدرس فدبر شؤون دروسك بنفسك، كما أدبر أنا شؤون دروسي بنفسي.

قال ذلك وهو ينصرف بهدوء بنفس الخطى الوئيدة التي أقبل بها. وهنا يصيح مدرس مادة «العلم» فيرفع عصاه يضرب بها شمالا ويمينا ويصيح ويلعن. ثم يلف نفسه لفا عصيبا في برنسه ويغادر الفصل وهو يتعثر من شدة الاهتياج.

بعد ذلك يأتي دور المدرس الثالث وهو الذي يمرن التلاميذ على حفظ الآيات القرآنية. رجل ربع القامة في عنفوان القوة والحيوية، جميل المحيا، كث اللحية، ذو عينين نفاذتين. وكان إلى جانب ذلك هادئا يحيط نفسه بهالة من الوقار والهيبة. تقابله في عرض الشارع فيبدو جم التواضع حيي الطرف، حتى إذا عدت فرأيته في المدرسة خيل إليك انه شخص آخر. كان فيها دائم الوعيد والتهديد، يلوح بيده القوية في الهواء فيشيع الرعب الشديد في قلوب التلاميذ. وكانوا جميعا يخشونه دون استثناء، وكانت نظرة واحدة منه إلى أي تلميذ كافية لارجاعه في الحال إلى سواء السبيل.

خصصت لهذا الرجل حجرة يجعل منها كتابا يختلف إليه الأطفال قبل موعد الدروس في الصباح، وبعد موعدها في المساء، وكان التلاميذ يخشونه، فينزعون إلى الهروب منه. ولم يكن هذا الهروب يقتضي كبير عناء، اذ يستطيعون في الصباح أن يتأخروا إلى موعد الدروس، وفي المساء يستطيعون الخروج من الباب الخلفي، دون أن يحاسبهم أحد على ذلك.

بل كان كل تلميذ يأتي من والده بطلب الاعفاء من الاختلاف إلى الكتاب يتمتع بهذا الامتياز رسميا، وفي استطاعته بعد ذلك أن يمر به ويحييه وينصرف دون أن يخشى شيئا، لأن قانون المدرسة كان يحميه من الانكباب على حفظ ما أنزل الله على عبده من آيات بينات.

وويل للذين يهربون دون أن يقدموا للمدرسة طلبا ممضي بتوقيع ولاة أمورهم. ولا يأتيهم هذا الويل من قبل المدرسة أو مديرها، وإنما يأتيهم من قبل صاحبنا هذا القوي العنيف. فقد كان يعلم أن مستقبل هذه الحجرة التي خصصت له رهين بالاقبال عليها، فإذا تسامح في تتبع الهاربين، فسوف يأتي اليوم الذي تقرر فيه المدرسة الاستغناء عنها، ولذلك فقد جرد عزيمته تجريدا مخيفا، وبدأ يترصد التلاميذ، ويتربص بهم، ويعترض طريقهم، وقد انصرف إلى دراسة حيلهم في الهرب انصرافا دقيقا، حتى اتقنها جميعا، وبات في استطاعته أن يحيطها جميعا.

وأنا مدين لهذا الرجل، لأنه أول من علمني القراءة والكتابة في صورتها البسيطة الساذجة. واذكر انني كنت أخشاه بالرغم من أنه لم يمسني منه سوء. فقد نشأ بيني وبينه نوع من الاحترام عرفت فيما بعد أنه كان نتيجة لمقابلة تمت بينه وبين والدي دون أن أعلم عنها شيئا.

كانت حجرته تضم مزيجا عجيبا من التلاميذ، فمنهم الصغير الذي يتعلم القراءة والكتابة في المرحلة الأولى، ومنهم المتوسطون الذين بدأوا يقطعون أشواطا لابأس بها في حفظ السور والآيات، ومنهم الكبار الذين اتقنوا حفظ كتاب الله الكريم لكثرة ما مروا به طردا وعكسا. فلم تكن هذه الحجرة مخصصة لسنة دون أخرى، بل كانت مخصصة لتلاميذ الفصول كلها.

كان من بين هؤلاء الصغار فتى ناهز العشرين من عمره، اعتاد أن يسرد كل يوم حزبا من كتاب الله المبين والمدرس يستمع إليه، وكان فتى قويا

خشنا تكفي نظرة واحدة إليه لمعرفة أنه على استعداد لخوض المكاره، وكان صاحبنا يحترمه احتراما شديدا، ولا يصيح به ولا يستحثه، وكان يعطيه حرية واسعة النطاق، بحيث كان في استطاعته أن يأتي وينصرف في المواعيد التي يختارها، وكان يحييه كلما أقبل وكلما هم بالانصراف، وهذا ما لم يكن يتمتع به تلميذ غيره.

وذات يوم حصل ما عكر العلاقات بين الأستاذ والتلميذ، فلم يكد الفتى يقبل حتى أعرض عنه الأستاذ اعراضا لفت نظر الصغار جميعا، فكانوا ينقلون نظراتهم بين الشخصين في حيرة واندهاش، كما ينقل النظر بين ندين نشأ بينهما غضب مفاجئ. وكان الأستاذ من آن لآخر يرميه بنظرات صاعقة تضج بالاستخفاف والازدراء، ثم تطور الأمر من هذه النظرات إلى الكلام، إذ وجه إليه الأستاذ بضع كلمات عرف منها ان الفتى أتى أمرا مشينا، فرد عليه هذا بكلام فهم منه انه لا يعبأ باهتمام الأستاذ. عندئذ ساد الحجرة صمت رهيب، فقد تطاير الشرر من عيني صاحبنا وهو يضرب بعصا في الهواء، ويطلب من التلميذ الذي ناهز العشرين من العمر أن يدخل هذه الحجرة المجاورة الخالية، وحاول التلميذ أن يهرب ولكن الأستاذ اعترض سبيله، ودفعه داخل الحجرة، فحاول أن يقاوم ولكنه استحيا. ودخل الأستاذ في اثره وهو يتميز من الغيظ، ثم انقض عليه في جنون، فلم يلق مقاومة تذكر في أول الأمر.

كل ذلك ونحن ننظر مشدوهين إلى هذا الحادث الرائع الذي لم يخطر لنا على بال ان الدهر سوف يسمح لنا بمشاهدته. فقد استيقظت الهمة في صدر التلميذ عقب الاهانات المتوالية التي وجهت إليه، فاشتبك مع الرجل في صراع مخيف. فقفزت قلوبنا الصغيرة إلى حناجرنا ونحن نتتبع هذه الضربات المتتالية التي كانا يتبادلانها. ثم سقطا معا إلى الأرض، وزاد اشتباكهما وغالب الفتى القوي أستاذه وما استطاع إلى المغالبة سبيلا.

وأخيرا تمكن هذا من أن يجثم على صدره، ويكيل له ضربات قاتلة. كل ذلك والجدران والأبواب تهتز كما لو كانا ثورين يتنازلان.

ازدادت مخاوفي بعد هذه الحادثة المروعة التي أثارت قلقي، وبدأ يخيل إلي أن نظر صاحبنا هذا الطاغية إلي قد اعتراه بعض التغيير، ثم خيل إلي أن العلاقات بيني وبينه أخذت تسعى إلى التوتر، وأخيرا بدا لي من اليقين انه يتربص بي حتى إذا اقبلت مع جماعة من التلاميذ في وقت متأخر، أمر بأن ترفع أرجلنا للضرب. وكنا سبعة، فلما رفعت رجلا التلميذ السادس أيقنت ان دوري آت لاريب فيه. فاجمعت أمري مرة واحدة، واتجهت ببصري إلى الباب، وفي لمح البصر كنت أعدو في الطريق إلى باب المدرسة الخارجي كأنني أسابق عاصفة هوجاء، وتبعني اثنان أو ثلاثة من التلاميذ بأمر من الأستاذ لاعتقالي، ولكن هيهات ! فقد كان العدو الشيء الوحيد الذي كنت أمتاز به بين أقراني الصغار. ومنذ ذلك اليوم ألغيت هاتين الساعتين اللتين كان يقتطعهما من وقتي أستاذ القرآن. وقد حاول ان يتعرض طريقي ويطاردني ولكنه لم يتمكن من القبض علي أبدا. وقد انقطعت العلاقة بيني وبينه منذ ذلك الحين، دون أن أحتاج إلى تقديم موافقة والدي على ذلك، فقد أخذت على عاتقي أن أتخلص منه من غير أن يعلم والدي، لأنني كنت أعرف أن آخر ما كان يمكن أن يقبله هو مساعدتي على الهرب من حفظ تنزيل العزيز العليم.

22

انسابت بنا الحياة بعد ذلك انسيابا ناعما هادئا، على النحو الذي ما تزال تنساب به إلى اليوم، مع خلاف بسيط لا علاقة له بالجوهر، فلا داعي لتتبع التفاصيل. بيد أن شخصا واحدا لم أكن ينساب مع هذه الحياة الناعمة الهادئة، وهذا الشخص هو أختي التي تشبثت بها العلة وازدادت وطأتها شدة، وأصبحت تفقد وعيها من وقت لآخر، واشتد هزالها وهي طريحة الفراش. لم أر في هذا شيئا غير عادي، لأن الحياة الجديدة التي انسجمت فيها أسرتي، فانصرفت إلى الاستمتاع بها، وإذا كنت آسف بين الفينة والأخرى لأن أختي لم تشاركني في هذا فإن إيماني بأنها سوف تستمتع بها في يوم من الأيام كان يخفف من حدة الأسف، بالرغم من أنها ظلت تعيش غريبة في وسطها الجديد. وفي يوم من أيام عاشوراء ظللت ألعب طول النهار دون أن أتذكرها، ولما عدت إلى المنزل دخلت الغرفة التي كانت توجد بها، وكانت نائمة يحف بها بعض أفراد العائلة، فما كدت أمثل أمامها حتى فتحت عينيها كما لو كانت معي على ميعاد. عينان خابيتان منطفئتان في وجه أصفر شاحب، وبدا لي أنها تبذل مجهودا كبيرا لأجل أن تمكن الابتسامة من أن تتعلق — وهي خائرة — بشفتيها الذاويتين، ثم همست بألفاظ عليلة هزيلة واهية في لوم ممزوج بدعابة ميتة : يالك من أخ عاق ! ألا تقدم لأختك بعضا من هذه اللعب الكثيرة التي تحملها، احتفظ لي بواحدة ألعب بها بعد الشفاء.

لا أعرف بماذا أجبتها، ولكن طلبها بدا لي في نفس الوقت عاديا، انها تريد إحدى لعبي، سوف أحتفظ لها بها، فقد طالما تهادينا بلعبنا، بل كانت دائما مشاعة بيننا. وإذا كنت قد غبت طول النهار لأول مرة في

حياتي، فليس في ذلك ما يدعو إلى الاهتمام. عرضت عليها الألعاب الجديدة التي اشتريتها، ولكن بدلا من أن تقبل عليها لتفحصها وتلعب بها اقتصرت على تحريك رأسها لتتمكن من رؤيتها رؤية عابرة وهي تقول : لا، ليس الآن، لا تقدمها إلي الآن، دعها إلى وقت آخر، احتفظ لي بواحدة منها إلى أن أبل.

قلت مغتبطا : تعلمت اليوم ألعالبا جديدة رائعة، سوف أعلمك غدا إياها في الصباح، أوه كم رائعة هذه الألعاب الجديدة ! وعادت تبذل مجهودا جديدا لتبادلني اغتباطي وهي تقول : لا، ليس الآن، في وقت آخر، ان الساعة تتأخر، بيد انه يجب أن تتذكر، لا تنس أن تحتفظ لي بإحداها، احتفظ لي بها جديدة إلى أن ألعب بها. والآن دعني أنام، ياللك من اخ مشاكس ! دعني أنام إلى الصباح، سنلعب في الصباح.

كنا في فصل الصيف، ولذلك لم أكن أذهب إلى المدرسة. ومعنى ذلك أنني كنت أقضي أيامي كلها في لعب متواصل مع لداتي من أقاربي. وكان الليل يضايقني لأنه يفصل بيني وبين الأطفال، ويحول بيني وبين اللعب. وكنت أستأذن أبي أحيانا لأذهب إلى هذا المنزل الكبير الذي كانت تقطنه جدتي، فقد كان يضج بأطفال أكثر من منزلنا، وكان هؤلاء الأطفال يطلبون مني أن أقضي الليل معهم لأجل أن يطلعوني على الألعاب الليلية الرائعة، ولكن أبي كان يمانع في ذلك ممانعة أيأستني، فانصرفت عن هذا الاستئذان انصرافا كله حسرات.

فما راعني ذات يوم الا أن أبي ناداني قائلا : انه سوف يرسلني إلى منزل الجدة لأقيم به أسبوعا أو أسبوعين. يا للبهجة ! أسبوعا أو أسبوعين ! اذن فسوف أستوعب كل اللعب دون رقيب ولا عتيد، إلى أن أعجز عن الحركة. ولم أكلف نفسي مشقة التفكير في السر الذي يكمن خلف إرسالي هذه المدة الطويلة إلى منزل جدتي، وهو الذي كان أبي يمانع من

أن أقضي فيه ليلة واحدة بعيدا عنه، ذلك أن الابتهاج طفا على السر الرهيب.

وفي منزل جدتي الذي كان يعج بلداتي من الأطفال اطلعت على أسرار اللعب لا في الليل فحسب ولكن في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار أيضا. وكان به حوض كبير صالح للسباحة حيث كنا نقضي معظم الوقت عراة نقفز ونسبح إلى أن ضاق بنا المنزل ذرعا. ولكن جدتي لم تكن تبالي بضجيجنا، فقد كانت مغتبطة بنا لا تحفل بشيء ما دمنا نملأ الجو بضحكاتنا.

ومرت الأيام وأنا غافل عن الحروف القاسية التي كانت تنقش في اللوح المحفوظ. كنت ألهو وأضحك وألعب بينما كانت الأقدار تجد وتعبس وتتربص. وفجأة وضعت يدي على مفتاح السر الرهيب في الوقت المناسب، فقد سمعت كلمة واحدة علقت بذهني وأنا ألعب، وما زلت أتأملها حتى فهمتها. كلمة كانت قصيرة عابرة أفهمتني لماذا أرسلت بصفة شاذة إلى منزل جدتي. وما لبث إيماني ان قوى بما فهمته، فقد كانت كل الظروف التي تحيط بي بمثابة أفواه تصرخ بالسر المخيف دون أن أسمع شيئا. ولكن هذه الكلمة العابرة، هذه الكلمة الخالدة التي سوف تظل تتردد في نفسي ما دمت على قيد الحياة، هذه الكلمة كانت أبلغ من كل شيء. وتلفت يمينا وشمالا وعيناي زائغتان مرعبتان، ثم انسللت نحو الباب وفكري شارد يستكنه أسرار الكلمة المروعة، ثم خيل إلي وأنا أخرج إلى عرض الشارع ان انهيارا هائلا قد دمدم فجأة في أعماقي. وأخذني صوت مرعب من جميع أقطاري فرفعت يدي المرتعشتين أسد بهما أذني لأحول بينها وبين الصوت البشع المدوى. ثم انطلقت أصرخ وأعدو وأبكي كما لو كنت قد أصبت بجنون غامر. وكان المارة ينظرون إلي في استغراب، ولكنني لم أكن أدرك لأحد منهم وجودا، وكان البعض يحاول

اعتراض سبيلي فأتملص منه وأعدو في جنون، ورفعت يدي أضرب الباب بشدة، ولما فتح وقفت في مكاني كما لو كنت قد تحولت إلى صخر. رأيت بضع وجوه صفراء تبرق فيها عيون فزعة قلقة، يكمن خلفها شعور أصحابها بأنهم قريبون من كارثة، ولم ينبس أحد ببنت شفة، فظللنا هكذا عدة دقائق، ثم أحسست بالحياة تعود لتتدفق في جسمي تدفقا جبارا ساحقا. وتحركت في مكاني استعدادا لمواجهة الواقع المرير، ولكن حركتي أثارت في تلك العيون ما أفهمني أن أصحابها مصممون على منعي من دخول المنزل. وعادت الحياة تتدفق في جسمي من جديد وأنا أتحفز كما لو كنت أستمد قوى من السماء، وشعرت بأنه بات في استطاعتي أن أقتحم جدارا، وبدا لي أن دمائي تصرخ مستنجدة بي ان اندفع فلا توجد قوة فوق الأرض تستطيع أن تعوقك في مثل هذه الساعات الفاصلة، فاندمجت وسط كتل من البشر كأنني سهم يخترق المياه، وكانت ثيابي ممزقة، ووجهي منتفخا، وصوتي أبح حينما وقفت أمام باب الغرفة المقفلة التي اعتادت أختي أن تنام فيها وترددت قليلا قبل أن أقتحم الباب ثم فجأة فتحته بشدة وأنا أصرخ، واندفعت نحو الزاوية التي كانت توجد بها وقد وطدت نفسي على مواجهة افظع الكوارث، ولكنني لم أتوقع أن أجد الزاوية خالية، فتوقفت وقد احتبست أنفاسي، وكان فكري يتقلب بسرعة، ثم تلفت، وهنا انهمرت دموعي وأنا أتشنج، واقتربت بخطى وئيدة ناظرا إلى الأرض بضع خطوات قصيرة مضطربة، ثم وقفت أرنو إلى الأرض. كانت القوة العجيبة التي تتقمصني تنسحب مني في سرعة، حتى خيل إلي أنني أتداعى، وتملكني حنين غريب إلى أن أسقط إلى الأرض، إلى المكان الذي أرنو إليه، إلى جوار هذا الشيء الذي لابد انه أختي، ذلك أبصرت على الأرض العارية شيئا مستطيلا قد لف في كفن أبيض، والغرفة خالية من كل آثار أختي، نعم فإن أختي الوديعة الرحيمة ملقاة هكذا على الأرض العارية ودون وسادة...

ألقيت بنفسي إلى الأرض وأنا لا أكاد أصدق ما أرى. ومددت بيدي إلى الشيء الملقى على الأرض أفك رباطه من ناحية الرأس. ياللكارثة ! ان أختي بين ذراعي جثة هامدة لاحراك بها... ولم يبق من الشعلة الوهاجة سوى ذبالة، استحالت الوقدة إلى رماد...

وضممتها إلى صدري فخيل إلي أنها رخام، وسرت في جسمي قشعريرة وأنا أعانق الموت والثمه وأبلله بدموعي، ولو كانت في أعماق اليم لألقيت بنفسي إلى الأعماق... ولو كانت في الجحيم لاقتحمت عليها شواظ النيران. وكل من حولي وما حولي باهت يرنو في وجوم إلى هذا المنظر المروع، فخارت قواي وتخاذلت، وتقدم إلى الحضور ليأخذوني وأنا أدفن وجهي في وجه أختي الميت البارد. وحاولت ان أقاوم فخانتني القدرة، ولما شعرت بأنني لا محالة مستسلم ارتفع صوتي بالنشيج، وعندما افقت من الصدمة جلت بعيني في كل مكان فإذا بهما تنكران كل مكان. لقد مست يد التغيير كل شيء في الحياة بعد ممات أختي. واستيقظت في نفسي الذكريات القديمة في منشستر : ألعابنا وحديثنا أثناء الليل، خواطرنا في ليالي عيد الميلاد، توسلاتنا إلى صاحب حقل الكرمب، ذهابنا إلى المستشفى، أجل لقد كان بمثابة خطوتها الأولى نحو القبر.

وكاد صوابي يطير وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأنه من المفروض علي أن أسير بقية الطريق وحدي، فبدت لي الطريق موحشة غريبة كأن لم يكن لي بها عهد من قبل، صارت مملة مخيفة لا تثير أي اهتمام.

لقد تغير كل شيء بعد وفاة أختي، لذلك كانت وفاتها فاصلا بين عهدين. وإذا كانت هي قد انتهت يوم توفيت فقد انتهيت أنا أيضا في ذلك اليوم. ان ذلك الطفل الذي ألقي بنفسه فوق صدر أخته الميت لم يقم أبدا. انه ما يزال مكبا عليه إلى اليوم يعانق أخته ويناديها. أما هذا الذي قام فطفل آخر لا يمت إليه بأي صلة.

إن الحوادث الفاصلة هي التي تنهي فترات حياتنا لا السنون، وإذا كنت ما أزال طفلا في ذلك الحين، فإنني أنظر إلى الفترة التي تسبق هذا الحادث المروع على أنها فترة مستقلة تمام الاستقلال عما بعدها.

أما الفترة الثانية فهي التي سرت فيها وحيدا اتعثر لأستأنف السير في طريق الحياة وحدي. وانني أكتب هذه السطور فيخيل إلي أن العينين الدعجاوين البريئتين تطلان من خلف كل كلمة، وهما تشعان بذلك البريق الغريب المتألق. ان عينيها تسكنان في ضميري، أجد فيهما العبوس حينما أهفو، والاغتباط حينما أصيب، ومازلت استلهم منهما الهداية في طريق الحياة المحفوفة بمواطن الزلل والضلال. كان كل شيء في طفولتي ممتزجا بها ولذلك فقد انتهت مرحلة من طفولتي بموتها، ولم أعد أشعر برباط بيني وبين ذلك الماضي الذاهب الذي كانت أسطع كوكب في سمائه. وكان يخيل إلي في ذلك الحين من فرط هول الصدمة انني لن أفيق، ولكن يد الزمن ربتت على كتفي لكي أنهض وألحق بقافلة الحياة، كان صوابي يطير كلما رنوت إلى (المكان) فأجده فارغا منها، وهالني أن أنكر كل ما حولي بالرغم من أنني أنكرته، كان يقيم بمكانه في قسوة كما لو لم يحدث شي. وإذا كنت قد ابتعدت في طريق الحياة عن مكان الحادثة القاسية، وإذا كان الزمن قد مسح بيده الرقيقة الكلوم والدموع والحسرات، فإن تلك اليد القديرة لن تستطيع أن تمحو شيئا واحدا، هو ذكراها في قلبي والوفاء لهذه الذكرى. نعم مازال صوتها في أذني وهي تقول بنبراتها العليلة (احتفظ لي بواحدة، احتفظ لي بها لكي ألعب بها بعد الشفاء). وقد احتفظت بها ولازلت ولن أزال ما نبض بالحياة قلبي، سوف أظل محتفظا لها مدى الحياة بشيء أسمى وأجل من لعبةٍ، ولعلها كانت تقصد شيئا اسمي وأجل منها : الذكرى التي تهمس في الأذن وتطالع في العين وتكمن في الأعماق. لا أزال أرى ذلك الوجه الكريم يطل على من

صفحة البدر كلما اكتمل في السماوات، ولكنني أصبحت أرى اليوم إلى جانبه وجها آخر صغيرا، وجه الطفلة الوديعة يطل خلف كتف الأم على الليل الساهم الحزين.

وانني اذ انتهى إلي هذا المكان من الماضي لأنحني في إجلال امام القبر الصغير المجهول، لأذرف دمعة حارة على الطفلة الخابية التي كانت في يوم من الأيام شعلة من حياة.

23

عندما زرت جدتي ذات مساء أصرت على أن أقضي عندها الليلة، فاعتذرت بأنني لا أستطيع أن أنام الا إذا وضعت رأسي على وسادتي، فأرسلت جدتي في طلب الوسادة السحرية التي أخذ هذا الطفل المدلل على نفسه الا يضع رأسه إلا عليها، ومنذ تلك الليلة ظلت الوسادة تتبعني إلى أي مكان أقضي فيه الليل خارج المنزل.

فلما كنت على أهبة مغادرة البلاد هذه المغادرة الطويلة، وذهبت إلى محطة القطار، كنت أحمل معي تلك الوسادة، فلم يكن من المستغرب أن يدسها والدي تحت ذراعي، وقد أدهشني حقا، ولكنني قدرته، ان والدي يودعني وهو يمعن في احترام صبيانياتي..

وعندما هممت باختراق الباب بعد أن ودعت أهل المنزل استوقفتني جدتي الباكية وقذفت في وجهي بعض الملح، الا رحمها الله لقد أرادت بذلك أن تضمن رؤيتي مرة أخرى، ولكن الموت خيب آمالها، وسارت القافلة في الظلام حول غلام على عتبة الشباب لتودعه عند محطة القطار هذه المعتمة المعزولة المتواضعة، وتأخر القطار فأخذ الغلام يتأمل ــ ووسادته تحت ابطه ــ وجه والده، وتذكر الحرقات التي عاناها وهو يودع أهل المنزل، وأستغرب لاستهانته بالقدرة على مغادرة البلاد لأول مرة، واستسخف الفرح الذي انتابه حينما سمح له بالسفر، كما استسخف الجزع الذي أصابه منذ بضعة أيام حينما كادت السلطة تحول بينه وبين ما يريد وكانت مئات الخواطر تتصارع في نفسه، وكان المستقبل يتراقص أمام مخيلته بصور شتى تتباين تمام التباين عن الصور التي تكشفت عنها الأيام بعد ذلك، كل هذا وعيناه لا تكادان تبارحان وجه والده القلق الحزين

الذي كان ينظر إلى ابنه يبتلعه البعاد دون أن يعرف على وجه التدقيق المصير الذي ينتظره.

وبالرغم من كل ما كان يصطرع في نفسه، أثناء تلك الليلة الغامضة من ليالي أكتوبر. من آمال وعواطف ونزعات ومخاوف وتوجسات، ظلت عيناه مركزتين في ذلك الوجه الوقور، واستطاع أن يلحظ بالرغم من كل ما كان يعانيه، أن وراء تلك السحنة الصارمة قلبا يخفق بشدة.

وكان جزعه يزداد مع مرور الثواني والدقائق، وقد ضاعف منه الظلام الكئيب الذي يكتنف المحطة المنزوية ويكاد يخنق مصباحها اليتيم الشاحب، فاستسلم لهذه الخواطر المبهمة التي يستسلم لها الناس عادة وهم على وشك اقتحام باب المجهول، هذه الخواطر الغريبة التي يتكاثف فيها الجزع مع الاطمئنان، واليأس مع الرجاء.

وفجأة تردد في سكون الليل صفير... ثم بدا بعد ذلك دخان أبيض في سحمة الليل تتخلله شرارات حمراء، فتردد في قلبي صفير مثل الصفير، وتطايرت شرارات مثل الشرارات، فقد تبينت في الظلام الحالك شبح القاطرة وهي تزفر لتكبح من جماحها حتى تتمكن من الوقوف عند المحطة.

لن أنسى ما حييت الدمعتين اللتين ترقرقتا في عيني والدي وهو يعانقني العناق الأخير، فلقد تحولتا بعد ذلك إلى جوهرتين أرصع بهما ذكرياتي، وما كدت أصعد أنا والزميل الذي كان يرافقني عبد الكريم بن ثابت رحمه الله العربة حتى عادت القاطرة تستجمع أنفاسها، وسمع هديرها كما لو كانت تعجم عود قدرتها على فصم كل العرى التي تربطني بالماضي، ثم تزحزحت، ثم سارت، ثم انطلقت في الظلام مولولة صارخة.

كان زميلي يجلس في مواجهتي ويبادلني الحماقة مدة طويلة من الوقت، وكان كل واحد منا يلقي التبعة على صاحبه في هذه الورطة التي وقعنا فيها طوعا واختيارا، وكان القطار يزحف بنا نحو مدينة وجدة في قلب

الظلام، ثم تذكرت انني كنت قد اشتريت استعدادا لتحمل هذه المأساة علبة من لفافات التبغ، ففضضتها واشعلت واحدة منها وبثثت دخانها أحزاني، وما تزال اخواتها تتتالى بين أصابعي إلى الآن، حزنا على طفولة عبثت بها المقادير، فقطعت أوصالها، وجعلت آخرها لا يدل على أولها، أولها لا يدل على آخرها، وجاءت اليوم تفتح صفحة جديدة مجهولة ومحفوفة بالأخطار.

وانطلقت من فمي سحابة من الدخان تراقص خلالها مستقبل مجهول، وقد استسلمت لما انتابني من خواطر مبهمة، وبينما كانت اللفافات تتتالى تتالت معها آلاف من الخواطر استمرت طول الليل، وكنت أسند رأسي إلى ظهر المقعد، فإذا بعيني تقعان على ألوان غريبة تتماوج وتحاول أن تهتك ستر الظلام... انه الفجر، وهذه قمم الجبال العتيدة تنفض عن نفسها الدجى لتتخذ لها مكانا بين السحب وتلك الوديان العميقة تزحزح عن نفسها الظلام لتبدو جلية رائعة، لقد تنفس الفجر بألوانه ونسماته وأنغامه وهمساته وأندائه، ياإلهي ؟ كيف تستعبد بلاد هذا فجرها.

سرني في مدينة وجدة أن أشعر بأن مقاليدي قد أصبحت بيدي، فليس هناك من يستطيع أن يأمرني بهذا أو ينهاني عن ذاك، فأممت مع زميلي متجرا من متاجر الملابس وابتعنا بذلة افرنجية، وبذلك تمكنت من تحقيق رغبة طالما جاش بها صدري وعجزت عن تحقيقها، وهي أن أخلع هذه الثياب الفضفاضة التي حبست فيها منذ رجعت من منشستر وأعود إلى ثيابي القديمة، فلقد أشاعت في طفولتي الكهولة... ولما غادرنا المتجر كنا حقيقة مخلوقين جديدين تحررت عضلاتهما وخفت خطواتهما، وشعرا بأنهما يعودان إلى الصبا ولا يغادرانه.

قضينا يوما في وجدة، وحان أن نفارقها، فلما وصلنا إلى محطة القطار سلمنا رجال شرطة المدينة إلى رجال شرطة الجزائر، وإذا بي أجدني أمام شرطي ضخم الأنحاء أخذ يتأملني ساخرا، وكأنه يقارن في نفسه بين

ضخامته وضآلة بنيتي، وبدا عليه منذ اللحظة الأولى ما يدل على شعوره بأنه عثر على صيد ثمين... وما كاد يسألني سؤالا أو سؤالين حتى تأكد من أن فراسته لا تخطئ، ذلك أنني توجست منه شرا فوضعت يدي على صدري أتحسس مكان قصيدة وطنية كانت في جيب سترتي، فقد خيل إلي أن فراسته لمستها، وان هذه الجثة المترامية الأطراف أعمق من أن يفوتها شيء، فهالني الأمر، وبدا علي الاضطراب.

وما كاد الرجل ـــ عفا الله عنه ـــ يتأكد من صدق فراسته حتى دس يده في صدري دسا، ثم أخرجها بورقة، فقلت في نفسي وقد ازداد اضطرابي «لعن الله الشعر والشياطين التي أوحت بقرضه» ثم استرقت النظر إلى الورقة فإذا بها قائمة كتب... لقد أخطأ الرجل القصيدة، ثم أتى بعض التصرفات التي دلت على أن عقله في مثل كثافة جسمه، وأخذ يسألني «ما معنى هذا ؟».

ـــ قائمة بأسماء كتب.

ـــ كتب ؟ كفى تدليسا.

وسرعان ما انتفخت أوداجه وبدا عليه الاعتزاز بالنفس والتأكد من أنه وضع يده على مجرم ضليع في السياسة، فأصدر إلى أمره بأن أتبعه إلى مكتب الرئيس ـــ فلم يكن لي بد من أن أطيع.

ولما كنت أعلم أن الأمر جد كل الجد، وان القائمة قد تفضي إلى القصيدة، وان القصيدة قد تخلق بعض العراقيل لأن فيها تعبيرا عن الرأي، فقد تمكنت من تمزيقها وانا أتبعه بين الجماهير إلى مكتب الرئيس. اخترق الباب الزجاجي فاخترقته من خلفه خفيف الحركة بعد أن تخلصت من العبء الثقيل، وأصبحت على استعداد لأن أسير وراءه إلى الجحيم ليحاسبني، وإذا بنا نقف معا أمام مكتب رئيسه، وكان رجلا ظريفا حقا، فقد رفع إلى الشرطي عينين مثقلتين بالسهاد كما لو كان قضى عدة

سنوات لم يغمض له فيها جفن، وأخذ يتأمل كلامه في حزن، حينما مضى الشرطي يتحدث عن خطورة الموقف وعن اضطرابي في أقوالي، وعن استغلالي لعدم فهمه للغة العربية فاقحمت له شيئا غريبا اسمه «قائمة كتب» وهذا في رأيه كله تدليس يخفى وراءه جريمة، وقد استمع الرئيس في كآبة إلى كلامه ثم نقل نظرته الحزينة من جسم الشرطي الضخم إلى جسمي النحيل، ومن جسمي النحيل إلى جسم الشرطي الضخم، ثم أخذت الكآبة تنحسر عن وجهه قليلا قليلا إلى أن تحولت إلى ابتسامة ساخرة، ثم أخذ ــ طيب الله ذكراه ــ الورقة من يد الشرطي ليدفع بها في وجهه وهو يتأفف...

شعر الجندي بأن رئيسه أهانه إهانة لا تخفى على غلام، أما أنا فإن ضخامته تضاءلت حتى أصبح من الصعب علي أن أراه، فلما فتح الباب ليخرج شعرت برغبة ــ ملحة في أن أتحداه فاقتربت منه وربت على كتفه لانبهه إلى أن في يده ورقة يحسن به أن يعيدها إلي.

وثارت ثائرة الرجل وهم بأن يعصرني في كفه عصرا، ولكن جبروته ذهب بعد أن رأيت رئيسه ينهره، فظل يحاورني ثم دفع إلي بالورقة فمزقتها وعدوت إليالقطار الذي كان قد تحرك، بعد أن حملت الوسادة والحقيبة، واستطعت أن ألحق به وأقذف بنفسي إلى جانب زميلي الذي نجا من مثل هذا العنت.

قضينا اليوم التالي في مدينة وهران ضيفين على شيخ مغربي، وكان متفانيا، ولما تجولنا في المدينة بدت كما يبدو الفرنسي حين يلبس الطربوش، أو العربي حين يلبس القبعة...

ورأى الشيخ المغربي أن يستمد من تجاربه الطويلة في الحياة ما ينصحنا به، فأوصانا بأن نشتري تذكرة لركوب سطح الباخرة ثم نستأجر غرفة أحد البحارة لنقضي فيها الليلة بين وهران ومرسيليا، وبذلك نوفر عددا

من الفرنكات وندخرها لما قد يصادفنا في الطريق، وكانت الفكرة بالنسبة لحالتنا المالية رائعة...

ولم نجد أية صعوبة في الاتفاق مع أحد البحارة على ما أوصى به الشيخ، وما كادت الباخرة تمخر بنا عباب البحر حتى طلب منا أن نتبعه في أحد الدهاليز، ولقد بدا الأمر مريبا منذ اللحظة الأولى، فعلى باب الدهليز صدمتنا لافتة كتب عليها الحروف الكبيرة (ممنوع الدخول لغير البحارة)، ولما اخترقناه استدار إلينا البحار بسحنته الذابلة وطلب منا أن نسير على رؤوس أصابعنا، ثم رفع سبابته إلى فمه قائلا في همس : (هشش)...

وما كدنا ندخل الغرفة ونلقي عليها نظرة حتى أهاب بنا البحار أن نشق الأرض أو نتخذ سلما في السماء لأن المفتش على الأبواب، فاختفينا بإرشاد منه لنظهر على سطح السفينة، لا أدري كيف.

ولما تقدم الليل استقر الرأي على أن نغامر مرة أخرى ونعود إلى الغرفة لننام، وعرفنا عند عودتنا إليها اننا لسنا وحدنا، فقد كانت في الغرفة أمتعة أخرى، ولكننا صعدنا إلى سريرينا غير آبهين، فإن هذه الأمتعة ليست أمتعة المفتش على كل حال... ولم تنته المفاجآت عند هذا الحد، ففي الوقت الذي بدأ النوم يداعب أجفاننا انطلق صوت الحاكي فجأة، فلما نهضنا لنرى ماذا حدث، رأينا فتاة فرنسية في لبسة المتفضل ترقص وحدها في الغرفة، فكانت دهشتنا بالغة، ولكن النوم عاد يداعب أجفاننا فاستسلمنا له على نغمات الحاكي ورقصات الفتاة.

ثم من مرسيليا إلى الاسكندرية، ومن الاسكندرية إلى القاهرة، وبوصولي إلى محطة القاهرة، وصلت إلى أولى محطات شِبابي بعد أن غادرت آخر محطات الطفولة، فلنرجع إلى الوراء لنرى ماذا صنع الطفل الذي رفع رأسه عن صدر جثة أخته في ذلك اليوم المشؤوم، ليستأنف السير وحيدا في الحياة.

24

ربتت الحياة على كتفي، فنهضت عن جثة أختي وقد تحولت إلى شخص آخر، وإذا كان موت كل من مسز باترنوس ووالدتي قد أثار الرعب في طفولتي المبكرة، فإن موت أختي حرك عقلي بعنف، وأشاع في حياتي نوعا من الاضطراب مصدره شعور مبهم بالضلال أمام هذه الألغاز الدنيوية التي أخذت تبرز لي من هنا وهناك، كأنها رؤوس الشياطين.

كان المنزل الذي نقيم به يتكون من جناحين تفصل بينهما حديقة كبيرة بها أشجار للموز والليمون والبرتقال، وتتوسطها نافورة، أما أحد الجناحين فكان ذا طابقين، يشرف الطابق الأعلى منه على الجبل والسهول المترامية على جانبيه حتى تختفي خلف الأفق البعيد، وكنا نقيم نحن في هذا الطابق، وكان عمي وأفراد أسرته يقيمون في الطابق الأسفل، وأما ثاني الجناحين فذو طابق واحد، ولم يكن يقيم به أحد لأن اعداده لم يكن قد تم بعد، فليست له أبواب ولا نوافذ ولا تقع العين فيه من الأثاث الا على حشية هنا أو بساط هناك، ولذلك كان لنا نحن الأطفال بمثابة ملعب، وكانت العائلاتان تقضيان به بعض الأوقات أثناء الصيف، لأنه كان أقل حرارة من الجناح الآخر، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى خلوه من الأبواب والنوافذ والأثاث.

ومهما يكن من شيء فهذا هو المنزل الذي أشرت إلى أننا كنا نقيم به على اثر عودتنا من انجلترا وقد حل من نفسي مكانا رفيعا ووجدت كثيرا من العزاء في اتساعه ورحابته وحديقته وهوائه الطلق، أضف إلى ذلك أن أختي قضت نحبها في ركن من جناحه الخالي.

ولقد وجد خيال أثاره الموت مجالا خصبا في ذلك المنزل الذي ابتناه

عمي ليكون قصرا يقيم به في أيام الرخاء الذاهبة، ولا تزال عدة من الذكريات تطالعني من كل ركن من أركانه ومن كل شجرة وكل منعطف، ومازلت أرى نفسي أنصرف فجأة عن اللعب مع لداتي لانزوي في ركن بعيد من أركانه ولأتأمل في ذهول الأرض العارية انه الموت، لقد انتشلني من اللعب انتشالا وقادني إلى المكان الذي توفيت فيه أختي الذاهبة ترى أين هي ؟ ولماذا ماتت ؟ وكيف السبيل إلى استرحام قسوة الموت ؟

بدأت مثل هذه الأسئلة تتلمس طريقها إلى ذهني، فكنت أستلقي على الحشائش تحت شجرة الليمون الفرعاء، وأستسلم لمئات من مثلها لتزيدني ضلالا، هل يفهم ذلك الطائر المرح الذي يختبئ لاهيا بين الأغصان انه سوف يموت في يوم من الأيام ؟ وهل تدرك الكائنات المصير المظلم الذي ينتظرها ؟ يوم تدك الأرض دكا لتخلو من كائناتها، وتختفي منها المنازل والحدائق والأسواق والطرقات، ثم يتقدم عليها الزمن فتتداعى وتصبح أكواما... والسماء ؟ هل تحتفظ بزرقتها يومذاك ؟ والشمس ؟ هل تسقط وتتداعى وتصبح هي أيضا أكواما كالمنازل ؟

وإذا انتقلنا من تحت شجرة الليمون وصعدنا إلى الطابق الثاني، رأيتني أقف أمام الجبل أحاوره، «أيها الجبل العتيد القابع صيفا وشتاء أمام غرفتنا دون أن يتغير له شكل أو تدب فيه حركة، هل لك نهاية أنت أيضا ؟ أو أنت نفسك نهاية انتفخت وتجردت بعد أن كنت في يوم من الأيام منازل وحدائق وطرقات، وان من الغريب أن يوجد جامد لا يتحرك ولا يتغير في عالم الصيرورة، انني لأقضي الساعات أترقب أن أرى سيارة بعيدة تزحف كالحشرة في سفحك لترتاح لحركتها البطيئة عينان ملتا سكونك.

وما يزال القمر كما كان منذ وفاة والدتي، انه اطار لصور الموتى، لكم كنت أتسلل إلى الحديقة ليلا لأضطجع تحت شجرة الليمون وأتعزى بالنظر إلى ثلاثة من وجوه الموتى أعرفهم، مسز باترنوس ووالدتي وأختي،

نعم ما أفضع أن يكون لك معارف من الموتى، ولو كانوا من الأحباب لقد أصبحت أخشى أشباحهم بقدرما أقدس ذكراهم. وهنا يبرز لي سؤال رهيب هو : أليست أختك عزيزة عليك ؟ اما كنت على استعداد لأن تضحي بكل نفيس وغال في سبيل الابقاء على حياتها ؟ حسن. ما رأيك في أن يطلع عليك الآن شبح أختك فيجلس إلى جانبك ويلمسك ويتحدث إليك ؟

لم يكد هذا السؤال المروع يخطر لي على بال حتى انطلقت عدوا إلى داخل المنزل وأنا ألهث، انه سؤال محير حقيقة، إذ كيف أحب أختي وأخاف منها في نفس الوقت، ماذا أقول لذكراها وأنا أهرب من شبحها ؟ ثم أفضى بي السؤال إلى سؤال آخر، فطار صوابي وأنا أتخيل صورتي ترتفع إلى إطار القمر أنا أيضا ثم أصبح شبحا، فهل أهرب من نفسي ؟ كيف أهرب من نفسي ؟ ستظل عالقة بي مهما حاولت التخلص منها. ياللرعب،

وهكذا كانت الأسئلة تتداعى ويجر بعضها بعضا. ولكنها لم تكن مجرد أسئلة خيالية، بل ان الحوادث كانت تغذيها وتثيرها، وكانت كثيرة لا مجال لذكرها جميعا، ويكفي أن نذكر مثلين منها :

كنت ألعب في الشارع بعيدا عن هذه الأفكار، ثم رجعت إلى المنزل راضيا عن نفسي وعن الحياة، ولكنني لم أكد أقتحم الغرفة حتى رأيت والدتي ملقاة على الأرض في نفس المكان الذي توفيت فيه أختي، فانطلق الماضي من عقاله بكل تفاصيله أمام مخيلتي واندفعت إليها مذهولا فإذا بها جثة لا حراك بها، وهنا علا صوتي بالصراخ إلى أن اجتمع حولنا كل أفراد المنزل، ثم تبين أنه أغمى عليها.

ومر الحادث بسلام بالنسبة لها، ولكنه لم يمر بسلام بالنسبة لي، فقد حار عقلي كيف أغمى عليها في نفس ذلك المكان، وكيف كتب علي

أن أدخل عليها نفس الدخول الذي دخلته على جثة أختي، فهل كانت ميتة فعلا ثم كبر على سلطان الموت أن يصيبني بمصيبتين من نوع واحد فأطلق سراحها وبدأت الأسئلة من جديد...

أما الحادث الثاني فقد حصل في أمسية من الأمسيات التي تمر بفاس مرا ثقيلا قاتلا، يتلبد خلالها الجو حتى انه ليخيل إليك انه استحال إلى أيد خانقة تحاول أن تزهق الأنفس، ولما عدت إلى المنزل كان أفراد الأسرتين في الجناح الخالي من النوافذ والأبواب كما لا أحتاج أن أقول. وكنت ضائقا متبرما، فطاب لي أن أخلو إلى نفسي، ذلك أن التفكير في الموت حول نزعتي للوحدة والتأمل إلى نوع من الادمان فانطلقت إلى الجناح الآخر دون أن يشعر بي أحد، وصعدت إلى الدور الثاني وجلست في مواجهة الجبل الذي بدا شبحه مثقلا بالأحزان والهموم تحت وطأة الجو الثقيلة، وانصرفت عن العالم الخارجي إلى عالم النفس أتلمس الطريق إلى أغواره السحيقة :

تستمر إلى متى هذه المأساة ؟ ان الخوالج تطاردني من كل مكان، انني لا أكاد أنساها حتى تزج بي الحوادث إليها زجا، ولا تزداد حياتي في المدرسة الا اخفاقا، بحيث لم أعد أفقه من ثرثرة المدرسين حرفا واحدا، وقد اخفقت في الاعتماد على أية مساعدة يقدمها إلى من يحيطون بي، وهكذا أصبحت أعيش في وحدة يكتنفها الفراغ من كل أقطارها.

وفي لمح البصر طارت هذه الخلجات جميعا، كما لو كانت طيورا روعها انفجار، بل ان انفجارا أطارها بالفعل، ذلك أنني نظرت إلى الجبل ــ تلك الهضبة الهامدة التي كان يعييني أن أرى سيارة تتحرك فيها ــ فإذا بها قد نفضت عن نفسها الهمود والحزن وأخذت ترقص... وأي رقص !

كان الجبل يرقص تحت سياط من نار كأن عملاقا غير مرئي ضاق بسكونه ذرعا، فأخذ يمطره بوابل من الصواعق، وكان يتبع كل سوط من

صواعقه ــ وهو يلهب ظهر الجبل ــ بهزيم من الضحك المستهتر المخيف، حتى إذا ما اتبع السوط بالسوط وتراقص الجبل، خيل إليك أن العملاق شعر بالانتصار فازداد هزيم ضحكه استهتارا.

جمدت في مكاني وأنا أنظر بعينين زائغتين إلى المعركة المخيفة التي نشبت بين السماء والأرض، الأولى تهاجم والثانية تصمد، ثم يتطاير الشرر من كل مكان حتى إذا ما مر وقت ليس بالقصير على هذا العنف تحول إلى أمطار غزيرة أعادت إلى الليل سكونه، وأفرجت عن العالم ما نزل به من ضيق.

ما مصدر هذه القوة الغامضة التي تظهر فجأة وتتصارع ثم تختفي ؟ أين تذهب ؟ أين يكون مقر المطر والبرق والرعد والصواعق في وقت الصحو ؟ ما من شك في أن هناك مكانا مجهولا يطلق علينا من آن لآخر هذه القوى الغريبة ثم يسترجعها، فهل هو نفس المكان الذي يقيم به الموتى ؟ أسئلة مثل الأسئلة السابقة، ما لها من مجيب.

استمر هذا النضال ما ينيف على نحو السنتين، وكنت كلما أشرفت على التخلص منه حدث ما يعيدني إليه، فاكتسبت منه مظهر الشرود الذي لازمني بعد ذلك لمدة سنتين حتى كدت أيأس من التخلص منه.

«فيا أيها الشبح الذي أناخ بكلكله على صدري في أيام الطفولة الغابرة، أيها الشبح الذي هاجمني دون هوادة، وأهاج مشاعري وكاد يتلف كياني، أيها الشبح، لشد ما استغرب الآن كيف كان لك ذلك التأثير على صباي، وايم الله لو استيقظت اليوم ووجدتك مضطجعا إلى جانبي لما زدت على أن أوليك ظهري، وأستأنف النوم كأنك غير موجود.

لقد تلاشى الاعصار الذي أثاره الشبح، وحل محله الهدوء الرحيم الذي مكنني من أن أستأنف السير فيه نحو المجهول بجنان ثابت لا يعتوره الشك، اننا جميعا نسير في دائرة الحياة لنعود من جديد إلى نقطة الانطلاق...

25

لم يكن هذا العناء المعنوي كل ما قاسيته في ذلك الزمان، بل تضافر وتعاون معه عناء آخر هو العناء المادي، ذلك أن جسمي كان سريع العطب، لا أكاد أنهض من مرض حتى أسقط في مرض آخر، بل كان لكل مرض أوان من السنة لا يخطئ أبدا، كلا من المرض المعنوي والمرض المادي يستمد القوة من صاحبه، ولا حاجة إلى القول بأن ذلك كان على حسابي أنا.

وإذا كان من الصعب أن أقتنص كل الخلجات السوداء التي استعمرت خيالي، فان من الصعب أيضا أن ألم بأسباب المرض المادي ومظاهره وكل ما أصابني به، فما زلت إلى الآن من أجهل الناس بأسباب المرض وأسباب العلاج، ولعل ذلك يرجع إلى أنني لم أعالج الا قليلا من أي مرض أصابني في تلك الأيام، وكل ما أذكره أنني كنت أحيانا أختلف إلى مستشفى عمومي متواضع يقع في الحي الذي كنا نقيم به ليدفع إلي أحد الصيادلة علبة مرهم أصفر تقليدي، أو زجاجة كبيرة في قعرها سائل أحمر، ولعلهما كانا كل ما في المستشفى من دواء.

ولكن مرضين ماديين كانا أبرز ما أذكره مما أصابني : الإغماء، والحمى.

كنت أشعر فجأة بدوار، وكان هذا الدوار يشتد فتبهت المرئيات ثم تتراقص ثم تفقد أشكالها وتتلاشى، فأشعر بأنني أسبح في سحابة تزداد كثافة، كلما توغلت فيها إلى أن ينمحي كل شيء، وكنت شديد الحساسية بمبادرات الاغماء، فأتمكن من أن أتوارى إلى أن يزول، وبذلك أستطيع أن أكتم أمره، ولكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلا ذات صباح، فقد

شعرت بهذه المبادرات وأنا في المدرسة، فطلبت من المدرس أن يسمح لي بالعودة إلى المنزل، ولعله لاحظ الصدق في سحنة وجهي فسمح لي بالعودة، ولما وصلت إلى باب المدرسة شعرت بقواي تتلاشى فجلست على عتبتها محاولا أن أسترد رشدي، ثم نهضت لأستأنف السير قبل اشتداد الأزمة، ولكن هذا النهوض كان آخر عهدي بالمدركات.

فتحت عيني فإذا بي ملقى على السرير وحولي بعض أفراد العائلة، وكانت وجوههم مبهمة لم أتبين أصحابها الا بصعوبة، وبدا لي سقف الغرفة بعيدا كأنه السماء، وكانت حيطانها عالية كأنها الأبراج، وكنت أسمع من حولي وهم يتحدثون بأصوات واهنة كما لو كانت تأتي إلي من أعماق بئر.

ولم أعرف كيف أفسر ما أصابني بعد أن أفقت. وعجزت عن الرد على كل سؤال وجه إلي، ولكنني عرفت أن أحد أصدقاء والدي عثر على ملقى على الأرض بالقرب من المنزل، وهالني هذا، ذلك أن آخر شعوري بالوجود كان عند باب المدرسة، فكيف قطعت هذه المسافة الطويلة وأنا فاقد الوعي دون أن أخطى الطريق إلى أن خارت قواي ؟

انه اللاشعور، تلك الحاسة الغامضة التي تأخذ بيد بعض من يفقدون الوعي وتقودهم في رحمة كما يقود البصير الأعمى.

أما المرض الذي لم يكن من المستطاع كتمانه اطلاقا فهو مرض الحمى، الداء الوبيل الذي أشعرني لأول مرة ـــ بسبب ثقل وطأته ـــ بالملل من الحياة، وكان يطول ويشتد حتى يحسبني الناس من الهالكين، وأحسب أن ما أصابني منها كان أنواعا، نظرا لاختلاف أعراضها، وكان ممايزيدني ضيقا ـــ بالاضافة إلى المرض ـــ شعوري بالوحدة.. وان حبل التفاهم بيني وبين الناس قد انقطع، اذ كانوا يبدون لي بلهاء سذجا وأنا أشرح لهم ما أعاني، محاولا أن أنقل شعوري إليهم فكان هذا يهز رأسه

تحسرا وذاك يوصيني بالصبر، يضاف إلى ذلك أن حالة العائلة المادية لم تكن تسمح بأن أستعين بالطب على مقاومة الداء، فكان علي أن أقاومه ببقية ما في من صحة، واني لأحمد الله اليوم على ذلك، إذ يرجع إليه السبب في تقوية مقاومتي الذاتية وقطع الصلة بيني وبين هذا العلم والسادة الذين يحملونه.

على أن شعوري بالوحدة كان يدفعني إلى التمرد على المرض حينما أحس بأن من حولي جميعا عاجزون عن أن يقدموا إلي أية مساعدة مجدية، فإذا أصابتني رعشة من البرد أخذوا يثقلونني بالأغطية ويدثرونني كأنما يوحي إلي... فتزداد القشعريرة شدة ويزداد شعوري بعجز من حولي، ثم تخطر لي فكرة وهي أن أعتمد على نفسي فأستجمع قواي وأنسل من بين الأغطية وأنهض — والناس من حولي يتصايحون فلا أحفل بهم — ثم أسعى بخطى متعثرة وأنا أكاد أتداعى من الضعف والمرض، وأسعى إلى... الشمس.

كان شعوري بدفء الشمس شعور الشيخ الهرم : «ما أوسع رحمتك أيتها الشمس الدافئة، لشد ما أتمنى لو أن لي جناحين أطير بهما إليك مقتربا مقتربا حتى يزداد شعوري بدفئك وحرارتك، أو ليتك تنزلين إلي وتضمينني بذراعيك الناريتين إلى صدرك الملتهب، لماذا لا يعني الناس بأمورهم فيتركوني أتصرف وحدي، انهم يعرفون كيف يتحسرون وكيف يوصون، ولكن ليس فيهم امرؤ يستطيع أن يقدم إليك معونة، ان شعور المرء بالوحدة يزداد كلما كثر الناس حوله، ومع ذلك يزعمون أنهم العقلاء وغيرهم المجانين، ويشفقون عليه من الشمس وليس لك دواء غيرها، آه ما أرحم دفاك أيتها الشمس الحبيبة».

ولكن هذا لا يطول، ذلك أنني لا أكاد أستمتع بالدفء حتى أشعر بجبيني يتفصد عرقا، ثم أشعر بالدفء يتضاعف. ثم يخيل إلي أنني

أصعد فعلا إلى الشمس أو أنها تنزل إلي، وأن وجهي ملتصق بصدرها النيراني، فأنهض لأرجع إلى الغرفة وأنا أكتم ما بي. فيزداد شعوري بالنقمة على الناس وعلى نفسي، اننا جميعا أصفار، لا فائدة منا ولا خير فينا، فلا تحسرهم ولا وصاياهم ولا اجتهادي يجدي في شيء.

وأرتمي على السرير محموما لتحيط بي تلك الوجوه المبهمة الغريبة التي لا تألو تحسرا وتوصية، وتبدأ مرحلة الهذيان، وهنا يتضافر المرض المعنوي مع المرض المادي، فتفتح القبور وينهض الموتى وتظهر الأشباح وتسير قافلة الهياكل، وتطير أسراب الجماجم، ويختلط الحابل بالنابل. كل ذلك وأنا أهذي هذيانا يثير حولي الجزع والنحيب.

ولكنني مع مرور الأيام وإلحاح المرض تعودت الصمود في وجهه، وشعرت بأن الاستسلام له يزيده قوة، فبدأت أتعود على أن أسير على قدمي وأنا مريض، فإذا صرعني المرض نهضت في أول فرصة مواتية دون أن أنتظر الشفاء، فإنه يجب على المرء أن يسعى إلى الشفاء، لا ان ينتظر حتى يسعى الشفاء إليه، لأن للشفاء خطوات بطيئة.

على أنه بالرغم من هذا العناء المزدوج كله، فإنني لم أشعر في يوم من الأيام بأنني قريب من الموت، ويحار عقلي في تفسير ذلك، لأن الموت كان يسكن خيالي... ولو خطر قربه ببالي لما كان من المستبعد أن يستريح العالم مني وأن أستريح منه، لأن الشعور بقرب الموت مع اليأس من الحياة هو الخطوة الأولى نحو الدار الآخرة.

ولا يكاد عودي يشتد وقدرتي الذاتية تنمو حتى تظهر في حياتي تلك التي حولت سيري من الطريق المضطرب الذي أوشكت أن أوغل فيه، إلى الطريق اللحب المعبد الواضح الذي لا أزال أسير فيه، وأنا أكتب هذه السطور.

26

لم يكن ولوعا ولا غراما، وإنما كان فوق ذلك كله، كان سيلا جارفا كنس أمامي المرض والخور وحول طريقي في الحياة، ذلك أن كل ما كان يراد مني هو أن أنال الشهادة الابتدائية وألتحق بإحدى الوظائف الصغيرة لأدلي بدلوي في مساعدة العائلة المتعبة، ولم أكن أحفظ من القرآن شيئا ذا بال، ولم أكن أفقه من الحروف العربية ما يمكنني من أن أخلطها وأعيد رصفها على طريقة أخرى... كنت أتقن كتابة القليل مما أحفظه من القرآن بالتقليد، وإذا تغيبت عن الكتاب لأسباب مرضية نسيت كل شيء في لمح البصر، وقد انزعج أبي انزعاجا كبيرا فحاولت أن أراضيه ولكن دون جدوى.

وفي إجازة الصيف حدث اللقاء لأول مرة، وكان السبب في ذلك أن أبي وعمي قررا أن يحولا غرفة منعزلة عند مدخل باب المنزل إلى كتاب يتلقى فيه أطفال العائلة ــ وعددهم حوالي سبعة ــ ما تيسر من القرآن، وكان (الفقيه) الذي وقع عليه الاختيار شابا جبليا صعب المرأس شديد القوة بالرغم من ضموره، وما كاد بصري يقع على الرجل حتى شعرت بأنه شخصية مهمة، فقد استقدم معه منذ اليوم الأول حزمة من عيدان السفرجل مختلفة الأحجام، وأخذ يشرح لنا معنى هذا الاختلاف، فإنه سوف يستعملها بحسب الجرم وسن من اقترفه، ولما كنا جميعا من الأطفال المائعين فقد دخلنا المنزل في وقت الغداء باكين معولين، وما هي الا فترة قصيرة حتى صدرت الأوامر المشددة إلى صاحبنا بعدم جواز استعمال هذه العيدان.

وضاق صدره ذرعا فقد كان في حاجة إلى صرف قواه الجثمانية في

رياضة الضرب، فأرسل إلى البادية يطلب أخاه الصغير الذي وصل بعد نحو أسبوعين، كانت قوى الرجل قد كبتت خلالهما كبتا، وذات عشية ظهر صبي عند باب الحجرة، وكان محمر الوجه بادي العافية، وقد انتظرنا أن يستقبل الرجل أخاه بالبشاشة ولكنه استقبله بشيء آخر صدمنا جميعا، ذلك أنه انقض عليه كالصاعقة ورفعه بين يديه بأعلى ما يستطيع، ثم قذف به حيثما اتفق، ثم انقض عليه مرة أخرى وأعاد نفس العملية عدة مرات، وكنا نحسب أن الصبي أتى أمرا مجهولا لا نعرفه يستحق عليه هذا العقاب، ولكن الرجل التفت إلينا صائحا : هكذا يبدأ التعليم يا (بناتي...) لأصنعن لكم منه مثالا يحتذى.

كنت أنا أكبر الأطفال جميعا، وبذلك حظيت منه ببعض الاحترام، ولما توسع في قضية الضرب وأخذ يتجرأ على الفتك بنا قليلا، قليلا، قام بيني وبينه اتفاق صامت على أن استثني من عسفه، ومرت على ذلك أسابيع.

وذات صباح أقبلنا جميعا على هيئة قافلة في الساعة الحادية عشرة أو تزيد، لأننا سهرنا في حفلة أقيمت بالمنزل. فإذا به قابع كالنسر المعروف وهو ينتظرنا بفارغ الصبر، ويزجي غضبه بتلاوة آيات القرآن بصوت أجش، وما كادت طليعة القافلة تظهر عند الباب حتى قطع التلاوة، وبرقت عيناه، وابتعد أخوه إلى الوراء قليلا وهو يبكي، ثم فجأة علت محياه ابتسامة ساخرة وأخذ يقول : «أهلا بكم ياسادة، اقبلوا، اقبلوا، فان شوقي إليكم عظيم يا أبناء المدينة الناعمة المترفة، أو تستعذبون النوم إلى منتصف النهار، وتتركون ابن البادية في انتظاركم ؟ هلموا.

ثم قفز قفزة إلى الباب فأحكم اغلاقه، وقفزة أخرى إلى حزمة عيدان السفرجل، وأمر في غضب ماحق بأن ترفع أرجلنا، ولم يخامرني أي شك في أنني سوف استثني ولكن الشدة التي كان يضرب بها أثارت شكوكي،

وتذكرت اليوم الذي هربت فيه من كتاب المدرسة حينما كاد يفتك بي فقيهه، وأخذت عملية الضرب مجراها إلى أن بقيت وحدي، وكان يضرب آخر لداتي ـــ ومن بينهم أخوه الصبي... ـــ وكانت شدته تزداد فماذا أصنع والباب مقفل ؟ هل أقاومه ؟ هيهات ؟ وفجأة وقع نظري على نافذة تفضي إلى السلم والباب، وفي لمح البصر كنت قد فتحتها وقذفت بنفسي منها، ولم ألتفت لما أصابني وإنما دخلت المنزل عدوا ثم غادرته دون أن يشعر بي أحد، انطلقت إلى أحواز المدينة حيث قضيت بقية النهار، وهناك التقينا، وكان اللقاء بيننا حارا على نحو ما سوف أتحدث عنه في فصل قادم. ومنذ تلك اللحظة أصررت على أن يتم هذا اللقاء بيننا كل يوم مهما كانت التكاليف ومهما كانت الأخطار التي يمكن أن أتعرض لها.

وقد أصبحت العلاقة التي تربط بيننا من القوة بحيث دفعتني إلى المضي في تحدي الرجل، خصوصا بعد أن حملت أبي على تكرار التوصية بوجوب عدم استعمال عيدان السفرجل، وأخذت هيبته بين لداتي تضعف، لأنه أصبح من الواضح أنني أتغلب عليه، فلما تيقنت أنه لن يجرؤ على مخالفة أمر والدي أخذت تصرفاتي معه تتسم بطابع العنف.

وأخيرا تم بيننا الاتفاق ـــ وكنت قد انقلبت إلى شخص آخر بعد معرفتي لها ـــ ويتلخص في أن أكف عن مشاكسته في مقابل أن يعفيني من كل قيد. وأخطر بنود هذا الاتفاق هو الذي تمتعت بمقتضاه بحق التغيب لمقابلتها في أي وقت أشاء دون أن يبلغ والدي ذلك.

وهكذا عادت الأمور بيني وبينه إلى مجاريها، وأصبح صديقا أكثر من فقيه كتاب، فكنا نتبسط في الحديث، وكان من آن لآخر يرجوني أن أحفظ بعض الآيات حتى لا يتحرج موقفه أمام والدي، فكنت أحيانا ألبي رغبته وأحيانا أهملها بحسب المقابلات التي كانت تتم بيني وبينها...

وبالرغم من أن صوته كان حادا بصفة مضحكة، وبالرغم من أن

تصرفاته كانت تدعو إلى السخرية ــ ومنها انه كان لا يرى في الشارع الا وهو يحمل في يده ساعة منبهة، ليعرف منها الوقت ــ فقد كانت له نفسية كبيرة، تجلت في احترامه لما تم بيننا من اتفاق احتراما دقيقا بالرغم من أنه كان يستشيط غضبا، وقد استطاع أن ينقش آيات القرآن كرها في صدر أخيه الصبي أثناء مدة لا تتجاوز سنة لم أحفظ فيها أنا الا سورة أو بعض سورة، وبذلك بر بوعده في أن يضرب لنا منه مثلا، وان كان عود السفرجل قد أكل رونقه أكلا...

ثم كان إلى جانب ذلك عفيفا طاهر النفس بشكل لا يخفى على فتى، ولا أذكر أنه طمع في شيء أبدا، كما كان شديد الوطأة على نفسه في القيام بواجباته الدينية ونافلاته، ولكنه كان أقرب إلى النفس حينما ينتهي من عنت النهار ويتبسط في الحديث، فانك تشعر بعدم وجود أية علاقة بينه وبين ذلك الفارس المغوار الذي كان يصول ويجول بمهند عود السفرجل...

وقد غادرت كتابه سريعا، ولكنه لم ينسني أبدا وما تزال تلحقني أخباره إلى اليوم، وإذا كان يعرف عني الكثير فهو لا يعرف أنه كان السبب في اتمام اللقاء بيني وبينها صباح ذلك اليوم الذي كاد يفتك بي فيه، وإذا لم ينجح في أن ينقش في صدري أكثر من سورة من القرآن فقد نجح كل النجاح في تحويل طريقي وذلك بتنفيذه للاتفاق... وحسبه فخرا أنه أنقذ حياتي، أنقذها على الأقل من أن أصبح موظفا صغيرا في حجرة مغمورة يعيش بين الأضابير القديمة لتثقل كاهله السنون وهو في أوج الشباب.

27

كان لقاؤنا الأول مصادفة على غير ميعاد عند إحدى ضواحي المدينة كما قلت، فتوثقت بيننا أواصر صداقة ما زالت تتطور مع مرور الأيام إلى أن أصبحت هياما جارفا، ولم أعد أفكر في شيء سواها ليلا ونهارا. فقد استبد شخصها وخيالها ـ بيقظتي ونومي، كانت رشيقة خفيفة تسبي بفتنتها الناظرين، ولا تكاد عيني تقع عليها حتى أعدو إليها ودمائي تصرخ في عروقي شوقا إلى لقياها، فأصبحنا نتقابل كل يوم دون أن نروي الغليل بالرغم من مرور شهور على ذلك، وكنت أستغرب كيف استطعت أن أعيش دونها من قبل، وكان قلبي يغص كلما تخيلت أن من الممكن أن نفترق إلى الأبد في يوم من الأيام ولو كان بعيدا، فباتت محورا لجميع خلجاتي وتصرفاتي، وكنت أطيل مكثي معها ما استطعت إلى ذلك سبيلا بالرغم من أنني كنت ما أزال طفلا يحظر عليه أن يتغيب طويلا من المنزل في غير أوقات المدرسة، وكان هذا المكث الطويل معها يخلق لي المشاكل ويضع في سبيلي العراقيل، ولكنني كنت أتحمل كل ذلك راضيا مرضيا، وان كل المشاكل لتهون أمام الأطايب واللذات التي كنت أجنيها في نهم من شجرة حبيبتي...

ولقد أبقيت هذه العلاقة التي بيننا سرا من الأسرار لا أبوح به لأحد، ولكن عيون الرقباء والعذال بدأت تلحظ هذا التغير الملموس الذي طرأ على حياتي، فبعد أن كنت طفلا سقيما أصبحت طفلا معافي يتدفق حيوية ونشاطا، كانت كالشمس تبدد من حولي في نورها كل ما كان يحيط بي من وهم ومرض، وأخذت عيون الرقباء والعذال تقتفي خطاي إلى أن افتضح السر، ومنذ ذلك الحين بذلت المحاولات الشاقة للحيلولة دون

أن نلتقي، ولكن شدة هيامي بحبيبتي دفعني إلى أن أتحدى الجميع، وعلى رأسهم والدي.

نصحني كثيرا بالابتعاد عنها مؤكدا لي أن هذا اللقاء الذي يتم بيننا مفسدة لأخلاقي وقد أصبح من الساقطين، وأمعن في النصيحة، ولكن ذلك لم يجد فتيلا، ومر ذات عشية بالضاحية التي كنا نلتقي عندها فأبصرنا وغضب غضبا شديدا، وإذا لم يكن قد عبر لي عن هذا الغضب فإنه أغلظ ـــ لوالدتي ـــ القول وبالغ في التهديد، بيد أنني كنت أرى أن ما يتم بيننا لقاء من صميم شؤوني الخاصة التي لا تهم أحدا سواي ولو كان هذا «الأحد» والدي نفسه.

ولما يئس الجميع من القدرة على التفريق بيننا أخذوا يرجعون كل غلطة ارتكبها إلى هذه العلاقة مثل تدهوري في المدرسة، ولكن كان من المضحك أن تكون سببا في اغلاط أخرى مثل تحطيم الأواني وتكسير الأطباق...

ولقد أصبح من المستحيل بعد تعارفنا ان أكون دقيقا في مواعيدي مهما تكن الفوائد التي يمكن أن أجنيها من وراء هذه المواعيد، وان من أماني كل طفل أن يرتدي بزة جديدة في أيام العيد، وقد طلبني والدي ذات مساء وأبلغني أنه بمناسبة إجازة العيد سوف يزورنا أحد اليهود ظهرا ليصنع بزات جديدة لنا معشر أطفال المنزل، ولذلك يجب أن أكون حاضرا حتى تجيء متقنة المقاس، بيد أنني لم أسمع مما كان يقول شيئا، فقد كنت مشغول البال بحبيبتي التي وعدتها بأن أقابلها مقابلة طويلة في يوم الاجازة، أفتدرون متى رجعت إلى المنزل في مساء ذلك اليوم ؟ حوالي الساعة السابعة. وقد أخبرت بهياج والدي، ولكنني لم أهتم للأمر ولما حل العيد لبس لداتي من الأطفال بزة ملائمة لمقاسات أجسامهم، أما أنا فلبستها ملائمة لخيال اليهودي الذي وصفوني له، فجاءت طويلة حيث

كان يجب أن تقصر، وقصيرة حيث كان يجب أن تطول، ولم أتأثر لذلك أبدا بالرغم من أن منظري فيها كان يبعث على الضحك، فقد كنت مشغول البال بغرامي وهيامي عن مثل هذه الأمور التافهة.

ثم خرج هذا السر الرهيب عن دائرة العائلة المحدودة إلى دائرة الحي الواسعة فلحقني منه شر كثير لم أهتم له، إذ أصبح الناس ينظرون إلي على أنني من كبار الصعاليك وخصوصا وجهاء الحي الذين كانوا يصعرون خدودهم جيبا وينفخون أبدانهم جيدا، ويحلون وجوههم جيدا بالنظرات الشزراء، ويحيطون أنفسهم جيدا بوقار مزيف، ثم يلتفون جيدا في مختلف الأردية قبل أن يخرجوا إلى الشارع... ويحمل الواحد منهم إلى ظهر بغلة مطهمة، ثم تسير به البغلة سير الهويني حتى لا يسقط من فوقها، وحتى يتمكن من أن ينحني لمن يحييه من كبار الراجلين، ويتأنف ممن يقابل من صغارهم...

والحقيقة أن مقابلة حبيبتي جمعت بيني وبين أطفال غرباء من الطبقات الدنيا... ولم يكونوا يعرفون رياء ولا مجاملة، ولكن خشونتهم كانت أحب إلى نفسي من تصرفات أطفال الطبقات الأخرى التي لقنت النفاق والرياء مع الرضاعة، وما زلت إلى الآن أحترم الرجل الذي يعبر عما في صدره بصراحة مهما كان الذي يجيش به صدره خشنا.

كانت ضحكات هؤلاء الأطفال وهم يرتدون الأسمال، وكذلك سبابهم وهم يتشاجرون أعمق غورا وأكثر انسانية وأقرب إلى الحياة من هذه الابتسامات الزائفة التي تحلى دائما وجوه أبناء الأعيان... ولذلك كان الأولون أوفر صحة وأكثر نشاطا من الآخرين، فابن الأعيان لم يقع قط على الأرض، ولم يجرح ولم يرفع صوته الا بالعويل، ولم يأت من الحركات الا ما يستلزمه القيام والقعود والمشي الوئيد... أما ابن الفقير فيتمرغ في التراب، وعلى وجهه وسائر جسمه أكثر من جرح، وهو لا يفتر عن الحركة العنيفة حتى وهو نائم، ولذلك كان أوفر صحة وان كان أقل غذاء.

وسرعان ما انفصمت الصلة بيني وبين من عرفت من الأطفال المفضلين الذين مللت ألعابهم الكسلى وتمتنت العلاقة بهؤلاء الذين يعرفون بصعاليك الحي، ذلك أن الحياة كانت معهم أقرب إلى الحياة، فلو جرد الأولون من مال آبائهم الذي ضمن لهم أسباب الكسل والوقار لسقطوا في أول مرحلة وهم يشقون سبيل الحياة !. وقد تنزل بآبائهم كارثة ما فيكون مصيرهم مصير نساء العائلة وعجائزها.

وكان مما حبب هؤلاء الأطفال إلى نفسي وجعل الحي يكرههم، انهم لم يكونوا يقيمون أي وزن للعظماء الذين كانوا يلتفون في الأردية من الراكبين على البغال... حدث ذات يوم ونحن نلعب ان مر بنا أحدهم، فبعثه تواضعه على أن يقرأنا السلام... فانطلقت في وجهه ضحكات عالية لاشك أنها أزعجته، وبعثه سوء حظه علي أن يقفل إلينا راجعا، ليلقى علينا درسا من دروسه، قال :

ــ ألستم مسلمين ؟

وهنا نهض أكثرنا صعلكة واقترب منه وهو يصطنع الاحترام، وأجابه :

«بلى نحن مسلمون»

ــ الا تعرفون أن رد السلام واجب ؟!

فأجابه الفتى الصعلوك الخبيث وهو يصطنع الجد :

نعم هذا صحيح، ولكن قل لي، هل تعرفنا ؟ هل تعرف أسماءنا ؟

وهنا بدا الاضطراب على الشيخ الوقور، فأردف الفتى : «كيف تسلم على أناس لا تعرفهم ولا يعرفونك ! دعنا وشأننا».

قال ذلك وهو يضحك، فتعالت حول ضحكه الضحكات...

28

لم يكن من الميسور أن يتم اللقاء بيني وبين حبيبتي بثيابي العادية، لأن حبيبتي لا تستقبل الناس الا وهم في زي خاص، لا لأنها ملكة أو أميرة، ولا لأنها فتاة ممتازة الجمال...

بل لم تكن ملكة ولا أميرة ولا فتاة ممتازة الجمال... وإنما كانت... كرة القدم.

نعم كرة القدم... وما أعظم الأثر الذي لا يزال يحدثه في نفسي هذا الاسم، ذلك أنها غيرت مجرى حياتي، ولولاها لما كنت في مكاني هذا أخط هذه السطور.

ولكن دعني أشير إلى الأثر الخطير الذي أحدثته في حياتي، فقد تحسنت أحوالي المادية والمعنوية، وأفرج عن طاقتي المكبوتة بطريقة منظمة أعادت الانسجام إلى حياتي، كما قربتني إلى طبقة من الأطفال حببوا إلي، فقد كانوا ذوي أبدان سليمة، وعقول صافية، ونوايا سليمة، بالرغم من أن مظهرهم الخارجي كان يتسم بطابع حب الاعتداء... فكانوا يسخرون على قارعة الطريق من كل من يقابلهم من أبناء الطبقات الموسرة، لأن هؤلاء الأبناء كانوا يحتقرونهم وكان هذا الاحتقار مدعاة للسخرية وهم يهربون منهم خوفا من أذاهم، كانوا يعتدون عليهم ولكن تحت تأثير الدفاع عن النفس أمام هذا الاحتقار العاجز، على أنه كان من الملاحظ أن هؤلاء الأطفال كانوا أكثر استعدادا للتطور من غيرهم، فإن تصرفاتهم المنفرة تخفي أخلاقا سامية، بالضبط كما تختفي أجسامهم المعافاة خلف اسمالهم الممزقة...

كانت أخلاقهم أخلاق فتيان الكشافة دون أن يلموا بمعنى هذه الأخلاق، جهد جثماني طول النهار، وايمان عميق بما يستطيع أن يقوم به الفرد وحده، كانوا مولعين بالمغامرات الخطيرة، وانْ كان ذلك على طريقتهم الخاصة كما كان لهم ميل شديد إلى مساعدة الآخرين خصوصا حينما يكون الآخرون في ورطة... وكانوا يتحفزون لاغاثة المظلومين ومن يلوذ بهم يضاف إلى ذلك نوع من الشهامة يستحق التنويه.

صحت أجسامهم وصفت عقولهم... ولو بذل جهد صغير لتغيير الأمثلة التي تحوم حولها عقولهم لكان من الممكن أن يصبح بعضهم من أبطال التاريخ... ولأصبحوا جميعا من أقوى العناصر التي تعود على البلاد بالنفع، ذلك أن مجرد غرس الشهامة الشخصية في نفوسهم كفيل بأن يحولهم إلى عناصر مفيدة يعود منها على الوطن خير عميم.

ومهما يكن من شيء فإنه لم يمر علي سوى وقت قصير حتى أبديت تفوقا ملحوظا في لعبة كرة القدم، وهو تفوق لم أبد مثله في أي ميدان آخر، وهكذا أتاحت لي هذه اللعبة المحبوبة أن أستعيد في يسر الثقة التي فقدتها بنفسي.

كان نجاحي باهرا في القيام بدور «قلب الهجوم» ولكن المدير المشرف على فرقتنا ــ وكانت مؤلفة من أشخاص في نفس السن والطول ــ لاحظ أن قدرتي على الصد أروع من قدراتي على توزيع اللعب، ولذلك أمر بنقلي إلى دور «الظهير الأيمن».

وفي دور الظهير الأيمن قمت بالمعجزات ــ بين لداتي طبعا ــ ولذلك كان الفريق المناوئ لنا يحول ضغطه إلى الظهير الأيسر، وكان الظهير الأيسر ــ رحمه الله ــ فتى صعب المراس، قوي الشكيمة، لعينيه شرارات حمراء تتقد في وجهه الأسود.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن لكرة القدم قصة أعجب في حياتي.

كان والدي ــ كما قلت ــ يبذل جهده ليجعل مني موظفا صغيرا تؤهله شهادة ابتدائية للالتحاق بوظيفة تافهة تمكنه من أن يساهم في التخفيف من متاعب العائلة، وكان كل شيء يدل أنني أسير في سبيل تحقيق رغبات والدي سيرا موفقا.

وفجأة ظهرت كرة القدم في حياتي، وسرعان ما بدأت أتمرد على الأوضاع التي أعيش فيها وتعلمت كيف أعصى في سبيل كرة القدم، الأوامر التي تلقى إلي، ثم أصبحت المدرسة حائلا دون تنفيذ هذه النزعات، وهكذا أصبحت مشكلة. ولكنني استطعت أن أتخلص من مشكلة المدرسة أيضا بعد أن ترامى إلي أن هناك «نظاما» جديدا قد وضع منذ حين لكلية القرويين.

وتولى أحد أبناء عمومتي شرح هذا «النظام» فاسترعى نظري أن عنصر «الحضور» ليس بذي بال بالنسبة «للتلاميذ» إذن فلألتحق بهذه المدرسة العجيبة.

على أن هناك أشكالا لابد من أن نقيم له وزنا... فالدروس التي تلقى في هذه المدرسة كانت تلقى باللغة العربية، فكيف أستطيع أن أقنع والدي بجدوى التحاقي بها وهو المؤمن بأنني لا أستطيع أن أرقم اسمي بحروف هذه اللغة ؟...

ولكنني بعد طول تدبر قررت أن أواجه أبي بما أضمر، وأنا صادق حينما أقول ان الضحكات التي أستقبل بها مشروعاتي لم تكن غير متوقعة، بيد أنه لم يكن لها أي تأثير على تصميمي، ولقد قال لي والدي فيما قاله ردا على مشروعي : ان حياتي كلها أسطع برهان على البون الشاسع الذي يفصل بيني وبين كل ما ينتسب إلى هذه اللغة.

فلما حاولت أن أقاوم انهزمت أمام نسخة من كتاب «الشفاء» كان يوجد بالمنزل لوقايته من الحريق... قدمه إلى لأقرأ منه بعض سطور، ثم واصل أبي ضحكاته، ولعله لا يعرف اليوم ان تلك الضحكات هي التي أيقظت في نفسي روح التحدي...

كنت في أول الأمر أحاول بانضمامي إلى كلية القرويين أن أحقق وصالي مع كرة القدم، ولكن سخرية والدي أدخلت تغييرا كبيرا على ما كنت أحاول، ذلك أنني أصدرت إلى نفسي أمرا لا يقبل المراوغة، ويتلخص هذا الأمر في أن أتعلم اللغة العربية في أقرب وقت ممكن ومهما كلف الأمر.

ولقد تحقق ذلك كله دون أن أعرف السبيل الذي سلكته إليه... وفي لمح البصر وجدت نفسي أنصرف عن كرة القدم هي أيضا، إلى كلية القرويين.

29

لندع المدرسة العجيبة جانبا فإن في استطاعتها أن تنتظر قليلا إلى أن نصل إليها مرة أخرى فيما يلي من هذه الفصول.

أدركت منذ اللحظة الأولى التي قابلت فيها جدي أنه شخصية هامة، أي يوم رجعت من انجلترا وأخذ يحاورني ويسخر مني. فقد استرعت أنظاري طريقته في الكلام، وأسلوبه في الضحك والابتسام، والحركات التي كان يأتيها. إذ كان في مجموعه وفي تفصيله مثالا للاستخفاف بكل ما ينوء به كوكبنا الأرضي، ويبدو أن السنين الطويلة التي قضاها في الحياة هتكت له الاستار عن حقيقة الحقائق..

أما جدتي فكانت طيبة القلب إلى حد بعيد، نزحت بها السنون عن خوض ما يخوض فيه النساء من سخافات ومشاجرات ونميمة، ولكنها نصبت من نفسها رائدا لزوجها — ولم يتزوج غيرها — بعد أن أصبحت أختا أكثر منها زوجة، وقد كنت أسمعها في الظلام حينما أقضي الليل معهما، وهي تقوم ما أعوج منه، وتحاسبه على سخريته بالناس طول النهار، فهذه كلمة نابية كان يجب أن لا يقولها، وتلك إشارة جرحت شعور انسان كان يجب أن لا يأتيها، وهكذا كان يروقني أن أسمعها لسبب واحد، هو أنها كانت تذكرني بما قام به في النهار، فقد انهارت عنده جميع الاعتبارات التي يضطرب حولها الناس فيكسبون منها دون شعور النفاق والمجاملات السخيفة، وأصبح حرا من كل قيودها، لا يعبر الا عما يشعر به، وليس الذنب ذنبه إذا كانت صراحته تأتي ممزوجة بالسخرية، فقد كانت تلك الاعتبارات تحول من يراهم من أقزام إلى عمالقة.

كان يحيط به أولاده وأحفاده بعد تناول العشاء ليسمروا من حوله،

فيصغى لكل كلمة تقال، ويتفرس في وجه كل من ينبس ببنت شفة، حتى إذا ما سمع غلطة تدخل في الحديث وصرف الجميع عن الكلام، ثم اتجه بكل جوارحه إلى الذي ارتكب الغلطة ـــ وقد يكون طفلا، ثم لأنه كان يعامل الجميع على قدم المساواة ـــ وأخذ يستجوبه وهو يهتز من آن لآخر كتما للضحك، ثم يغلبه الضحك على أمره فيسترسل فيه استرسالا، وكانت كل عضلة وكل تجعيدة في وجهه تشاركه ما هو فيه من سخرية، كان ضبط غلطة واحدة يكفيه في بعض الليالي، فلا يلبث بعدها أن يستسلم للنوم، ولكنه في بعض الليالي الأخرى كان ينشط لتصعيد الاغلاط إلى أن ينفض من حوله الناس ويبقى وحده، وقد أبقى معه لأنظر إليه من بعيد في إعجاب، فأراه يتأمل الأشياء وهو يفكر، ثم فجأة تنفرج أساريره عن ابتسامة مائلة ثم يهتز وهو يكتم الضحك ويحرك رأسه شمالا ويمينا، كأنه يتحسر على تفاهة البشرية، انه يتذكر الاغلاط.

كان أولاده وأحفاده والناس جميعا مخلوقات تمشي على أربع ولها آذان طويلة، وكان يشعر بأن له من تجارب حياته الطويلة الذاهبة ما يكفي لهدايتهم وانقاذهم مما هم فيه من ضلال، هذا الضلال الذي يصور لهم أن هناك أمورا جديدة قد استحدثت لا يحسن أن يعالجها بأنظاره وأفكاره، لسبب واحد هو مجرد انها لم تكن موجودة في أيامه... مع أن ما وجد في أيامه يكفي لاستغراق كل احتمال في المستقبل تلك الأيام الذهبية الغالية التي انحسرت عن الحياة كما ينحسر البحر الخضم الزاخر ليخلف وراءه زبدا يذهب جفاء...

هذا هو الرجل الذي قضيت معه مدة ليست بقصيرة من طفولتي، وأعجبت به الاعجاب كله، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه كان يسوي بيننا وبين آبائنا في المعاملة كنا جميعا في نظره أطفالا...

وان عقلي ليحار إلي الآن كيف أمكن لشخص واحد أن يسلم من

سخريته، دون أن يكون لهذا الشخص كبير مقام بين الناس، بل انه كان طفلا صغيرا سلم مما لم يسلم منه أرباب الصدارة وعلية القوم، كنت أنا هذا الطفل الصغير.

أدركته وقد وهنت قواه، ولكن عناده كان ما يزال في ميعة الصبا، كان ينهض كل صباح ليدب دبيبا في الطريق إلى الحديقة التي كان يشرف عليها، وكانت تقع على بعد ساعة من زمانه ونصف زمان الناس، حتى إذا ما وصلها أقفل الباب خلفه وقضي بها سحابة يومه، وكانت حديقته تلك، سرا من الأسرار لا يطلع عليه أحد الا إذا برهن على أنه أهل للاطلاع عليه...

كانت جدتي ترسل أحفادها في بعض الأحيان ليتفقدوه خوفا من أن يصاب بمكروه، وخصوصا في الأيام التي تكون صحته فيها متوعكة، ثم كانت توصيهم إذا ما فتح لهم الباب أن يأتوها ببعض ما تساقط من الليمون واللارنج لتنظيف الأواني النحاسية، وكان جدي يعرف أنهم قادمون لأداء هذه المهمة التي لا تساوي عنده جناح بعوضة، ولذلك لم يكن يفتح لهم الباب.

وجاء دوري ذات يوم ولقنت النداء الذي يجب أن أناديه إذا ما وصلت الباب، فلما وصلت ناديت بأعلى ما أستطيع وبصوت رقيق ممطوط :

ـ عمي ى ى ى ى أحماااد !!

ـ يو هو و و و !!

فقد كان يرد كذلك دلالة على أنه يسمع النداء وأنه مقبل لفتح الباب، وما كادت تتزحزح حتى كنت داخل الحديقة خشية أن أمنع من ذلك إذا مكنته من الفرصة، فاهتز بمشروع للضحك انصرف عنه سريعا، ثم سار في المماشي المستقيمة في بطء فسرت وراءه.

كيف يستطيع المرء أن يتصور شخصا فوق السبعين من عمره يقوم

بمثل هذا العمل الرائع وحده، كانت الحديقة مترامية الأطراف ولكنها مع ذلك كانت منسقة تنسيقا يدعو إلى الدهشة، كما لو كان مهندس فنان قد رسمها على لوحة، كانت أشجار الفاكهة منوعة بحيث شملت كل ما ينتجه القطر، وكانت كل شجرة منتقاة تؤتي ثمارها في جودة وسخاء.

وبينما كان الجد الطاعن في السن يعرض على حفيده ما يستطيع أن يقوم به وهو يتنقل معه في أرجاء الحديقة، كان الحفيد يتبعه مبهورا، ولم يكن يقطع صمت الحديقة النائية الا سقوط ثمرة هنا وأخرى هناك على الأرض الخصبة.

قال الشيخ ونحن نجلس لنستريح : «حديقة بديعة، أليس كذلك ؟»

ولما كنت في رأيه بالطبع أسخف من أن ينتظر لي جوابا، فقد أردف سؤاله بتنبيهي إلى أنه يجب أن أسير على أطراف الأحواض إذا كنت أنوي أن أواصل السير.

ثم بدأنا نأخذ طريقنا إلى المنزل بعد ذلك، فحدث في الطريق حادث رهيب، فقد لاحظت أن الشيخ يعاني اعياء مفاجئا، ولما مددت إليه يدي ليعتمد عليها، أبعدها في اباء ثم بدأ يتوقف. ثم سقط إلى الأرض فاقد الوعي، فجريت يمينا ويسارا دون أن أعرف على وجه التدقيق ما يجب أن أفعل، وان كنت عرفت أن مسؤولية التصرف تقع على عاتقي وحدي، وهنا حصلت المعجزة الغريبة، فقد انبعث من العدم في ذات اللحظة نفس الشخص الذي حملني إلى المنزل يوم أغمي علي في الشارع منذ نحو سنة مضت، وبينما كان يقدم إلي مساعدته الثمينة كنت أستغرب لأمر هذا الشخص الذي يظهر أن مهمته في الخياة تنحصر في أن ينبعث من الفراغ كلما أغمى على أحد... ومهما يكن من شيء فقد استطعنا أن نصل إلى المنزل حيث أسعف جدي.

وليست هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي ألقيت فيها تبعة جدي على

عاتقي، فقد ذهبنا بعد ذلك إلى حمامات (سيدي حرازم)، وكنا نقيم في أيام الربيع بضيعة قريبة من الحمامات، وكان علينا أن نشق إليها كل يوم طريق السكة الحديدية المجاورة.

وصحبنا جدي ذات صباح فأقمنا خيمتنا بالقرب من الحمامات لنقضي بها النهار كله، ولما فرشنا البساط عاقه جذر عتيق ضخم، فأمر جدي أحد أعمامي بإزالته، فلما لاحظ عمي أن هذا يكاد يكون مستحيلا، ثم لاحظ أننا جئنا للنزهة لا لقلع الجذور، نحاه جدي عن طريقه ليدب إلى الجذر، ثم أخرج موساه وأخذ يقرضه ساعة من زمان، وهو يحرك رأسه ويهتز من آن لآخر بضحكات السخرية المكتومة إلى أن أزاله. كان جدي دقيقا عنيدا لا يقبل الهوادة.

ولكن ما أريد أن أتحدث عنه في الواقع هو الحادث الذي تم مساء ذلك اليوم نفسه، فقد تأخرنا إلى أن أسدل الظلام أسجافه وأصبح من المستحيل على رجل في مثل سن جدي أن يأمن السير على متن دابة في طريق السكة الحديدية خلال الظلام، دون أن يتعرض للخطر الشديد، فاستوقف أعمامي إحدى السيارات المارة ــ وكانت سيارات الأجرة قد انصرفت كلها ــ وطلبوا من راكبيها أن يتكرموا بايصال الشيخ إلى الضيعة، ولم يكن بالسيارة سوى مقعد واحد خال، فاستقر الرأي على أن يتبوأ جدي المكان الشاغر وأن أندس أنا بين الركب لصغر حجمي، حتى أكون إلى جانبه، ولما استوثق أعمامي من أنني أعرف الطريق انطلقت بنا السيارة.

وعند مفترق الطرق سألني من في السيارة إلى اليمين أو إلى اليسار ؟ فحملقت في الظلام دون أن أتبين شيئا، ونظرت إلى السائق وإلى جدي في حيرة ثم توكلت على الله وقلت (اليسار).

ومرت عشر دقائق، ثم عشرون، وأنا أؤكد اننا في الطريق إلى الضيعة كلما استفسروني مستغربين، ولكن مرت نصف ساعة دون أن تنتهي

الأميال الأربعة التي كان علينا أن نقطعها، ثم توقفت السيارة وتبين الأمر جليا... اذ عرفنا المكان الذي توجد فيه.. وكيف لا وهذه أضواء فاس تتلألأ في الأفق كما لو كانت منزلا به حفلة زفاف براقة...

لم يكن جدي يعرف شيئا مما حصل في أول الأمر. ولكنه عرف الحقيقة أخيرا من الأحاديث المتبادلة، فأخذ يرمقني بنظرات فيها مزيج من الغضب والاستخفاف، ولأول مرة شعرت بأن جدي يتحسر على عجزه الذي لا يمكنه من ازهاق أنفاس الشيطان الرجيم الذي تمثل له في شخصي.

وبينما كنت أفكر كيف يمكن أن نتصرف في فاس والمنزل مقفل، بدأت السيارة تغير اتجاهها ثم عادت تشق في سرعة جنونية الطريق التي أقبلنا منها ولم يأخذ أحد بعد ذلك رأيي.

افترضت والسيارة تنهب الطريق في صمت، أننا سنصل إلى المكان المقصود من الطريق المعبد، ولكن ماذا أفعل حينما يكون علينا أن نغادر السيارة في مكان بعيد عن الضيعة، والطريق إليها وعر ؟

وبعد ساعة بدت على ضوء السيارة عدة أيدي تلوح في الظلام لتستوقفها، كانت أيدي أعمامي... وفي الطريق إلى الضيعة كنت أسمع في الظلام أصواتا عدة : صوت يؤنبني وصوت يتوعدني، وصوت يلومني... فضاق صدري، ولكنني واصلت السير مطرقا في صمت حانق خلف القافلة الوئيدة في طريقها الوعر.

30

«اسبقني إلى المنزل يابني فإن الخادم وحدها قد تخاف. وإذا تأخرنا فتناول عشاءك بعد أن تحكم اغلاق باب المنزل، كن رجلا ولا تلعب كثيرا».

كذلك قالت والدتي وهي تودعني عند باب منزل جدتي حيث قضينا جميعا النهار كله في انتظار مولود جديد لعمي. وما أزال أرى صورة زوجته بقامتها المديدة، وهي تذهب وتجيء في الغرفة وقد استبدت بها آلام الوضع استبدادا لا رحمة فيه، فلما تقدم الليل زادت حالتها خطورة بحيث لم يستطع أفراد العائلة أن يعودوا إلى المنزل، فأرسلتني والدتي لأؤنس وحدة الخادم.

طرقت الباب فأجابني صوت مرتعش : «من»

فأجبت «أنا، افتحي»

وفي لمح البصر سمعت حركة المزلاج، وانفتح الباب، انها فاطمة.

كانت في مثل سني، وان بدا عليها انها اكبر لوفرة صحتها واكتمال جسمها وأنوثتها المبكرة، كانت بيضاء البشرة، واسعة العينين، داكنة الشعر، تتدفق حيوية ونشاطا، فلما فتحت الباب ورأتني وحدي علا وجنتيها احمرار، ولاحظت في عينيها بريقا غريبا لم أدرك له معنى، ولكنني أحسست منذ اللحظة الأولى كما لو كنت أمام بنية متوحشة..

أحكمت اغلاق الباب كما أوصتني والدتي، ثم سرت إلى جانبها في الممر الطويل تحت نور القمر وأنا أقص عليها ما حدث أثناء النهار في

منزل جدتي، وقصصت عليها أيضا الآلام التي عانتها زوجة عمي وما تزال تعانيها.

وقد استغربت لأنه بدا عليها أنها لم تكن تستمع إلى حرف واحد مما أقول، فلما صعدنا السلم القصير المفضى إلى ساحة المنزل دفعتني بغتة دفعة قوية القت بي على الأرض. ثم هربت وهي تضحك ضحكات غريبة، فظللت على الأرض معتمدا على مرفقي وأنا أنظر إليها، بينما كانت تعدو هنا وهناك، كأنها قطة استفزتها لعبة.

ثم صاحت وهي تنحني وتضع راحتيها على ركبتيها : «هلم، هل فقدت رجليك ؟ أراهن أنك لن تستطيع اللحاق بي ؟».

فلما تحركت مرقت كالسهم تحت ظلال الأشجار ثم غابت في الظلام، وساد سكون مطبق، فاقتفيت أثرها بدافع من الخوف دون أن أجري، ولما اخترقت الحديقة وصعدت السلم القصير من الناحية الأخرى رأيت ظلها على يساري وهي معتمدة بمرفقها على باب الدهليز الضخم الذي كان يقع تحت الأرض، وكان يستعمل لغسل الثياب وحفظ الأشياء القديمة، فلما اقتربت منها في ضوء القمر هالني أن أراها تنحدر مع السلم لتختفي في ظلام دامس يحبس الأنفاس، وكدت أهيب بها أن ارجعي، ولكنها كانت قد غابت عني، فشعرت بأعصابي كلها تهتز في عنف كأنها أوتار آلة موسيقية ضخمة، وإذا بالخوف يدفعني إلى أن أتبعها مرة أخرى لاستأنس بوجودها، ومددت ذراعي...

وفجأة ارتفع في قلب الظلام صوت مزعج أعقبه صراخ... وتردد للصوت المزعج وللصراخ صدى رهيب في أنحاء الدهليز المترامي الأطراف، ولم أستيقظ من ذعري الا بعد فترة لا تبين ان الشقية اصطدمت بديك هائل كان يحتفظ به والدي، وقد تعثرت به وهو نائم فهب مذعورا...

وأخذت تناديني بصوت مرتعب يتنقل في أنحاء الدهليز، وما زالت تتخبط في الظلام وهي تغول من الرعب إلى أن استطاعت أن تهتدي إلي على صوتي، وما كادت يداها تلمس يدي حتى ألقت بنفسها على صدري، والتصقت بي وهي ترتجف وتنشج، فلما وضعت جبينها على عنقي شعرت به يتصبب عرقا باردا.

وقد تمكنا من الوصول إلى الباب وصعدنا السلم فتملصت منها، وانطلقت إلى شجرة الليمون حيث استلقيت في ضوء القمر محاولا أن أنسى ما حدث، وأن أهدىء أعصابي فتبعتني ووقفت مني غير بعيدة وهي لا تزال تبكي.

ومرت فترة طويلة قبل أن نسترجع هدوءنا، فإذا بها إلى جانبي تتحدث إلي ولست أدري ما الذي كان يدفع بي إلى أن أتأمل تقاسيم وجهها وظلاله في ضوء القمر، وإلى أن أتتبع حركات أهدابها التي كانت تبرق خلفها عينان صافيتان عميقتان حافلتان بالغموض والأحلام.

وتحت تأثير عينيها الغريب ــ ولم ألاحظه من قبل ــ انتفضت قائما، وأشحت عنها قائلا : «أما آن لهم أن يرجعوا، لقد تقدم الليل وأصابني السأم وعضني الجوع، فأعدي لي شيئا آكله».

وتساءلت في الطريق معها إلى المطبخ عما يمكن أن يكون قد حدث حتى تأخر أفراد العائلة إلى هذا الوقت، ثم انني لا أذكر أنهم قضوا جيمعا الليل خارج المنزل من قبل.

وازدادت مخاوفي بعد أن تناولت عشائي، وكيف لا تزداد وليس معي في هذا المنزل المفتوح الا هذه المخلوقة الشاذة التي اقتحمت قلب الظلام لتستثير ديكا نائما... فكادت تتلف أعصابي، وأخيرا لجأت معها إلى غرفة صغيرة أحكمت اغلاقها بالمفتاح والمزلاج وأنا أقول لنفسي : «اننا في أمان هنا الآن، وليفعل الله بالمنزل بعد ذلك ما يشاء».

دفعت بالحشية إلى جانب النافذة وأخذت أتأمل الأشجار وهدوء الليل، فجلست إلى جانبي صامتة، ثم نهضت دون سابق انذار وأخذت تقذفني بالوسائد في تحد واستفزاز، إلى أن ذهب عني الخوف ونهضت لأضع حدا لعبثها، فإذا بها تأخذ بتلابيبي قائلة «اتصارعني ؟ كلا، لن تستطيع فإن قواك واهنة» ولم تنتظر جوابي، وإنما دفعتني دفعة ألقت بي على الحشية، ثم ارتمت على صدري فبدا لي أن العبث في تصرفها أخذ يتسم بطابع الجد، ولم يكن لي بد من أن أقاوم، فأخذت أزحزحها، ولكنها ضمتني إلى صدرها في قوة غامرة وأخذت تقبلني في جنون، وما كدت افيق من المفاجأة حتى تمزقت منها بكل قواي ثم تركتها حيث هي، واستلقيت على حشية أخرى وأنا الهث، فلما داعب النوم أجفاني كنت أسائل نفسي :

«ترى ما معنى هذا ؟ ما رأيتها هي ولا غيرها هكذا قط، صحيح انها كانت تداعبني، ولكنها لاعبتني من قبل دون أن يبدو عليها الشذوذ فتلتهب أنفاسها ويحمر وجهها، ثم كيف تقبلني ؟ ان أحدا لم يقبلني قط غير والدي ووالدتي وبعض الكبار، أما الصغار فما أظن أنني رأيتهم يتبادلون القبل».

وكادت بعض الشكوك الغامضة تنبثق في ذهني ولكنها غارت جميعا حينما سمعتها تقول بصوت هادئ وأنفاس منتظمة : «كان يجب أن لا نلعب هكذا كثيرا فإن والدتك لا تحب أن نلعب كما لعبنا اليوم، وإذا علمت فسوف تضربنا معا ضربا مبرحا، ولن أقول أنا شيئا فاحذر أن تقول أنت، انني خائفة فعدني أن لا تقول شيئا».

فتحت عيني في الصباح على صوت والدي وهو يوقظني، وكانت تبدو على وجهه امارات الجهد والسهر، فأنهى إلي أن زوجة عمي ماتت، وانه يجب أن أرتدي ثيابي وأذهب مع فاطمة إلى منزل جدتي.

سرنا صامتين في الطريق، فلما وصلنا باب المنزل الذي كان يضم رفات زوجة عمي استوقفتني لتقول :

«لا لزوم لذكر لعبنا بالأمس».

قلت «لا لزوم».

ولكن جوابي كان آليا، إذ لم أكن أفكر فيما أقول، وانما خيل إلي أن حادث أمس الصغير كان حلما، فقد كان حزني على وفاة زوجة عمي حزنا صادقا، إذ أحببتها خلال المدة القصيرة التي عرفتها فيها، وأعجبت بطيبة قلبها، ثم خطفها الموت في لمح البصر خطفا قاسيا.

31

لشد ما تقلبت بنا الأيام منذ عودتنا من انجلترا، وكان الشخص الذي يتحمل مغبة هذه التقلبات هو رب الأسرة بالطبع، فقد كان يبدو دائما ساهم المحيا شارد اللب ينزع إلى الوحدة والصمت، وما زلت أذكر أنني كنت أستيقظ من نومي في منتصف الليل فأجده لا يزال مستيقظا تحت ضوء مصباحه الأحمر الخافت الكئيب وهو يرنو إلى الفراغ... ولم يكن ينقصني التمييز لأدرك انه كان يجول بفكره في سراديب الماضي السحيقة، وفي ضباب المستقبل الذي لا يكاد يبين، وهو يستعرض الجهود التي تحملها والأسفار التي تجشمها والأيام التي سحقها فذهب ذلك كله هباء، حتى إذا ماعاد يجول بفكره في ضباب المستقبل اكتنفه الغموض عند أول خطوة حقيقية، كان رجلا صبورا طويل الاناة، وإذا كانت الوسائل قد أعيته فإن الشجاعة لم تخنه، ولم يفقد إيمانه بنفسه بالرغم من أنه كان في ريب من حظه في الحياة، كان مدبرا من الطراز الأول يعرف كيف يستثمر ما في يده مهما كانت قلته، ولكن الحياة الانسانية أعمق غورا من أن يدار دولابها بالقطرات.

ولاشك أن الرجل انتهى في تلك الخلوات الساهمة إلى قرار لا هوادة فيه ثم قلبه على مختلف وجوهه، واتخذ كل الاحتياطات حتى لا تعيد الحياة سيرتها الأولى.

وهكذا رجعت ذات صباح من المدرسة فوجدت من في المنزل حزينا ساهما، وثقلت كآبة أفراد العائلة علي، فذهبت أستفسر والدتي عما جرى وإذا بها ترمقني في ضجر ثم أشاحت عني، فلما دخلت إحدى الغرف الخالية سرت في اثرها وأعدت السؤال، وراعني أن تصيح في وجهي على غير عادتها :

هكذا نحن، سنظل رابضين في مكاننا إلى الأبد، ان الأحداث تلعب بوالدك لعبا خطيرا، لقد أضاع بتصرفاته وتفكيره المخطئ، كل الثروة التي جمعها، ولطالما نصحته في انجلترا وهو في أوج الرخاء بأن ينهي تجارته ويعود بنا إلى بلادنا، لأن التجارة مغامرة لا سبيل إلى النجاة فيها الا بترك المائدة في ساعة الربح المداهم، قلت له أنه يكفينا ما قاسيناه من غربة في تلك البلاد السوداء، ولكنه ظل يقدم رجلا ويؤخر أخرى إلى أن فقد كل شيء، وذهبت جهوده سدى، تلك الجهود المضنية القاسية التي استغرقت نحو عشرة أعوام طوال، ولو لم يرافقه تردده ذاك لما وصلنا إلى الحالة التي نحن عليها الآن، وان عيب والدك ان تردده الطويل يفضي به إلى قرارات مخطئة في النهاية».

ثم صاحت : «الا تعرف ماذا يفعل الآن في هذه اللحظة : انه يبيع المنزل، انه يغامر بآخر ما نملك من حطام هذه الدنيا، واني لأرى المستقبل واضحا أمامي، سوف يضيع ثمن المنزل ثم نصبح في العراء... هذا هو المصير المفجع الذي يسوقنا إليه والدك سوقا، انه يبيع المنزل ليدفع ثمنه في بضع سنين اقساطا شهرية...

وهنا خرجت غاضبة وتركتني ساكنا في مكاني كما لو كانت صاعقة قد أصابتني، كنت أعرف أن تصرفات والدي من شأنه وحده، فهو ربان السفينة الذي لا يملك أحد ان يتدخل في قيادته، ولكن ذلك لم يمنع عيني من أن تغرورق بالدموع حزنا على هذا القصر الصغير الذي أحببته منذ دخلته لأول مرة، فكان عزائي من كل شظف عانيناه، وقد انطلقت في نفسي الحسرة الوجيعة التي اكتسحتها ونحن على أهبة مغادرة منشستر وآل باترنوس، كانت الوخزات المؤلمة تؤرق كياني فذهبت أتأمل الغرف والمماشي والأشجار ونبع المياه، ووقفت طويلا تحت الكرمة الثرية التي تعودت أن أقطف أعنابها، رباه ! كيف ابتليت بأن يتلاشى من حياتي كل

من أحببته من الناس وما أحببته من الأمكنة والمنازل ! رباه ! ما أقسى أن يختفي من حياتك فجأة شيء ألفته وأحببته ولو كان من سقط المتاع ! بيد أن الحياة أكثر غلظة من أن تحفل بمشاعر الكبار مهما كانت مؤلمة، فما الرأي في مشاعر الصغار... وهكذا وجدت نفسي ذات يوم أغادر وأنا دامع المهجة ذلك المنزل الذي يطغى حبه على كل المنازل بالرغم من قصر المدة التي قضيتها فيه، ومنذ ذلك اليوم بت أتحاشى المرور ببابه لأن رؤيته كانت تعيد إلى نفسي الشجن الذي أحسست به عند مغادرته، فكأنني أغادره من جديد كلما وقع بصري عليه.

انتقلنا مع أسرة عمي إلى منزل صغير حاولت أناقته ان تبدد كآبته سدى، فلقد شعرت لأول مرة اننا أناس عديدون، اما نحن الأطفال فلم يعد لنا مجال للعب الا في الشارع، ولكن مكثنا في هذا المنزل الضيق لم يطل، فقد انتقلنا إلى منزل آخر أفسح منه بعد ذلك ببضعة أشهر.

وفي هذا المنزل حصل حادث من الحوادث الانقلابية في حياتنا، فقد توفي أحد أصدقاء أبي الحميمين، وهو الذي وصفت كيف رفع صوته بالعويل حينما بلغته وفاة والدته في انجلترا، أجل فقد جاء دوره هو أيضا، قال لزوجته انه يستطيع أن يعد مائة من أسماء أصدقائه المتوفين، وبدأ يسرد أسماءهم إلى أن وصل إلى التاسع والتسعين، ثم توقف، ولما أعياه التفكير وضع رأسه على الوسادة وفارق الحياة... وهكذا انتقل إلى رحمة الله مخلفا وراءه أرملة وشابين، وكان على أبي بحكم صداقته أن يعني بشؤون الأرملة التي قررت أن تؤجر الدور الأعلى من منزلها لتستعين بذلك على مواجهة متاعب الحياة.

ولست أدري لماذا احتك أخي بعمي في ذلك الوقت بالذات احتكاكا عصف بكل تفاهم بين أسرتينا، حقيقة كان أبي بطيئا في اتخاذ القرارات الفاصلة ولكنه في بعض الأحيان كان يتخذها سريعة حاسمة، ولم يجد

تراجع عمي شيئا لأن أبي كان قد اتخذ أحد القرارات السريعة الحاسمة، ولم ينته اليوم نفسه حتى كنا نقطن الدور الأعلى من منزل أرملة صديق والدي المتوفى.

وفي اليوم التالي رأيت أبي وأخي الأكبر يطرقان الباب ويطلبان شيئا اسمه «الطريق» ثم يغطيان وجهيهما ويخترقان ساحة المنزل، ولا يكشفان عن وجهيهما الا بعد أن يصلا إلى مدخل السلم.

وانها وايم الحق لبلية ان يكتب على الانسان ان يدخل إلى منزله دخول الغرباء... ولم أعرف ما يجب علي أنا أن أفعله، وأخيرا قررت أن أتصرف تصرف الوالد والأخ عند الدخول إلى المنزل الجديد، فإذا بسيدة ضخمة تدل ملامح وجهها على رحابة الصدر وحب الخير تقول لي «وأنت أيضا ! اكشف وجهك فانك لا تزال يافعا» ثم ضمتني في حنان إلى صدرها، ومنذ ذلك اليوم أعفيت من أن أدخل المنزل دخول الغرباء مثل أبي وأخي.

توشجت أواصر الصداقة بيني وبين ابن الأرملة البكر، بالرغم من الفارق الكبير بيني وبينه في السن، وكان يتمتع بشخصية غريبة لا يمر عليها من صادفها مر الكرام...

كان يقضي اليوم كله بالمنزل وهو يعزف على قيثارته بعض الألحان الجزائرية الخفيفة، فتعلمت منه العزف وسرعان ما بدأت أرد على ألحانه من الدور الثاني بقيثارة لم يقر لي قرار إلى أن اقتنيتها، وتعلمت أن أعزف عليها ألحانه، وكنت أتلقى عنه كل لحن يتعلمه.

على أن مخرقة القيثارة لم تكن الأولى من نوعها في حياة هذا الشاب الذي لم أشك في أنه غريب الأطوار منذ عرفته، فقد كانت هناك مخرقة أخرى أشد وأنكى.

كان يبدو من الطريقة النهمة التي كان يدخن بها لفافات التبغ

المتعاقبة انه يخفى سرا رهيبا، وان هناك معركة محتدمة الأوار قد اتخذت من نفسه الغامضة ميدانا لها.

وذات مساء ضاق صدره بسره فباح لي به، وفحواه انه يحب إحدى قريباته حبا ملك عليه أقطاره ويريد أن يتزوج بها في الحال، ولكن والدته تعارضه لأن تراب والده ما يزال بليلا أولا، وثانيا لأنه عاطل لا عمل له، وكان تعلقه بنزقه أو تعلق نزقه به من الشدة بحيث لم يفقه كلمة واحدة من منطق الوالدة المسكينة.

ولما عاهدته على كتمان السر بدا يكشف لي عن نواياه، وخرجت معه ذات يوم إلى وجهة غريبة عجزت ظنوني عن أن تتصور الغرض منها، لأنها كانت بالنسبة لي في ذلك الحين أغرب من الخيال نفسه.

كان الليل يسدل استاره عندما وصلنا إلى بناية ضخمة بها مجموعة كبيرة من الغرف الصغيرة المتراصية. وكان لسان شمعة باهتة يتراقص في كل غرفة كما تنبعث منها رائحة كريهة هي رائحة الجلود المشوية برائحة الشاي المُحترق، فأحسست بالرهبة ولكن الفضول دفعني إلى أن أتبعه وعند إحدى الزوايا توقف ليطرق أحد الأبواب طرقا خفيفا، ثم دخل ودخلت على إثره لأجلس إلى جانبه على حصيرة.

كانت الشمعة التي تضيء الغرفة باهتة، فلم أتبين ما بها في أول الأمر، فلما بدأت عيني تميز الأشياء كدت أصرخ من الفزع، كنت أجلس في مواجهة رجل ضخم الهامة مترامي الأطراف متوحش الطلعة يرتدي جلبابا كان أبيض في يوم من الأيام ثم احالته الأقذار إلى لون لا أدري ماهو، وله عينان غائرتان ووجه أصفر كئيب تعلوه عدة بثور سوداء، وأنف متورم وشفتان غليظتان زرقاوان كأنهما قطعتان مشوهتان من المَطاط، وكان فمه الواسع ينفرج عما تبقى من أسنانه الكبيرة الصفراء. أما محتويات الغرفة فصندوق كبير أسود اللون، عليه أوراق متسخة وكتب صفراء وحصير ثان

غير الذي كنا نجلس عليه وجلد خروف قديم بجوار الباب ثم شمعة تراكمت قطراتها على جانبيها، فبدت كأنها الدموع المتحجرة، ثم كانون به نار، وإلى جانبه بعض البصلات، ثم أدوات قصديرية صدئة، لابد أنها أدوات الشاي.

أمر الرجل الرهيب صاحبنا بأن يقترب منه، فأطاعه فورا وهو يتطلع إلى وجهه كما لو كان يتطلع إلى وجه نبي من الأنبياء... وهنا تناول بصلة غمس في أحشائها قلمه وأخذ يخط به خطوطا في كل اتجاه على ورقة بيضاء، ولما وضع الورقة في النار تصاعدت منها رائحة كريهة، فانكب عليها وانصرف يتأملها بإمعان وهي تحترق إلى أن تحولت إلى رماد، ثم رفع رأسه إلى الشاب ونطق لأول مرة قائلا :

ـــ الصبر يا بني، الصبر، ان الطريق مفتوحة أمامك ولكن هناك بعض العوائق التي لابد من التغلب عليها.

كان صوته أغرب منه ومن غرفته ومحتوياتها، كان ذا نبرة عميقة كأنه يصدر من أغوار سحيقة جوفاء.

ورد الشاب في عصبية : أعرف ذلك، ولكنني لا أستطيع الصبر فأنلنيها يا أبتاه بأقرب ما تستطيع.

قال الصوت الصادر من الأغوار السحيقة :

ـــ هناك سبيل واحد مخيف.

ـــ أريد أن أخترقه... ان أخترقه ولو أفضى بي إلى الجحيم.

ـــ هو أن أفقدك صوابك وتصبح من المجانين.

ـــ قدني اذن في طريقك المحفوفة بالأخطار، هات عقاقيرك وأطمس معالم صوابي، فإني لم أفد منها شيئا.

ـــ سيسكنك الجن الارعن الجامح.

ـــ ليسكنني أكثر سكان عبقر رعونة وجموحا.

ـــ حسن ! ولكن هل أنت واثق من هذا الفتى القابع إلى جانبك ؟

فلما رد عليه بالايجاب انصرف يعد عدته لارسال عقل الشاب إلى عالم الجنون، وتصاعد الدخان، وظهرت الأوراق ونشرت الكتب، وانهمك الرجل المرعب في مهمته الرهيبة، وأنا أتأمل وجه الشاب منتظرا في فزع أن تظهر عليه أمارات الجنون.

ثم انصرفنا فقال لي الرجل البشع وفمه يطلق سراح ابتسامة فبدا وجهه كأنه وجه جمجمة : «اقصدنا إذا اعترضتك في شبابك مشكلة من هذه المشاكل الغرامية، فقد نستطيع أن نحقق لك أهواءك». ولكنني لم أكن في حالة تسمح لي بأن أرد على دعوته الكريمة بمجاملة مماثلة...، كانت أسناني تصطك من هول ما رأيت وبشاعة ما سمعت، ولا أظن أنه أغمض لي جفن تلك الليلة، فلما استعدت صوابي خيل إلي أنني فهمت، انها شعوذة طالما سمعت بها، ولكن تبين لي بعد ذلك أنني لم أفهم، ويظهر انني ما زلت لم أفهم إلى الآن.

فبالرغم من استهتاري بعد ذلك بما سمعت فقد قضيت اليوم التالي مرهف الاذنين وعلى استعداد لسماع صيحات الجنون، ثم استسخفت نفسي لذلك، وبدأت أنسى الموضوع. ولكن والدتي دخلت علينا في صباح اليوم الثالث في فزع وهي تقول ان الشاب في حالة بالغة من الخطورة، وأنه يهذي هذيانا مخيفا باسم الفتاة التي يريد أن يقترن بها، وفي المساء قيل أنه فقد صوابه.

وخيل إلي في أول الأمر أن المسألة كلها مصطنعة للتأثير على الوالدة المسكينة، ولكنني حينما زرته ـــ بدافع من الاشفاق والفضول ـــ هالتني صورته، فقد شحب شحوبا جعله أقرب إلى هيكل عظمي منه إلى إنسان، تضطرب في جمجمته عينان قلقتان، ويبعث كل ما يحيط به على الرثاء،

ولكن يديه وحدهما كانتا دليلا على أنه ليس هيكلا عظميا، إذ كانتا متورمتين داميتين.

وما كدت أجتاز عتبة الباب حتى أخذ يصيح بصوت كأنه الحشرجة : «أنت أيضا جئت تروي أوآم فضولك، اذن فخذ عني، لن يأخذها، لن يأخذها... لن يأخذها أيها الفضولي الصغير».

ولأجل ان يعبر عن قوة تصميمه ضرب الحائط بقبضة يده المتورمة الدامية ضربة تزعزعت لها أركان الغرفة، فاختلط الدم بالجبس على الحائط وعلى قبضته الممزقة، ولا أدري أية قوة هائلة كانت تمد عظامه بأسرارها.

استمر الحال على هذا المنوال أسبوعا كاملا وهو يهز المنزل بضربات قبضته، والوالدة مصرة على عدم تلبية مطلبه إلى أن بدا من الواضح انه يحتضر... فلم تجد الأم المسكينة بدا من أن تنزل على إرادته، فتمت الخطوبة واستمر مرضه بعض الوقت ثم تزوج واستعاد بعض صحته، ولكنه لم يستعدها كاملة أبدا، فلقد ظل يتعثر في أيامه إلى أن لحق بآبائه كما علمت فيما بعد، وبذلك أفسح المجال لأرملة جديدة في ذلك المنزل الغريب.

هذا هو الشاب الذي صادقته بضعة شهور، ثم اختفى من حياتي هو وقيثارته بعد أن انتقلنا مع جدي وجدتي وبعض أعمامي إلى منزل جديد، هو الذي نثرت جدتي على وجهي بعض الملح عند عتبته وأنا أغادره للمرة الأخيرة، ولم أسمع بعد ذلك الا نتفا قصيرة من الأخبار، ولكنها كانت كافية لمعرفة ان حالته تسير من سيء إلى أسوأ، إلى أن برهنت الأيام فيما بعد على أن الرجل الرهيب قد لا يكون سلبه عقله فحسب وانما سلبه حياته أيضا نظير دريهمات...

32

إلى جانب هذا كله كان لي أصدقاء آخرون أخلص لهم الود وامنحهم جانب الاستئناس من قلبي، لما كنت أشعر به من رحابة في صدورهم، وما يلمح في عيونهم من وفاء.

ذلك أنه حينما رجعنا من انجلترا توثقت عرى الصداقة بيننا وبين أحد جيراننا، وقد بلغ هذا الجار من الغرابة مبلغا لا مناص معه من أن نفرد له فصلا من هذه الفصول، ويكفي أن نقول أن من بين الميادين الكثيرة التي كان يخوضها في الحياة ميدان الثيران والأبقار — أو ميدان الأبقار والثيران بحسب الآداب الحديثة... — فقد كانت له زريبة رحيبة اعتدت أن أصحب والدي إليها لنقضي مع الرجل بعض الوقت تتمثل لي فيه ذخيرة من المتعة، لأن كل ما كانت الزريبة تشتمل عليه كان جديدا بالنسبة إلي، وكذلك الحوادث التي كانت تجري فيها.

ولكم كان سروري عظيما حينما بلغني أن والدي استطاع أن يبتاع بقرتين اثنتين ويدس بهما بين أبقاره، وقد عرفت بعد ذلك أن هذه هي الخطوة الأولى التي اتخذها للحصول على أسباب الرزق في حياته الجديدة، بعد أن قام بينه وبين التجارة سوء تفاهم لم يعد معه مجال لاصلاح ذات البين بينهما.

كنا نسلك إلى زريبتنا دروبا طويلة منعرجة تقع على بعض جوانبها مزابل الأرواث، لأن المنطقة كانت آهلة بالسكان من الأبقار والثيران، في هذه الناحية من ضواحي المدينة.

وهنا تبدأ قصة جديدة مع أصدقائي الجدد من الأبقار والثيران والعجول وعلى رأسهم جميعا صديقي... الحمار، لا تكاد تمر فترة قصيرة على

وجبة الغداء حتى أتسلل من المنزل وأنطلق في الطريق إلى الزريبة، حيث كنت أجد «طامو» خادمتها، منهمكة في التنظيف واعداد المكان لاستقبال الأصدقاء القادمين عند عودتهم من المرعى. فكانت تستقبلني بحفاوة، ولكنها لم تكن من الغباوة بحيث يخفى عليها الغرض الذي أتيت من أجله قبل والدي بمدة تتجاوز الساعتين، ولذلك كانت تسرع إلى الحمار وتعده الاعداد اللازم، ثم تساعدني على امتطائه لأنطلق به في الشوارع المجاورة وهو يعدو بخطواته المتلاحقة في خفة ويسر، فأشعر بزهو لا مزيد عليه، واستغرب كيف لا أسترعي انتباه المارة الكامل، ثم أعود إلى الزريبة قبل الموعد الذي اعتاد أن يحضر فيه والدي، وبالرغم من أنني كنت أمتطيه خلسة فقد كان هناك شبه اتفاق على أن الحمار ملك خالص لي، وانني السيد الذي يجب أن يطيعه في كل ما يصدره إليه من أمر. ولم يخالف صاحبنا الحمار هذه الأوضاع الا مرة واحدة حينما أقبلت مرتديا جلبابا جديدا، ولعل الجلباب الجديد أن يكون قد أثر على سرعتي في السير فوصلت إلى الزريبة متأخرا، ولذلك لم يكن هناك وقت كاف لأن أخرج على ظهر صديقي... في جولة قصيرة لأعود قبل أن يصل والدي، فخلعت الجلباب القشيب وأخذت أستعد لاستقبال القطيع الذي أزفت عودته، ووضعت الجلباب في عناية على غصن من أغصان شجرة المشمش التي كانت تتوسط الزريبة، وهي الشجرة التي كان يشد إليها وثاق الحمار، ثم انهمكت فيما اعتدت أن أنهمك فيه إلى أن حان أن نعود إلى المنزل، فانطلقت إلى الشجرة لألتمس جلبابي المرموق، فكانت دهشتي كبيرة حينما وجدت أن طوله قد قصر، ذلك أنه اعتدى عليه اعتداء منكرا فقضمه قضمات أضاعت معالم الانسجام بين أطرافه السفلى ولما ارتديته لم يتجاوز طوله ركبتي، فشعرت من شدة التأثر لما أصاب الجلباب، برغبة ملحة في أن أصفع الحمار، ولكن المقارنة بين كفي

الهزيل وصدغه القوي كانت كفيلة بصرفي عن هذه الرغبة، ثم ما يدريني فقد تكون «طامو» هي المسؤولة إذا لم تكن قدمت إليه العلف الكافي.

ومهما يكن من شيء فقد كانت تمر هكذا الفترة التي تسبق وصول والدي إلى الزريبة في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، حتى إذا ما رجعت من جولتي مع الحمار تفقدت المكان تفقدا دقيقا، ثم أخذت أستعد لاستقبال أصدقائي من الأبقار والثيران والعجول، ويالروعة الاستقبال، ويا للأثر الجميل الذي كان يحدثه في نفسي أن تظهر دون سابق انذار على باب الزريبة في طليعة الأبقار أشدها طيشا ورعونة وسفاهة حلم فاندفعت تموء كما لو كانت قد استبطأت قدوم بقية القطيع وأخذت تعيره بالكهولة وتلف النشاط والترهل.

ثم لا يلبث القطيع أن يلوح خلفها أخيرا، بخطواته الوئيدة وحركات الرؤوس المتجاوبة المتناسقة، وتتجاوز الأبقار عن رعونة الشباب بنفس الخطوات الوئيدة دون أن تعيره أي التفات وقد يندفع يافع من الثيران مع يافعة فينطلق الاثنان في مغازلة عنيفة مدمرة لا ينتهي عنفها الا عند شد الوثاق...

أما بقية الأبقار فكانت تتجمع في الساحة لترفع أصواتها في نبل بهذه النداءات الكريمة التي لم أكن لأخطئ لها مغزى، وكان لكل نداء رد يأتي في أثره، انه نداء الأمومة الذي لم يكن يلمس في نبرات الأصوات فقط، ولكنه كان يلمس أيضا في بريق العينين الساذج والسحنة المتطلعة، الأمومة البكماء التي برح بها الشوق إلى وليد سجين...

ثم يخترق الساحة السيد مسعود، ذلك الكهل الجليل الذي تسبل أمام هيبته الجفون، فيتوسط خلائله ثم يتوقف ليزفر زفرتين أو ثلاثا يستعيد بها ما قد يكون ضاع من هيبته، ويجول بنظراته الكئيبة بين الحلائل كأنه يطمئن إلى أنها مستوفاة العدد في الحريم، والتصق أنا أثناء ذلك بالجدار

فزعا ورعبا، ذلك أن مرور الأسابيع والشهور لم يستطع أن يخفف مما كنت أشعر به من هلع كلما طالعني هذا الثور مترامي الأطراف، مرعب النظرات، حاد القرنين، ذلك الكائن الهائل الذي أشاع في كياني الضعف والخور، والمخلوق الجبار الذي لم يكن خيالي يعجز عن أن يتصوره وهو يندفع بجسمه الضخم وقواه التي لم أكن أتصور لها حدا، ليسمرني بقرنيه الأسودين البراقين في جدار من الجدر...

وكان لتوسطه الحلائل اثر ملموس، إذن كانت الأبصار تنخفض في خفر، كما كانت الأصوات تتلاشى في استحياء، وكانت المنازعات تنتهي عند مجرد ظهوره، ذلك أن مطلعه كان يخمد أنفاس الأمومة والخصومة معا.. بل كان من الواضح أن وجود كل بقرة قد فني في وجوده، حتى إذا ما ظهر خلف القطيع الرعاة الأشداء وهم يحملون جلابيبهم المتسخة على أكتافهم، وقد لوحت بشرتهم لفحة الشمس فبدت وجوههم تحت عماماتهم ــ كأنها قد نحتت من برنز ــ ساد الهدوء القطيع وبدت عليه امارات الطاعة، وعلى رأسه «مسعود» بجلاله و«جوهرة» بسوادها «وياقوت» بفقاعتها، بالرغم مما كانت البقرتان تتمتعان به من هيبة باعتبارهما أقدم بقرتين في الزريبة.

ثم يجلس الرعاة في ظلال شجرة المشمش الفرعاء بعد الفراغ من عملية شد الوثاق، ليستريحوا قليلا مما عانوه في المراعي، ولكن فترة الاستراحة لا تطول إذ لا يلبث كل واحد منهم أن يتجه إلى محلبه لينصرف بعد ذلك إلى أبقاره في نظام يدعو إلى الإعجاب حقا ثم تختفي أصوات الأبقار والعجول ــ أصوات الأمومة والبنوة ــ ليخلفها صوت الذرير، ذرير الحليب الرتيب الثري المتدفق.

وتستغرق أصوات الذرير وعملية الحلب وتنقل الرعاة بين الأبقار مدة قد تزيد على ساعتين، حتى إذا ما قارب العمل نهايته ظهر عند الزريبة «بائع

الحليب» بحماريه العتيدين، فيقرأ السلام دون أن يتردد لحظة واحدة قبل أن ينطلق إلى مجمع الحليب ليطمئن على وفرته، ثم ليكيله ويغادر المكان في لمح البصر وهو يهش على حماره في قلق خشية أن يتأخر عن ميعاد البيع.

وكنت أرى الأبقار في الزريبة عند الغروب فحسب، وأعرف أن الزريبة تخلو منها طول النهار، ولذلك كنت أتساءل أين تقضي سحابة يومها، وذات يوم استطعت أن أتفق مع والدي ــ بعد طول الحاح ــ على أن أنهض في الصباح المبكر، وأصحب الرعاة مع الأبقار إلى المكان الذي تقضي فيه يومها.

كانت العملية التي تتم عند الفجر على عكس العملية التي كانت تتم عند المساء، ذلك أن الأبقار كانت في المساء تعتقل ثم تحلب، اما في الصباح فكانت تحلب ثم يطلق سراحها، لتندفع نحو الباب وهي تودع بأصواتها الرحيمة عجولها وتنطلق في طريقها إلى المرعى حول السيد المطلق «مسعود» ثم تنهمك انهماكا يوحى بأنها قررت أن لا تقلع عنه أبدا... فسرني فوق ذلك أن أوجد في مكان ينطلق الطرف فيه دون أن يصده شيء، وكان فرح الرعاة بوجودي بينهم فرح قوم ملوا قضاء يومهم ــ سنة تلو أخرى ــ دون أن يكون في معيتهم شخص جديد، وكان وجودي بينهم إلى جانب ذلك بمثابة ثقة أولاهم إياها والدي.

وقد اغتبطت اغتباطا شديدا بوجودي بين الأبقار في الصباح وفي المساء ولذلك أصدرت قرارا خطيرا وهو أن أصبح من رعاة أبقار والدي حينما تصبح مقاليدي بيدي، وكان عزائي أن هذا اليوم آت مهما كان بعيدا.

على أن هذه السعادة التي كنت أحيا فيها لم تكن خالية من المتاعب، إذ كان يتخلل تلك الأيام البراقة من آن لآخر يوم كالح مزعج،

وهو اليوم الكريه الذي يزورنا فيه الجزار... ليختطف بقوة لم أكن أدري سرها بعض العَجول التي يضيق عنها المكان، ولكم تأثرت لفراقها، وخصوصا حينما علمت المصير الذي تقاد إليه، وكاد يذهب بلبي علمي بأن مرور يوم أو يومين بعد ذهاب الجزار بها كاف للقضاء عليها وازهاق أرواحها، فقد كانت هذه العجماوات وديعة يعز على المرء أن يفارقها إلى نوى، فما الرأي حينما يفارقها وهو العليم بأنها ذاهبة إلى مجزرة في لغة الانسان، ومقصلة في لغة الحيوان.

33

ورثت عن طفولتي ميلا شديدا إلى أصدقائي، ورغبة ملحة في أن أحيا بينهم فأمزج أتراحي بأتراحهم وأفراحي بأفراحهم، وإذا لم يخطئني الصواب فتلك طبيعة أشارك فيها معظم بني قومي، وهي طبيعة جميلة بما تشتمل عليه من وفاء وكل مثل الصداقة العليا، ولكنها في نفس الوقت طبيعة خطيرة كلفني التخلص منها مجهودا شاقا، لأن الحياة بين الأصدقاء فحسب تضيق الدائرة التي نتصل بها مع المجتمع تضييقا محسوسا، حتى إذا مر وقت كاف بدأت الأسباب تنقطع بيننا وبين المحيط الأكبر، فلا نحس الا بإحساس طائفة محدودة من الأفراد، ثم ينتقل هذا التأثير إلى عقليتنا فتتأثر دون أن نحس بمجموعة صغيرة من الأصدقاء يصعب علينا التمييز بين ما فيها من خطأ وصواب مع مرور الأيام، وتضعف فينا القدرة على الامتزاج بالغير حتى إذا كتب على هذه المجموعة أن تتفرق أصبح أفرادها كالأيتام في المجتمع، وقد تعرضت لهذه التجربة عدة مرات.

وكان أصدقاء صباي ـــ وهذا صادق بالنسبة لجميع الناس في صباهم ـــ هم الذين وضعتهم المصادفة في طريقي، أي بسبب الجوار في السكن أو الزمالة في المدرسة، وكانت الرابطة المتينة القوية التي تجمع بيننا هي رابطة اللعب، كما لا أحتاج أن أقول، فقد كان اللعب في تلك السنين الجميلة غاية الحياة القصوى التي نعيش لتحقيقها.

وقد نسيت أسماء هؤلاء الأصدقاء وان كانت صورهم لا تزال تسكن مخيلتي، وقد تركت أحدهم فتى صغيرا نحيفا ثم قابلته بعد ذلك رجلا بدينا أصلع الرأس ففغر فاه حينما عرفته في الحال، ولم تكن بصفة عامة

تميزهم خاصية فيما كنا نضطرب فيه من جهد ولعب، الا فتى واحدا أذكر أن اسمه كان (عبد الواحد)، فقد كان حقا من النماذج البشرية التي عرفتها وصادفتها وأحببتها في طفولتي.

ولست أدري لماذا كان والدي يكرهه كرها عميقا، فقد دأب ينهاني عن اللعب معه وتفنن في تشويه سيرته والصاق التهم به، إذ كان في نظره أكبر صعلوك أنجبه القرن العشرون، ولكنني لم أتأثر لذلك لأنني كنت أعلم أن والدي لا يعرفه.

كان عبد الواحد يكبرني ببضع سنوات، وبالرغم من أنه كان جميل المحيا براق العينين دقيق الجسم، فقد كان يتمتع بقوة جثمانية تثير الدهشة، كما كانت شخصيته جذابة قوية خيرة وهذه هي الصفات التي رفعته بين مجموعتنا إلى مرتبة القائد والزعيم.

كان ثابت الأعصاب صارما أثناء اللعب، ولذلك لم يكن يلاعب الا الفائزين منا، وإذا أخرج خدروفه ذا السن البراق الحاد الذي كنا نسميه الصاعقة أحطنا به لنرى كيف يشق به خداريفنا شقا، كان يخترق بسنه قلبها فتتطاير شقين في الهواء ثم يخلفها بعد ذلك على الأرض وهو يرن ويتراقص كما لو كان يزهو فخرا بنفسه وبصاحبه، ولا نملك بعد ذلك الا أن نرفع إلى محياه الوضاح نظرات الاكبار والاعجاب.

ولم يكن عبد الواحد مثل معظم الفتيان الأشداء مشاغبا شريرا، بل كان جم التواضع دائم الابتسام، مطمئنا إلى المكانة التي يشغلها من نفوس أصدقائه لا يلجأ إلى قواه العضلية الا دفاعا عن نفسه أو عن أصدقائه.

كان يمر بحينا في ساعة معينة من كل عصر، هي ساعة لعبنا فتى مخبول لا ندري إلى أين يذهب ولا من أين يأتي، وكان منظره مرعبا، فقد كان ضخم الجثة بادي القوة يكبرنا جميعا له هامة حليقة ضمة، ولحية

مبكرة شوهاء وتتراقص فوق أنفه الكبير عينان زائغتان، كان يمر بنا وحيدا وهو ينهمك في حديث متشعب طويل كما لو كان ينسير في رفقته عدة أفراد غير مرئيين.

وذات يوم مر بنا كعادته ولكنه لم يواصل السير، بل عاد إلينا مرة أخرى ونحن نضحك ونلعب ثم تقدم إلي أنا ورفع يده ثم أهوى بها على وجهي بلطمة تزعزع لها عنقي وتراقص كل ما حولي، وبالرغم من أنه كان بالنسبة لي كالعملاق، وبالرغم من أن الجميع يعرف أنه مجنون، فقد كان للطمة ألم معنوي أشد من المها المادي، وبينما كنت أفيق من هول الصدمة، استدار وانصرف بنفس الخطى الوئيدة التي اعتاد أن يخطوها كلما مر بنا، وتركنا جميعا مشدوهين.

أما عبد الواحد فقد كان ينظر إلى نظرة لم يخف على معناها، إذ كان يجب منا دائما أن ندافع عن أنفسنا، ونرد ما يلحق بنا من أذى، كانت نظرته تصرخ «دافع عن نفسك بأسرع ما تستطيع».

وفي لمح البصر خلال المدة التي كان يبتعد فيها رويدا رويدا — أخذت أستعرض ما يمكن أن أفعله لرد إهانة هذا العملاق المخبول، وكانت جثته الضخمة تفتت عزيمتي ولكن نظرة عبد الواحد كانت تشدها من جديد، وكذلك نظرات الأصدقاء الصغار الذين تعلقت بي عيونهم في اشفاق واستغراب.

ولست أدري كيف وجدت نفسي أسير في أثر خصمي الهائل، وبينما كانت خطواتي تزداد سرعة كان هو مستمرا في سيره دون التفات، وبدأت أعدو حتى إذا ما قاربته أهويت على ظهره بحجر ضخم فخر إلى الأرض، لأنها كانت صادرة عما شعرت به من ألم وإهانة وظلم، وتردد صدى الضربة عميقا في صدره كما لو كان كهفا سحيق الأغوار، فلما اطلقت ساقي للريح لم يتردد لحظة واحدة وإنما انطلق في أثري كالسهم، وانني

لعاجز اليوم عن تصور بشاعة ما كان يمكن أن يصيبني منه لو لحقني، وكان من الممكن أن يلحقني لو لم ينقض عليه عبد الواحد ويهوي به إلى الأرض وهو بين ذراعيه، جثة هامدة كما لو كان قد فارق الحياة.

ولو لم أتحرك أنا في ذلك اليوم لما فعل عبد الواحد من أجلي شيئا.

ولكن مقاومة والدي لصداقتنا كانت تزداد كلما ازداد إعجابي به إلى أن حدثت الطامة الكبرى، تلك الطامة التي لم تدع لي أي عذر يمكن أن أتذرع به لتبرير هذه الصداقة والاستمرار فيها.

كنت في نظر والدي ـــ وفي نظري أيضا ـــ فتى مستقيما. وكانت تحصى على أطفال المنزل الاغلاط والأخطاء، ولكنني أنا كنت أحرص على أن لا أقع في أي غلط أو خطأ مهما كان الأمر، وكنت فخورا بأنني نجحت في ذلك، حتى إذا ما غلطت عملت على إخفاء غلطتي، حدث ذات يوم أن جرحت يدي جرحا خطيرا، فهربت إلى المطبخ وظللت أعالج الجرح بكل ما تصل إليه يدي ودمائي تنزف، وقضيت مدة طويلة قبل أن أستطيع السيطرة على هذا النزيف، بعد أن تحول كل شيء في المطبخ إلى اللون الأحمر، كل ذلك لئلا يعلم أحد أنني جرحت يدي.

أما الغلطة التي سوف أتحدث عنها فقد كانت أدهى وأمر اذ عصفت بكل ما تحفل به سيرتي من عصمة، وكان أثرها في نفسي شديدا ومؤلما، وبدت لي في ذلك الحين من هذه الأغلاط الكبرى التي يقع فيها الانسان فيلازمه شبحها طول الحياة.

كنا على أبواب العيد فطلبني والدي وكلفني بأن أذهب إلى صانع للأحذية أعطاني عنوانه لاستلم منه حذاءه الجديد ثم أعطاني ثمنه لانقده الرجل، فدسست المبلغ في جيبي، وانطلقت أبحث عن العنوان.

ولست أدري هل كنت مغموما أو ان المرور في الشوارع الضيقة القذرة في ظلمة الشتاء التي لا تنيرها سوى مصابيح حقيرة متباعدة هو

الذي ضايقني، كان كل شيء ساكنا كما لو كنت أمر في مدينة مهجورة إلى أن وصلت إلى المكان المقصود، وطرقت الباب وسألت عن صانع الأحذية الذي لا أعرف كيف اهتدى إليه والدي، وإذا بي أمام رجل مستطيل الوجه باهت الخدود يدخن غليونا طويلا وأمامه فتاة لمحت بعد أن تعودت نور الشمعة الخافت أنها تتمتع بجمال يسترعي الأنظار وكان كل شيء في الغرفة مبعثرا على الأرض، ولما وقعت عيناي على عيني الرجل شعرت باشمئزاز من النشوة الغرقى التي كانت تحاول أن تنقذ نفسها فيهما... وكنت أعبر بإحدى هذه اللحظات المرعبة التي يتبرم فيها الانسان ويشعر بأن أنفاسه تكاد تحتبس فلم أع كثيرا مما قال، ولكنني فهمت منه أنه لم يتم صنع الحذاء بعد، ولذلك يجب أن أرجع إليه بعد ساعتين.

وقفلت راجعا وأنا أفكر أين أقضي الساعتين، لا لزوم للرجوع إلى المنزل، فلأذهب إلى هذا الدكان الذي اعتاد ان يقضي به عبد الواحد فترة ما بين المغرب والعشاء، وكان اختياري موفقا إذ كانت الليلة ليلة العيد التي يتساهل فيها الآباء مع الأبناء في مواعيد الرجوع إلى المنزل في المساء، وكان الدكان طافحا بالأنوار وبه جميع الأصدقاء، وكان أشبه بناد منه بدكان إذ كان صاحبه فتى طائشا وضعه فيه والده ليقيده، فوجدتهم منصرفين إلى باب لعب الورق أي انهم كانوا يقامرون بمقادير قليلة من المال الذي حصلوا عليه بمناسبة ليلة العيد.

وبدأت انجذب إلى دائرتهم دون شعور، وأخذ الغم ينجلي عن نفسي قليلا قليلا، وانغمرت فيهم فإذا بي أجدني أتحسس جبيني، فلم أفق الا وأنا أكافح كفاح المستميت في سبيل استرجاع ما فقدت : أكثر من نصف ثمن حذاء الوالد الذي ينتظر في المنزل، وكنت أفيق من آن لآخر لأجد نفسي قد خسرت خسارة جديدة أو استرجعت جزءا يسيرا مما خسرت ثم أفقد إحساسي بعد ذلك وانغمر في اللعب من جديد.

وكان الوقت يمر بسرعة دون أن أشعر به، وأخذت الأنوار تنطفئ حولنا في الدكاكين الأخرى فانتبهنا وإذا بالساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وهناك هببت مذعورا ونسيت ما فقدت كما نسيت قصة الحذاء ومضيت أعدو إلى المنزل.

طرقت الباب فصادفتني مشكلة جديدة :

لقد كنت أريد أن أتسلل إلى المنزل دون أن يشعر بي والدي، ولكن والدي ذهب ليقضي سهرته عند صديق جار وأقفل الباب بالمفتاح.

لم يعد هناك مجال للتفكير، فلابد من أن أذهب إليه بنفسي، واندهش والدي حينما مثلت أمامه ثم قدم معي ليفتح لي الباب ويعود، وفي أثناء الطريق أخذ يسألني أين تأخرت فاخترعت له قصة نسيتها الآن وان كنت أذكر أنني اقحمت فيها اسم جدتي، واقتنع بقصتي إذ لم يكن يشك في أنني لا أكذب.

عبثت بي الحوادث عبثا خطيرا في تلك الليلة فانطلقت أقفز من غلطة إلى غلطة حتى عجزت عن العودة إلى الصواب، وكان علي أن أجابه أغلاطي مرة واحدة في الليلة نفسها، فبينما كنا نقترب من المنزل بدا ركب الأصدقاء عند أول الشارع على رأسه عبد الواحد، وأنصت والدي إلى ضجيجهم فعرفهم من أصواتهم وهو يفتح الباب، وبينما كنت أنا أدخل كان هو يقول بلهجة ساخرة جرحتني حقا : «أهذه جدتك التي كنت عندها».

عرف والدي أنني كذبت وانني تأخرت عن المنزل، ولكنني استطعت أن أخفي عنه قصة القمار بالرغم من شعوره بأن تأخري كان مريبا. فقد اقترضت باقي ثمن الحذاء من والدتي في الصباح المبكر، على أن أسدده مما أحصل عليه بمناسبة العيد، ثم انطلقت أعدو إلى الرجل الذي أوقعني كسله في كل هذه الأغلاط.

أما عبد الواحد فقد بدأت اتحاشاه لأن اللعب معه سوف يفتح أمامي بابا تتدفق منه على التهم، فقد ثبتت صحة تهمة واحدة وهذا يكفي للاقناع بأنها جميعا صحيحة.

ولكن إعجابي به لم يتغير فظللت أتصل به اتصالا خفيفا أثناء النهار دون أن اجرؤ على السير معه في الأوقات التي يمر والدي فيها بالشارع.

ثم اختفى عبد الواحد ذات يوم.

وكانت دهشتي لاختفاء نشاطه من الشارع بالغة، ولكن دهشتي كانت أشد حينما علمت أنه مريض، فسعيت إليه لأعوده في منزله.

كان جالسا تحت شجرة كبيرة، وعلى وجهه نفس الابتسامة الرقيقة الحنون، ولكنه كان أصفر اللون غائر الخدين، شاحبا هزيلا، كما لو كان غول نهم قد رضع رونقه وصباه.

ودار بيننا حديث تافه لأنه كان يرتجف من المرض والضعف والهزال أما أنا فكنت في واد سحيق استغربت كيف تحول الفتى النضير المعافي القوي إلى هذا الهيكل الضامر المعلول الواهي، وطال مرضه إلى أن تقطعت بيننا الأسباب... ولا أدري اليوم إلى أين أوجه تحياتي له، إلى الأرض أو إلى السماء.

34

من الأشخاص الذين شغلوا حيزا من تفكير طفولتي جار دعني أطلق عليه اسم الحاج، وهو شخصية جديرة بأن تشغل مكانا بارزا في عقلية طفل يعيش في ذلك الزمان والمكان، ولقد ارتفع مقامه في أنظارنا إلى مستوى جعله أقوى رجل سمعنا عنه، أما الأمر الذي زاد في غرابة مكانته فهو أن قوته لم تكن مستمدة من العضلات المفتولة، وانما كانت مستمدة من نفوذه وغناه وعلو مقامه في الحي الذي كنا نقيم فيه، ثم مما كان يترامى عنه إلينا من آن لآخر من الأعمال الباهرة التي يقترن كل ما يتعلق بها بالعنف والتحدي والمشاغبة، بالرغم من أنه كان في نحو الخمسين من عمره.

كان يرتدي بزة سراة المغاربة ولكنه لم يكن يحفل بها في حركاته وتصرفاته، وهو يرتدي الثياب الجديدة دائما، ولكنه يعاملها دائما معاملة الاسمال، ولم يكن يحاول أن يبدو وقورا متناسق الحركات كما يحرص من هم في مقامه من بني قومه، وإنما كان يسير ويتحرك ويتكلم كما يسير ويتحرك ويتكلم الصعاليك، كان جلبابه دائما يميل إلى اليسار وكان صوته مجلجلا، وهو لا يراعي مقاما ولا شخصية فيما ينطق به من ألفاظ، فكان يستعمل مع علية الناس نفس الألفاظ ونفس الأصوات التي يستعملها مع الخدم والرعاة، وكان يحيط نفسه وهو سائر في الشارع بالخدم والحشم وهو يدمدم بينهم كأنه الثور، وبذلك كان يمثل لي نوعا جديدا من أرباب المال، إذ كان يحاول أن يبدو فوق المال فيكنزه ولا يحفل به في نفس الوقت، وكان يعتقد أن مظهر الغنى المحتقر للمال أسمى من مظهر الغنى الذي يبدي به فرحا واغتباطا.

والحقيقة انه كان عصاميا إذ لم يرث غناه وإنما صنعه بنفسه بمزاولة الأعمال العنيفة المجهدة التي ارتفعت به في النهاية إلى القمة، وكان يخطو خطوات ثابتة دون أن يحاول القفز ودون أن يترك بابا لا يطرقه لأجل تحقيق مطامعه في حطام الدنيا.

وقد أراد عمي أن يقلده فابتنى قصرا إلى جانب قصره. وبدأ يعيش مثله في الظاهر ولكنه كان يعيش على عكسه في الواقع، فقد كان تشبهه الظاهري هذا إيذانا بانهيار تجارة عمي وبالتالي تجارة والدي.

وجدنا صاحبنا «الحاج» صديقا لعمي حين عودتنا من منشستر، وبحكم هذه الصداقة وبحكم الجوار أخذت الأواصر تتمتن بينه وبين والدي، بالرغم من أنه كان يعرف ان تشبه عمي بالحاج كان هو سبب الكارثة.

وكثر تردد الحاج على والدي وكثر تردد والدي على الحاج، إلى أن أصبحا صديقين حميمين، وبدأ والدي يشارك الحاج في أعماله بالزريبة كما سبق أن قلت، ثم في الزراعة إلى أن تحسنت أحواله وانفصل عنه سريعا، وقد كان لوحدة المهنة بين الرجلين أثر كبير في تمتين أواصر الصداقة بينهما.

وقد شغلت عمي مشاكله عن الحاج فانقطعت بينهما العلاقة القديمة وظل أبي وحده صديقه المصطفى، فكانا يضطربان أثناء النهار فيما كتب عليهما أن يضطربا فيه من أمور الدنيا، ثم يعود والدي إلى المنزل بعد الغروب ويظل معنا إلى أن يؤدي صلاة العشاء، ثم نتناول العشاء حتى إذا ما جلسنا قليلا بدأنا ننفض من حوله لنأوى إلى أسرتنا، فيرتدي والدي ثياب الخروج ليقضي السهرة عند الحاج، لا لمناقشة شؤون المهنة ومعالجتها كما كانا يفعلان طول النهار ولكن للعب الورق.

وكانت جميع مصطلحات اللعب وأسماء الأوراق واسم اللعب نفسه

(التريس) يرجع إلى أصل إسباني، ولقد وصفت لعب الورق فيما مضى من هذه الفصول حينما تحدثت عن سهرات منزلنا بانجلترا، ولو أردت أن أصف ليلة من هذه الليالي التي كان يقضيها والدي عند الحاج لما استطعت إلى ذلك سبيلا، لسبب بسيط هو انني لم أصحبه مرة واحدة إليها، وينحصر كل اتصال بيني وبينها في تلك الليلة المشؤومة التي اضعت فيها نقود حذاء والدي، واضطررت إلى أن أذهب إليه عند الحاج، لأن المنزل كان مقفلا.

لماذا ؟

لأنني لم أكن أستريح إليه اطلاقا، وكنت أكره صلفه والطريقة التي كان يصدر بها الأوامر وميله إلى الظهور بمظهر الجبروت والطغيان، وكنت لا أستريح إليه بالرغم من أنني كنت أعرف أن عقدة نفسية عميقة هي التي كانت ترسل إلى السطح بهذه الفقاقيع، أما قرارة نفسه فلاشك في أنها كانت صافية هادئة بريئة كقرارة نفس طفل بريء.

على أن لمسي لحياته وبعض ما يجري فيها يرجع إلى الزيارة التي كنت أقوم بها لمنزله أثناء غيبته باعتباري طفلا صغيرا. كان منزله رائعا حقا، ولاشك أنه يفوق في روعته منزلنا الذي وصفته فيما مضى، وكان يقيم فيه مع زوجتيه.

وكنت أعرف بالرغم من صغري المشاكل المتشعبة التي تنجم عن وجود الزوجتين في منزل واحد، ولكن وجودهما معا تحت سقف واحد في منزل الحاج لم تنجم عنه أية مشكلة.

كانتا تتبادلان المودة ولا يراهما الانسان الا على وفاق، وقد تفننتا في الاحتفال بحياتهما مع زوجهما حتى أصبح القصر الصغير عشا هنيئا ترفرف عليه سعادة لا يعكرها من آن لآخر، إلا محاولة الحاج أن يزج بينهما بزوجة جديدة، وهنا ينقلب العش الهنيء إلى بركان ملتهب ضد

المرأة الدخيلة إلى أن تجلو، ولكن هذا لم يكن يمنع الحاج من إعادة المحاولة لتنتهي كسابقتها إلى الفشل الذريع، بفضل اتحاد الزوجتين الصديقتين، ولعله كان يحاول دون جدوى السعي بينهما بالوقيعة لتحقيق أمنية، طبقا لمبدأ فرق تسد.

ومما كان يزيد في عجرفة الحاج انه لم يكن يرى في الشارع وهو يسير على قدميه، فإذا نزل إلى قلب المدينة حيث يوجد متجره امتطى صهوة بغلته الفارهة، وكثيرا ما كنا نقلع عن اللعب لننظر إليه وهو ينهب عليها العقبة ومن ورائه خادمه الأسود مجهد الأنفاس، ولم يكن يلتفت شمالا أو يمينا، ولم نكن نسمعه يلقي بالسلام إلى أحد من المارة كما تقضي بذلك اللياقة في هذه البلاد، وكانت البغلة سوداء لامعة ضخمة الأنحاء، هائلة الكفل، تسير مرفوعة الرأس كأنها فخور بجمالها ومكانة الرجل الذي يمتطيها، أما عند خروجه من المدينة فكان يركب سيارته الأمريكية الفاخرة التي لم نكن نكاد نسمع صوتها حتى نهرع إليها لننظر إلى الرجل الخطير وهو يغادر منزله ليختفي فيها على عجل كما لو كان أقدس من أن تقع عليه عين بشر... ثم تتحرك به السيارة في الشارع الضيق، ثم تنعطف وتستمر بطيئة إلى أن تتسع الطريق فتزيد سرعتها ثم تختفي عن الأنظار.

وذات يوم سمعنا أن الحاج، ذلك الرجل الهام قد أصيب في حادث سيارة، وطال عنا غيابه، فلم يكن عندنا أي شك في أنه سوف يصبح بعد هذا الحادث شخصا آخر لين العريكة دمث الأخلاق، ولكننا، حينما عاد إلى حياته الطبيعية، وجدناه على عكس ذلك، فقد أصيب في فكه، وأصبح يتكلم بفم معوج وعلت صوته بحة مقيتة، فجعله ذلك يبدو أكثر عنجهية من ذي قبل.

ولم يسبق أن وجه الحاج الحديث إلينا الا مرة واحدة، وذلك حينما

ذهبنا أنا وابن عمي إلى الزريبة مبكرا، فإذا بنا تمر به صامتين من شدة الخوف، فلما تجاوزناه وأصبح عنا بعيدا عاد إلينا مرحنا، وهنا رفع ابن عمي صوته وفمه معوج، وهو يصطنع البحة كأنه يصدر أمرا إلى أحد الخدم وهو يقلد الحاج.

وما كدنا ندخل الزريبة حتى دخل من ورائنا كأنه الثور الهائج، وأرسل سيلا من السباب في وجهنا بفمه الذي ازداد اعوجاجا وصوته الذي ازداد بحة، وقد هاله أن يسخر منه ويستهتر به صبي صغير، ثم انصرف عنا منتفخ الأوداج تاركا في آذاننا الصرير الرتيب الذي كان يحدثه حذاؤه الفاخر وهو يسير، فتركنا وركبنا تصطك من الرعب بعد الزوبعة التي أحدثها.

وقد دفع ابن عمي الثمن غاليا حينما رجعنا إلى المنزل في المساء، ولعل عمي بالغ في ضربه ليسمع الجار الخطير صياحه ويعرف ان الصبي الأرعن لقي الجزاء العادل على جرأته التي تجاوزت كل الحدود.

35

لن يجد القارئ صعوبة كبيرة إذا هو أراد أن يضع يده عن طريق النماذج البشرية التي تحدثت وسوف أحدث عنها في هذه الفصول ــ على هذا الشخص الصاخب في ظاهره المتواكل في باطنه الذي تنازعت حياته عوامل قاسية تكفي لتفتيت الصخور، وهو يواصل السير في هذه الطريق الطويلة المملة التي رسمها أجداده منذ عشرات وعشرات من السنين : الرجل المغربي. أما المرأة المغربية فإنها إذا كانت تسير بصفة عامة في نفس الطريق الذي شقه لها نفس الأجداد منذ الأزمنة الغابرة، وإذا كانت حياتها أقسى في بعض الجوانب ــ وخصوصا الجوانب العقلية ــ من حياة الرجل، فإن هذه الحياة تحفل بجوانب جزئية تسترعي الأنظار، ولا نستطيع أن نواصل الحديث دون الوقوف عندها.

ان جوهر المرأة هو جوهر المرأة في كل زمان ومكان سواء كان ذلك في عصور الانحطاط أو عصور الرقي البشري، لأن الواجبات التي فرضتها عليها الطبيعة والقيود التي فرضها عليها المجتمع لم تستطع في أي وقت من الأوقات أن تصرفها لا أقول عن مستلزمات الأنوثة والتفاني في الزينة فحسب، ولكنها لم تستطع أن تصرفها أيضا عن هذه الظواهر التي اعتاد الرجل أن ينظر إليها على أنها من المخافات التي يقولون عنها أنها خاصة بالنساء، ترفعا عنها وانكارا لها.

ومهما تكن واجبات المرأة قاسية في منزلها بين زوجها وأطفالها وسائر أفراد عائلتها فإنها إلى نهاية، وإذا لم تنته من تلقاء نفسها انهتها هي انهاء، لتتفرغ لهذا الجانب الواهي الذي يمتن علاقتها بأنوثتها، والمرأة في كل

زمان ومكان بالرغم من كل القيود التي فرضت عليها بعيدة عن أن تتقيد بأي قيد فيما يخص هذا الجانب من حياتها.

هناك كثير من المغاربة يظلون يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة، يعيشون حياة رتيبة لا يسيرون فيها الا من أمكنة عملهم إلى منازلهم ومن منازلهم إلى أمكنة عملهم، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، لا يخطر على بالهم ان يفكروا في ادخال أي تغيير على أساليب الحياة التي ابتلوا بها، فالتصقت عيونهم بالأرض، واثقلت كواهلهم أعباء السنين، ومع ذلك لا تستطيع أفظع الكوارث أن توقظهم من غفلتهم، وهم يسيرون هذا السير المتثاقل الكئيب في الطريق الطويلة التي تربط بين المهاد واللحود.

يضرب على الطفلة ستار من حديد منذ سن مبكرة، ثم يختار لها بعل لم تره من قبل، ثم تلقى عليها أعباء الحياة المنزلية الفادحة، في حياتها الجديدة، ومع ذلك تتلمس طريقها إلى الهواء الطلق وتحاول أن تحدث من الحركة والتغيير في حياتها ما يساعد على تخفيف وطأتها. بل ما يساعد على نسيان أن هناك وطأة على الاطلاق.

وقد استطاعت أن تخلق في المنزل جملة من التقاليد التي تجعل هذا الأمر أو ذاك من شأنها وحدها لا تدخل للرجل فيه، ومن ذلك أنها حرمت على الرجال منطقة بأسرها من المنزل هي منطقة السطح على اعتبار أنها خاصة بالنساء، لا يجوز للرجل أن يطرقها في لعبة الظهور والاختفاء التي تلعب على مر الحقب والأزمان بين الجنسين في هذه البلاد.

وبذلك أصبح في كل مدينة عالم للنساء لا يشارك فيه الرجال هو عالم سطوح المنازل، ولكن المرأة لا تنفرد بعالمها بل تشارك الرجل في عالمه الأرضي أيضا.

وعندما تنتهي الواجبات المنزلية بعد تناول وجبة الغداء، ينصرف النساء إلى الزينة ولبس الثياب الفاخرة أو الزاهية، حتى إذا ما استكملن تجملهن

في العشية، بدأت الوجوه الجميلة والألوان والحلي تظهر رويدا رويدا على سطوح المنازل، وعالم السطوح عالم كامل يضطرب بكل ما تضطرب به الأرض من مودة وشقاق، وسائر هذه الخلجات التي تضطرب بها قلوب الناس في الحياة.

وينصب السلم لتنتقل هذه إلى تلك وتنتقل تلك إلى هذه، وهن يعرضن أنفسهن للخطر في هذا التنقل، ثم تقفز الخلجات الانسانية لتصبح كلمات على الأفواه :

ــ أما رأيت «عائشة»، يالها من شقية، انها تقف بين السطوح كالجنية في طريقها إلى صاحبتها «زهور»، لابد ان تحت رأسيهما سرا، لا تقلقي فسوف اكتشفه.

ــ انظري، أنظري، ذلك الثوب الحريري الذي حدثتك عنه، ان «خدوج» ترتديه هناك على يسارك، وهي تتظاهر بالتحدث إلى جارتها، ولكنها في الواقع تتباهى به، انها معذورة لأن زوجها مستحدث غني، ولا عهد لها بالثياب الفاخرة.

ــ حقيقة أن «فاطمة» طفلة بهيجة رائعة. انظري إليها وهي تخطو كالملاك عتبة باب السطح، كيف تحيي، كيف تبتسم، لشد ما أتمنى أن أخطبها لابني «عبد اللطيف»، ولكنه ما يزال مشغول البال بهذه السفاسف التي كثرت حوله في شكل الكتب والمجلات... سوف يعفيه الله مما ابتلى به، ويدفعه إلى مصاف العقلاء فيفتح له والده متجرا، ولكن من يضمن أن لا يخطب «فاطمة» تاجر من تجار شباب الحي النبهاء الناجحين.

ــ مسكينة فاخته لقد تجاوزت الخامسة والعشرين من عمرها ومع ذلك لم ترزق بزوج، ومن يدري لعل الله أن يكون قد عاقبها على حدة لسانها، لا تنظري إليها، تظاهري بالانهماك في الحديث معي، انني أخشى أن تلسعني.

ـــ انتظري أن نفرغ من شرب الشاي، فسأقوم لألقى على ثريا درسا لا تنساه، فلقد شتمت ابني وهو يلعب مع ابنها في الدرب، وسوف تعرف ان الأصل الوضيع لا يخفى عن عين ثاقبة مثل عيني...

ـــ اما تستطيعين التأثير على ابنك حتى يكف عن التدخل فيما لا يعنيه، انه يسجن للمرة الثالثة وهو دون الخامسة عشرة من عمره.

ـــ ألم تلاحظي «مليكة» تكثر من الانتقال إلى سطح «أولاد بناني» لتقضي الأمسية تلو الأمسية مع «خديجة ؟» يخيل إلي أن في الأمر سرا، انها تتجه إلى باب السطح من حين لآخر متضاحكة، لكأني أرى ظل أخ خديجة عند باب السطح، يتزوجها ؟ هذا الثعلب يتزوجها ؟

انظري إليها، لم تمر سنة بعد منذ وفاة زوجها ومع ذلك ترفع صوتها في الحديث، ياللشين !

ثم آلاف من هذه العبارات التي تخفى تفاعلا لا عهد للرجل به بين المرأة والمجتمع النسائي، ولا يقتصر الأمر عليها بل يتعداها إلى الاشارات تتبادلها النساء من سطوح المنازل المتباعدة، كأنها إشارات بين سفن ضالة في محيط تستعمل فيها المناديل والأيدي والأصابع بدلا من الأعلام...

وتشير هذه المناديل بالطبع إلى عبارات مقتضبة مثل : أحبيك، كيف أنت ؟ لماذا لا تزورينا ؟ كيف أولادك ؟ هل زوجك بالمنزل ؟ متى تذهبين إلى الحمام ؟، أين أختك. متى تضعين ؟، سأزورك غدا... الخ.

ولنساء الحي بالاضافة إلى عالم السطوح ناد خاص يتجمعن فيه بضع مرات كل شهر، وهذا النادي النسائي هو الحمام، الذي كان يثير في نفسي من الاهتمام مثل ما يثير، عالم السطوح.

كان الذهاب إلى الحمام لدى النساء شبيها بالذهاب اليوم إلى الأوبرا أو السينما تضرب له مواعيد قبل أيام، وتتخذ له الأهبة اللازمة، ثم يتحرك

موكب المرأة من منزلها في ركب من البنات والأطفال والقريبات والخادمات، ويختفي الموكب خلف باب الحمام الضخم، ويحتجب نهائيا عن عالم الرجال عدة ساعات طويلة بعد الظهر قد تمتد إلى المساء...

وإذا كنت قد اعتدت أن أرتاد دائما عالم السطوح النسائي، فإنني لم أدخل الحمام أثناء الوقت المخصص للنساء الا مرة واحدة، وكان ذلك عقب عودتي من انجلترا مباشرة.

ولعلي لست في حاجة إلى أن أقول أن مهمة الاستحمام آخر داع يدعو النساء إلى ارتياد الحمام، وان كان قد هالني صبرهن على إطالة المكث في هذا الجزء الداخلي الملتهب، الذي كنت أشعر فيه بعد دقائق بأن قلبي يتفصد عرقا، وهن ماضيات جماعات فيما أتين إلى الحمام من أجله وهو اشباع نهم فضولهن واتراع حياتهن الفارغة، بأكبر ما يمكن من الاخبار والأحداث والاشاعات، فيتزودن بها ليستقين منها مادة غزيرة تسعفهن في الثرثرة خلال المدة التي يقضينها سجينات في المنزل... أو متنقلات بين السطوح.

ملأ الحمام نفسي رهبة للغبش المبهم الذي يسوده، فتنقلب الأجسام العارية إلى أشباح طويلة أو قصبيرة هزيلة أو ضخمة تتجمع وتتفرق في الزوايا لمبعثرة، وقد ملأت أرجاء الحمام بالهمس والصياح والضحك والثرثرة.

حتى إذا ما انتهين بعد مدة مما كن فيه، خرجن ليرتدين ملابسهن في هذا المكان الخارجي الذي يدعي «بالجلسة»، فيتكدسن فيه وهن ماضيات في أحاديثهن التي لا أول ولا آخر لها، وانها لجلسة يعقدنها ليطرحن على بساط الثرثرة كل ما حدث منذ تقابلن لآخر مرة، في شكل أقاصيص مفصلة بعيدة كل البعد عن الأحاديث المقتضبة والاشارات العابرة التي يتبادلنها كل مساء في عالم السطوح، وان «جلسة الحمام»

هذه لأصلح مكان لاذاعة الأنباء، فلا تلبث أن تصبح منتشرة في صباح اليوم التالي في سائر أنحاء الحي أو المدينة، وكانت الواحدة منهن تروي أخبارها بأنفاس متلاحقة وباهتمام بالغ لاستغلال كل ما لديها من وقت، ولاتاحة الفرصة لغيرها حتى تسمع منها كل ما لديها من أخبار، وان لهن بين أتفه الحوادث وبين أروع الفضائح مجالا لا ينتهي لاشباع نهم الأخبار والاستخبار، فيبعث الموتى وينشر التاريخ وتستقصي السير ويعرف من اغتنى ومن افتقر، وفضائح المتظاهرين بالتقوى، وحسنات المشبوهين والمتمردين. كما تعرف الأثواب التي اشتريت والأذواق التي انتشرت، ويعلن عن المتاجر التي تبيع هذه الحلية أو ذاك العطر، إلى غير ذلك مما يخوض فيه النساء في كل زمان ومكان.

ولو كان في استطاعته أحد أن يسجل أحاديثهن لأصدر في صباح اليوم التالي صحيفة ملآى بالقصص والأخبار والنوادر والأذواق والاعلانات كأية صحيفة سيارة.

ولكنهن هن أنفسهن يقمن بمهمة الصحيفة حينما تعود كل واحدة إلى المنزل ليسمع الآباء والأزواج والاخوان ما لا يمكن أن يترامى إليهم لولا ذلك بالرغم من أنهم غير معجبين وغير خاضعين لهذه القيود الثقيلة التي يخيل للرجل في المغرب أنه قيد بها المرأة.

يسمع الأب أو الزوج أو الأخ ــ أو هم جميعا ــ على مائدة العشاء مساء يوم الحمام ما يقدم لهم ألف دليل على أنهم لا يعيشون في مجتمعهم، فمنهم من ينصرف إلى الاستماع بكل جوارحه، لكي يمتن العلاقة بينه وبين ما يجرى حوله من أحداث، ومنهم من يتثاءب أو يهز رأسه أو يبتسم دون أن يعرف لماذا يتثاءب أو يهز رأسه أو يبتسم، وهو ينظر إلى المرأة الثرثارة في بلاهة لأنه يفكر على صوتها في مستلزمات الدنيا التي تستبد بتفكير الرجال في هذه البلاد التي كانت تضيق فيها

سبل العيش كلما تقدمت بها الأيام، بينما تمضي هي في حديثها غير آبهة بانتباهه أو عدم انتباهه كما يفعل الحاكي.

«لقد بلغ من العمر عتيا ومع ذلك تزوج فتاة في مثل سن حفيدته، انني مندهشة كيف تقبل فتاة في مثل يفاعتها أن تضمها غرفة مع هذا الهيكل العظمي، ولكن ما ذنبها ؟ لقد باعها والدها، وهل تملك الا أن تطيع ؟ هل تعرف ماذا صنع ابنه الأكبر ؟ غضب غضبا شديدا، وهجر منزل والده مع والدته وهو يصب على رأس أبيه اللعنات جهارا، أما ابنته فلم تبادل الزوجة الجديدة كلمة واحدة منذ دخلت المنزل، بالرغم من تهديدات الرجل الهرم...

ومع ذلك يمر في الشارع طاهر الديل كأنه من أولياء الله الصالحين، قلت لك منذ زمن بعيد أن هذا الرجل يحترف الوقار... وان وراء ابتسامته الوديعة أنيابا فاتكة... أما الزوجة الجديدة فتقضي نهارها في زاوية من غرفتها في وحدة قاتلة... لقد سمعت اليوم من صديقة لها أنها حامل... يا للجريمة ! سيفصل بينه وبين ابنه قرن من الزمان... ولكن المرء لا يدري بماذا تجري تصرفات الليالي، ولذلك فيحسن ان اقلع عن الخوض في سير الناس.

نسيت... نسيت أن أقول لك ما هو ادهى، ان الشريف الكتاني الذي قدم للدراسة بالقرويين من تطوان وأقام عند ابن عمه... الخ، الخ».

36

كنا خمسة أطفال تم اتفاق بيننا على أن نتقابل في الصباح، لنقطع هذه المسافة القصيرة إلى حمامات «سيدي حرازم» فانصرف كل واحد منا طول الليل إلى اعداد ما نحتاج إليه لقضاء يوم كامل في هذه الحمامات، ذات المياه الدافئة التي شغفت بها حبا.

ولما تمت الاستعدادات انطلقت أمني النفس بغد بديع أقضيه بالحمامات الموموقة في ظلال النخيل الباسق، وبت أتخيل نفسي أجري وأتسلق الأشجار وألقي بجسمي النحيل إلى المياه ضاحكا مغتبطا، ثم أصعد منها ضاحكا مغتبطا أيضا، وهكذا قضيت الليل أحلم إلى الصباح.

وحينما أراجع ذاكرتي أجدني قد استيقظت في الصباح مبكرا لأسعى إلى باب الفتوح، حيث كان أصدقائي الأربعة في انتظاري، وبعد لحظات أجد نفسي في سيارة كانت تلتهم بنا الطريق التهاما، وهنا يجمل أن أقول أن كلمة «السيارة» فيها كثير من التجاوز، لأنها لم تكن تزيد على عجلات أربع الا قليلا.

وأيقظت نسمات الصباح روح المرح فينا فتلاعبنا وتعابثنا وتبادلنا رواية الحكايات المضحكة، لم نقلع عن عبثنا الا بعد أن أحسسنا بالسيارة تتوقف فجأة.

ولما توقفت أحسسنا بآمالنا تنهار، ولكننا قررنا أن لا ندعها تفعل دون مقاومة، توقفت السيارة واطللنا من نوافذها فرأينا الجنود يحيطون بنا من كل مكان، ولما استطلعنا جلية الأمر قيل لنا أن الدخول إلى «سيدي حرازم» ممنوع. لماذا ؟ صاحب الجلالة محمد بن يوسف يوجد فيها.

أما اننا كنا متفانين في حب جلالته فهذا لاشك فيه، وأما اننا كنا نتصور أن من الممكن أن يكون في وجوده بالحمامات مدعاة لطردنا منها فهذا ما عجزنا عن الاقتناع به، لذلك قررنا عدم العودة، ونزلنا من السيارة وصرفنا صاحبها، وأخذنا نقلب الأمر على وجوهه.

طفنا بالمكان فإذا هو محاط به، وأرسلنا أبصارنا حوله مستكشفين باحثين، وقدرنا ودبرنا، وبينما نحن هكذا حانت التفاتة أحدنا إلى الجبل المتعالي : إذا كان في استطاعتنا أن نتسلق هذا الجبل ونعبره ـــ وهو حافل بالأشواك ـــ فإن في استطاعتنا بعد ذلك أن نصل إلى الحمامات ونحن بمنجى من عيون الحراس، وماذا يمكن أن يحصل لو تسلقناه ثم انحدرنا إلى الحمامات الجنوبية البعيدة التي لاشك أن جلالة الملك سوف لا يصل إليها !

وهكذا استطعنا أن نجعل الجمع بين وجودنا ووجود صاحب الجلالة في الحمامات أمرا ممكنا، وانطلقنا نتسلق الجبل المنيف، ونظرت إلى أصدقائي ونحن في منتصف الطريق فإذا صدورهم دامية من أثر الشوك، وبعد استراحة قصيرة انطلقنا نستأنف السير نحو السماء إلى أن وصلنا إلى القمة، وهناك أشرفنا على الحمامات، يا للمناظر الطبيعية الرائعة ! ياللسهول الشجراء البديعة !

ولم نجد كبير عناء في الانحدار إلى الحمامات، وفي حوض ناء بعيد في المنخفض الواقع خلف الأحواض الرئيسية قضينا يوما من أحفل أيامنا، ثم انطلقنا نقفز ونعدو ونتضاحك إلى أن كلت جهودنا، وسبحنا ما شاء لنا نشاطنا، ثم تعبنا فأوقدنا من الحطب نارا، ووضعنا على النار طعامنا، ثم التهمناه، وتمنينا لو كان معنا غيره، لأن المجهود الذي بذلناه كان قد أحال أجسامنا الصغيرة إلى نار تلتهم قطرات الطعام.

واستلقينا على الأرض في الظهيرة من شدة التعب والشبع والرضى عن

الحياة، في هذه اللحظات الممتعة التي تأتي على الانسان فيتمنى لو كان في استطاعته أن يضم الكرة الأرضية إلى صدره ويوسعها لثما وتقبيلا... وانصرفنا نتأمل الشمس اللامعة من خلال أغصان النخيل ونحن راضون عن أنفسنا وعما لاقينا من المسرة في يومنا البهيج هذا من أيام الربيع.

ضحكنا ما طاب لنا الضحك، ولعبنا ما طاب لنا اللعب. ثم استلقينا بعد الغداء نتأمل السماء الحافلة بالزرقة والضياء. وأخذ منا الفتور بعد ذلك مأخذه، واستسلمنا لسنة حالمة تحت النخيل الباسق، فوق ربوة صغيرة، وعند أقدامنا الحوض الصغير، إلى أن كاد الكرى يضمنا بين ذراعيه الرحيمتين الرفيقتين.

ولكنه ماكاد يفعل حتى جلسنا بحركة واحدة على قعقة السلاح، وأرسلنا بصرنا شمالا ويمينا لنعرف ماذا حدث، وعندما استفقنا تماما عرفنا أن الحركة الملكية امتدت إلى جنوب الحمامات وعرفنا أن تقديرنا قد خاب، وادركنا في الحال حقيقة موقفنا، كان الدخول إلى الحمامات ممنوعا ومع ذلك دخلناها، وقدرنا أن جلالة الملك سوف لا يصل إلى الجنوب ومع ذلك وصل، فأين المفر ؟

ماذا يكون مصيرنا إذا علم القوم بوجودنا في ذلك الزمان المظلم القاسي الذي لاشك أن كل واحد منا يتمنى أن لا يعود.

وفي سرعة البرق أرسلت بصري شمالا ويمينا فأدركت عيني هذا الستار الذي يحول بين بصري وبين رؤية السماء كاملة، أغصان النخيل ممتدة في كل اتجاه فوق الغدير الدافئ، فهمست إلى أصدقائي بصوت مرتعب، إلى أغصان النخيل، لنختبئ فيها، فإن عيون الحراس لن تنالنا هناك، ثم سوف يكون في استطاعتنا أن نرى جلالة الملك إذا صدق حدسنا، فقد خيل إلينا بعد ذلك أن جلالته عازم على زيارة الحمامات الجنوبية.

لا سبيل لنا إلى النجاة الا في حالة واحدة مشكوك فيها، هي أن نتسلق

النخيل ونختفي في سعافه فان من المرجح أن جلالته في طريقه إلى جنوب الحمامات، والا فما معنى حركة الجنود هذه التي تدركنا جلبتها من كل مكان.

وفي لمح البصر كنا قد اختفينا في سعاف النخل فبدت أجسامنا الصغيرة العارية الدامية كأنها جزء منها.

وسكنا، ولكن عيوننا كانت يقظة متحركة متطلعة إلى الحوادث المقبلة، إلى أن بدا لنا من الواضح أن الحركة تتركز مباشرة في الحوض الطبيعي الذي يقع تحت السعاف الذي كنا نتسلقه، فخمدت أنفاسنا.

همست بين الأغصان : لقد صدق حدسي، ان جلالته قد أقبل، فانتفضت الأغصان عقب حركة رؤوس الأطفال الأربعة، وهم يتجهون ببصرهم في نفس الاتجاه الذي يتجه إليه بصري.

ثم هدأت الحركة وسكنت الأنفاس وظللنا في مكاننا هادئين كأننا قطعة من النخيل، ولكن عيوننا كانت تتحرك... كانت تتبع هذا الوجه الكريم الذي ينحدر صاحبه إلى الغدير، كان شابا نحيلا ولكن في وجهه نور... وديعا ولكن في عينيه قوة... تقدم دون تردد إلى الغدير، ورفع عينيه إلى السماء كأنه يتأمل البون الشاسع بين حريتها وما ترسف فيه الأرض من أغلال، وشع النور في عيوننا ونحن نتأمل محياه الكريم، ولكن قبل ذلك كان النور قد شع في قلوبنا.

انني أرى هذا الوجه السمح من قريب لأول مرة سمعت عن الملك الحر كثيرا وتمنيت أن أراه، ولكن لم يخطر على بالي انني سوف أراه لأول مرة في ظلال أغصان النخيل عند حافة الغدير في محيط تتمثل فيه الحرية بأصدق معانيها أجلى تمثيل.

انني أسمع اليوم بسجاياه وشمائله فينثني بي الفكر إلى هذه الصورة القديمة، فأعرف معنى ما أسمع، انه الملك الحر الذي انعكست صورته

ذات يوم من أيام الطفولة على صفحة الغدير الدافئ، ووجوهنا الصغيرة تطل من بين أغصان النخيل.

همس أقرب فتى إلى النخلة بأخفت ما يستطيع : انه الملك ! جلالة الملك ! ياللبوم الرائع ! لم يخطر لنا شيء من هذا على بال ! أليس كذلك ؟

فهمست : اوقف حركة شفتيك، الا تعرف انك في خطر، أخر الكلام إلى يوم آخر، يوم آت لا ريب فيه، أما الآن فلا تنس الجنود، أنظر إلى عيني الملك الفتي، عينان تقولان : لا تتحركوا، ليس الآن، انني أعرف العاطفة التي تخفق بها قلوبكم أيها الصغار المتعلقون بسعاف النخيل، بل أراكم بقلبي، ولكن ليس الآن، في وقت آخر...

ان هذه النظرات المتبادلة بين قلبي وقلوبكم هي ضمان المستقبل، فثقوا بسعف النخيل الذي يحمل أجسامكم الصغيرة...

وأحسست بجاذبية تأسر عيني وأنا أنظر إلى جلالته، لم يكن النور يطفح من وجهه كما يفهم النور في هذه الأيام، كان يطفح من جبينه ويتعلق بالنخيل، ويهمس في آذاننا أنكم في ضميري، انكم همس دائب لا يمكن أن أنساه.

وانسحب جلالته، فما كاد يختفي عن الأنظار حتى رفع عينيه ونظر إلى أعلى النخيل والتقت عيوننا، وأحسست بمعنى قوي يتسرب إلى أعماق نفسي، معنى يهمس في الاذن ! ويتردد في العقل، ويوقظ إحساسا عميقا في الضمير.

فلما انسحب جلالته تساقطنا من النخلة الواحد تلو الآخر لنتنفس الصعداء، ولست أدري لماذا استيقظت في نفسي بهذه المناسبة تلك الصورة القديمة، يوم مر عاهل المملكة المتحدة وامبراطور الهند جورج

الخامس بالشارع الذي كنا نقيم به في منشستر، فانقلبت أستعيد تفاصيلها في صمت.

ولقد أقلعت منذ ذلك الحين عن النظر إلى الملوك على انهم فوق البشر، أو أشخاص خياليون حينما رأيت جورج الخامس وأنا صبي صغير، ولكنني حينما رأيت محمد الخامس وأنا طفل قد بلغ أشده رأيت المثل الحي الصادق على أن الملوك من صميم البشرية.

وشهدت المدينة ذات مساء من ربيع سنة 1935 خمسة أطفال يؤوون إليها، وبين جنوبهم قلوب جذلى، وفي عيونهم بريق الغبطة.

بارحوها في الصباح للنزهة والرياضة، فنالوا من ذلك فوق ما كانوا يأملون، بل وأضافوا إليه انهم رأوا عن قرب وجه مليكهم من بين سعف النخل على حافة الغدير.

37

هل كنت على موعد دوري مع هذا الملك الذي قيل أن الله وكل به قبض الأرواح ؟ وإذا لم يكن هذا صحيحا فلماذا داهمني مرتين متواليتين في هذه الفترة من حياتي، وهي فترة بهيجة لا أزال أذكرها إلى اليوم بكل خير. ان من المرعب أن أذهب إلى القول بأن عزرائيل أصبح يداهم أحيانا الأحياء في الأموات ليذكر الأولين بأن الحياة خرافة يرويها أحمق كما زعم شكسبير.

ومهما يكن من شيء فقد أصر الموت على أن يبسط شبحه الكالح في حياتي من جديد، فأرسل شباكه ليصطاد شخصين من الأسرة على التوالي، فهالني اختفاؤهما، وكاد يقضي على كل تحسن طرأ على مرضى النفسي بسبب وفاة أختي...

وإذا كان من المستحيل أن أعرج بالبحث على كل الأشخاص الذين اضطربوا في طفولتي لكثرتهم، فإنه لا مناص هنا من الاشارة إلى أنه كانت لي ابنة عم تدعى «زهور» كنت أعزف عنها عزوفا شديدا لما كانت تتسم به من مظاهر الكسل والخمول، وبالرغم من أنها كانت تكبرني سنا فقد بذلت جهدا صادقا باء بالفشل في سبيل اثارة حيويتها ونشاطها، ولكنها ظلت مصرة على التذرع بأسباب الكسل والخمول، الأمر الذي ضاعف عزوفي عنها.

ومما يؤسف له أنه أصبح في استطاعتي الآن أن أدرك أن ما كنت أبذله من مجهود ساذج هو الذي أثار عنادها، فازداد تشبثها بموقفها، ولم يكن في استطاعتي أن أدرك في ذلك الحين أن هذا الصراع المتبادل بيننا

كان يرجع في صميمه إلى عاطفة غامضة متبادلة بلغت من الغموض مبلغا حملنا معا على أن لا نهتم بها.

ومضيت أنا في التشهير بخمولها وكراهيتي لها في المنزل، ومضت هي — وأسفاه — في التعبير عن التسامح إزاء كل ما كنت أبديه نحوها من تشهير : حتى إذا ما تقدمت الأيام أصبحنا الشخصين الوحيدين بالمنزل، اللذين لا يتبادلان الحديث.

ثم تقدمت، الأيام مرة أخرى فقيل انها مريضة، فما زادني ذلك الا اصرارا على الابتعاد عنها، وانني لأعجب اليوم كيف استطاعت هذه المخلوقة الضعيفة أن تثير في نفسي مثل هذا الغضب الهائل، حتى إذا ما تواترت الأنباء في المنزل — وزهور طريحة فراشها بالدور الثاني منه — بأن حالتها تتطور رويدا من سيء إلى أسوأ، رفضت أن أعودها، إنني لأعتبر نفسي بطبيعة الحال من أشد الناس الماما بما يتصل بي، ومع ذلك لا أجد أي تعليل لهذا الموقف الشاذ الذي وجدتني أقفه في تلك الفترة المشؤومة، وبالرغم من غضب أمي التي أغلظت لي القول فقد تضاعف إصراري.

ولست أذكر إلى الآن انني وقفت مثل هذا الموقف من قبل ولا من بعد، هو موقف يثير في نفسي الاستغراب وأنا أسجله هنا، وان كنت أجهل السبب الحقيقي العميق الذي دفعني إلى أن أقفه.

وطال مرضها بمقدار طول اصراري على الا أعودها، ثم حل اليوم الذي قيل لي فيه أنها على حافةَ الهاوية، فشعرت بالندم يطبق فكيه على فؤادي اطباقا لا رحمة فيه، وتجاوبت في نفسي عاصفة مباغته، وترامت في سمائي سحب كثيفة ما لبثت ان تحولت إلى دموع تترقرق في عيني.

ان «زهور» تلك الصبية الخاملة التي طالما أثارت غيظَي تلفظ أنفاسها الأخيرة في الغرفة التي تقع مباشرة فوق المكان الذي أنام فيه، أليس هذا مثيرا ؟

وفي سرعة البرق استيقظ في نفسي معنى غريب، يالتفاهة هذه العواطف العنيفة التي تضطرم بها صدورنا ونحن نخوض مع إخواننا البشر خضم الحياة اللجب، بكل ما فيها من تفاصيل الاحساس بالكراهية والضغينة وهي تعوي بين ضلوعنا عواء الذئاب.

وهكذا سرعان ما نضوت عن روحي وأنا أسمع كلمة الاحتضار ما كانت ترتديه من اردية الحياة الدنيا، وشعرت بقبس من نور الندم يتوهج في أعماق نفسي، فترقرقت عيناي بالدمع وخجلت عيناي من أن تطلا في أغوار نفسي السحيقة لما علق بها من درن، فإذا بي أسعى إلى السلم لأصعده في صمت، لألقي نظرة أخيرة على الصبية التي أوشكت ان تلفظ أنفاسها.

ومثلت أمامها فإذا بي أجد الطبيب إلى جانبها. وخيل إلي أن الحضور يشعرون بما تلطخت به روحي فانزويت لأجلس في مكان خال، وكان المكان الخالي يقع إلى جانبها مباشرة.

ولأول مرة في حياتي استطعت أن أتابع الموت وهو يقوم بعملية استلاب الحياة، فبدا لي كأنه أفعى برعت، بعد تجاربها التي استغرقت ملايين السنين، في القدرة على رشف الحياة لحظة بعد أخرى من الأجسام البشرية، ان الموت يقرض الروح، ذلك الكتاب التاريخي النفيس...

الموت : له أن يخطو بين البشر ليرسل منهم إلى المشنقة آلافا كل يوم، ومع ذلك يرتع في الحياة حرا طليقا كما لو لم يكن هناك قانون دون في الأرض أو أوحي به من السماء.

وبدت لي «زهور» ابنة عمي كما لو كانت تختفي في سحابة، فلم يكن لي بد من أن أقفز إلى أعماق نفسي باحثا عن تلك المعادن الرديئة دون أن أجد لها أثرا، ان «زهور» الملقاة على فراش الموت، تلك الفتاة التي طالما أثارت في نفسي السخط والاشمئزاز، قد انتهت.

ولكم كان بودي أن أركع عند رأسها البارد لأطبع عليه قبلة استغفار. ولكن الغرفة كانت حافلة بالناس، فلما ترقرقت دموع الحسرة في عيني لم يكن لي بد من أن أغادر المكان إلى هذه الزاوية المظلمة التي اعتدت أن اطلق فيها لدموعي العنان.

ثم دفنت «زهور» وقال قائل انها احتملت مرضها في شجاعة إلى أن عدتها، فلما عدتها لفظت أنفاسها على الفور، اذن أنا القاتل، قتلتها بسلاح خفي معنوي لا تدركه الأبصار...

وما كاد القول يتردد حتى أدركت انه لا يخلو من مغزى، وإذا لم أكن قاتلا فأنا نذير للموت على أحسن الفروض، ياللفجيعة !

ودفنت «زهور» الصغيرة وكان قبرها بأحد الأضرحة الواقعة في طريقي إلى المدرسة، فاعتدت أن أقف برهة أمام بناية الضريح أجيل فيه نظراتي التائهة كأنني أبحث عن شيء غير مرئي ينقذني من الشعور بالجريمة... الجريمة التي لم يعرفها أحد ولم يرها أحد... جريمة قتل ابنة عمي بخنجر الكراهية...

وكان شعوري هذا يزداد وطأة كلما مررت ببناية الضريح، وذات يوم استجمعت قواي وإذا بخطواتي تقودني إلى البناية... ثم إلى القبر... فجلست إلى جانبه وقد قررت أن أطلب من ساكنته الصغيرة الصفح، واكتسحت روحي موجة من التوبة في صدق واخلاص فانهمرت دموعي بغزارة وأخذت أناجي الجثة المختفية تحت أطباق الثرى بعبارات موجعة، وشعرت بعد ذلك بالكرب ينحسر عني، ولكنني قررت أن أفعل ذلك كل صباح فأسعى إلى القبر مستغفرا باكيا. إلى أن أظفر من ساكنته بالغفران، ترى هل غفرت لي !؟

ثم حضرت وفاة أخرى، فزاد ذلك من اضطرابي، فقد كتب أخيرا على جدي ــ ذلك الرجل العنيد الذي أشعر من آن لآخر بأنه ينتفض بين جنبي ــ أن ينام هو أيضا نومته الأخيرة.

38

ولو قدر لهذا الرجل أن ينبغ في غير القوة الجثمانية، ثم الانصراف إلى النجارة، ثم القدرة على تنسيق حديقته لما كان من المستبعد أن يكون رجلا عظيما، ولكن الظروف التي كتب عليه أن يعيش فيها حالت دون ذلك، فلست أذكر أنني قرأت وصفا يمكن أن يأتي على السخرية التي كانت تنفرج عنها شفتاه... ولو عاش في عصر من عصور النهضات الأدبية لما كان شك في أن تؤهله موهبته لاحتلال عرش امامة الساخرين.

ولكن جدي عاش في عصر من أحلك العصور فانكمشت سخريته في قمقم عصره، وهكذا قضى مدة طويلة في الحياة دون أن يكون في استطاعته أن يصنع شيئا، فلما بلغ من العمر عتيا آن له أخيرا هو أيضا أن يستسلم لسلطان المنون.

ولست في حاجة إلى أن أعود بالقارئ إلى حديث مضى ويكفي أن أشير إلى أن تلك الابتسامة التي كان يتمثل فيها أكثر من معنى ساخر أخذت تذبل رويدا رويدا، ثم قيل ان هذا الرجل الذي لا يخامرني أي شك في عظمته يلفظ آخر الأنفاس.

وكنت قد بلغت من الوعي مبلغا لا يدعو إلى الانزعاج حينما أسمع أن رجلا طاعنا في السن قد وهنت قواه فعزف عن الحياة، ووضع رأسه على وسادته وأخذ يتوجه بكل جوارحه في الطريق إلى عالم الموتى، للقيام بالرحلة الأبدية عن هذه الحياة الدنيا.

ولقد أتى على حين من الدهر اعتقدت فيه، وأنا أراقب جدي وهو يمضي في التهام السنوات، انه تجاوز المرحلة التي يقضي فيها الانسان

نحبه، ولكنني ما لبثت أن تبينت أنه أصبح يتداعى في انهياره فجأة، ثم بدأت الساعات الأخيرة تتقلص وتدني ساعة انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولما تبين الرشد من الغي، وأصبح من الواضح أن جدي يحتضر، كانت غرفتي تقع في الدور الثالث من المنزل، فلم أستغرب حينما ترامى إلي أن «الرجل العظيم» قد استقر رأيه أخيرا على أن يسلم نفسه إلى فراش الموت، ولم أستغرب أيضا حينما علمت حتى في تلك السن المبكرة انه عزم على أن يكون عنيدا في مماته كما كان عنيدا في حياته، وكانت قصة خلع جذر الشجرة العتيق تحت الخيمة في «سيدي حرازم» من أبسط الدلائل على ذلك.

وفي سكون غامر من الليل ترامى إلى أذني في الدور الثالث من المنزل صراخ هائل، اعتصرته قبضة ملك الموت من حنجرة جدي وهو يستمد طاقة عناده التي ادخرها خلال الأعوام الطويلة الماضية والتي آن لها أن تنطفئ، فذعرت وجلست في سريري لأصغي إلى الصمت الذي أعقب الصراخ، وأدركت في الحال أن لكل حياة نهاية مهما طالت، وان جدي أصبح من الهالكين.

ثم انطلقت صرخة ثانية مزقت سكون الليل من جديد تمزيقا مرعبا، وكانت شديدة خيل إلي معها ان نجوما من النجوم تناثرت من السماوات لشدة ما أحدثته من صدى تحت قبة الليل المتلالئة الهامدة.

وبينما كانت صرخات جدي المحتضر تسخر من صمت الليل أخذت أسترجع الماضي منذ عرفت هذا الرجل لأول مرة عند عودتنا. من انجلترا، إلى الأيام القليلة الممتعة التي قضيتها معه في حديقته. ثم يتبدد هذا كله على صراخ جديد...

بيد أن جدي الذي عرك الحياة وعركته خلال هذه السنوات الطويلة لم يكن من السهل أن يفارقها دون مقاومة... وإذا كان كبر السن والمرض

وضعف وسائل العلاج قد انهكت قواه فانه لم يكن في استطاعة ذلك كله أن يسلبه ذرة واحدة من عنف المقاومة حتى وهو يواجه مصيره المحتوم.

فازداد اصرارا على أن يواجه ضوء الشمس وظلام الليل بصراخ لا أذكر أنني سمعت مثله في الحياة، ولقد ازداد انزعاجي حينما تبينت أن صراخه يزداد شدة وقوة وتأثيرا بالرغم من مرور الأيام، فهل كان يستمد من مرور الزمان قوة أو ضعفا ؟ وهل كان يريد أن يبرهن للدهر على أن فسحة من الوقت إذا سمح له بها كفيلة بأن تمكنه من مقاومة الموت نفسه. وهو يتدجج بأشد أسلحته فتكا حتى في مثل هذه الحالة من الضعف الشديد الذي كان يعانيه.

ولما مرت الأيام والأسابيع تبين لي أن جدي المتداعى قد صمم على أن يخوض مع الموت في يأس آخر معركة خاسرة، فاستمد من ضعفه قوة وعول على أن يبذل القطرة الأخيرة من دمه في اشتباكه مع الموت، ومن يدري لعله أن يكون قد وقر في نفسه أن في استطاعته وهو هالك واهن أن يفرض إرادته على سلطان الموت.

ولقد بدا من الواضح خلال الأيام التالية أن إرادته تخمد شيئا فشيئا أنفاس إرادة الموت، فازداد صراخه شدة كما لو كان يهتف لنفسه وهو يمعن في الايمان بأن في استطاعته أن يقهر سلطانا لا قاهر له.

ولكن الموت يعالج العناد ببطء لا يعالج به الاستسلام، فبدا لي أنه عجم عوده فوجده مر المذاق، ولذلك قرر أن يطيل المكث إلى جانبه ليدرس ضعفه تمهيدا لعزله عن القوة، ليحدد هدف هجومه الغامر، ثم قرر أن خير وسيلة لخطف هذا الشيخ الطاعن في السن تتلخص في أن يوهن قواه بالتدريج ويمتص منه الحياة يوما بعد يوم، وقطرة قطرة.

فلما وضع الموت «خطته الختامية» التي يكفل لها بالطبع النجاح

دائما، وبدأ في تنفيذها بدت على جدي عوارض الضعف، فإذا بعناده الذي ضربت به الأمثال خلال خمسة من الأجيال الماضية يستسلم كما يستسلم له كل حي، ولو كان من الجائز أن تتغلب إرادة حي على الموت لما شككت لحظة في أن إرادة جدي هي التي كان يمكن أن يعقد لها قصب السبق في ذلك بين الأولين والآخرين.

ولذلك فلا مناص من أن نجتاز شهرين كاملين من الزمان منذ ظهرت أعراض الموت على جدي ونحن واقفون إلى جانبه وهو يغادرنا إلى الأبد.

كان أحمد بن جلون أو عمي أحمد كما كان يدعوه الجميع أقدم رجل في حي المخفية، ولذلك كان ينظر إلى نفسه كما ينظر إليه السكان على أنه والد الحي بمن فيه وما فيه، تجب له الطاعة ولا يعصى له أمر، وكان «عمي أحمد» يعرف ذلك، على أنه لم يحاول أن يستغله ولو مرة واحدة ولكنه لم يكن يستطيع مع ذلك أن يخفي ابتسامته الساخرة المديدة عن عيني كل شخص من الحي حاول أن يتملقه أو يذكره بمكانته، فحسبه من الحياة ان يغادر المنزل ويجلس على عتبة باب المسجد الصغير الذي يقع أمامه، يتابع المارة على مختلف أعمارهم وأشكالهم وألوانهم وقد تفننت أخاديد وجهه في ابراز ما دق من أسرار السخرية التي تحفل بها ابتسامته الدائمة.

وبذلك استحق بموجب السن والمقام والسخرية أن يتبوأ مكان الشهرة والصيت الذائع من الحي، فلا غرابة اذن وقد ترامى في كل بيت ان «عمي أحمد» على فراش الموت، وانه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ان يهرع إلى منزلنا كل المعجبين به والمقدرين لسنة ومقامه والذين طالما استمتعوا بسخريته، أي سكان الحي من الرجال جميعا.

فلما دخلت المنزل ذات ظهر وجدت ساحته وغرفه وممراته وكل مكان فيه يعج بخليط عجيب من الناس، ولم يكن من الصعب أن أدرك ان احتضار جدي هوالذي جعل من منزلنا كعبة يقصدها هؤلاء الوافدون.

وسعيت في صمت إلى الغرفة التي كان ينام فيها نومته الأخيرة، فإذا بي أراه ملقى وقد غمرته غيبوبة الموت وحوله أولاده ومن بينهم والدي، ولم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئا غير أن ألقى بنفسي في أقرب مكان خال إلى جانبه لأنظر إليه في تأمل وهو يغادرنا، وحسبت أنني من أولى الناس بذلك لما جمعت بيني وبينه من ذكريات.

كانت روحي تنتفض أضعاف انتفاضات جسم جدي وهو يترنح تحت ضربات معول الموت... تلك الضربات التي كانت تزداد نشاطا وشدة كلما وهنت قواه، ثم رأيت والدي يدس يده تحت الغطاء ليتحسس رجليه، فإذا به يبكي فأدركت ان الحياة بدأت تغادر جدي، ولكن عز علي في نفس الوقت أن أرى والدي يبكي، فلقد مرت مدة طويلة منذ رأيت الدمع في عينيه لآخر مرة.

ثم انتفض جدي... ثم سكن... ثم غمرت الجميع موجة من الهمهمة ما لبث أن تلاها عويل كئيب من غرفة النساء.

لقد مات... مات عمي أحمد.

39

نهر أبي أخي الأكبر ذات صباح لأنه اغتصب مني قلما فاستشاط أخي غضبا، ومنذ ذلك الحين فتحت بيني وبين هذا الأخ باب المشاكل على مصراعيها، ووصلت هذه المشاكل في أيامي الأخيرة بالمغرب إلى حد الأزمة المنذرة بالخطر المستطير، وانتهت بالقطيعة الأليمة وأستطيع أن أقول اليوم أننا كنا معا ضحية لتعدد الزوجات والاختلاف التام في التربية والمشارب والنوازع.

كانت لأبي زوجة أخرى هي أم أخي الأكبر وأختي الكبرى، وقد افترق معها على وفاق قبل سفره إلى انجلترا وظلت الزوجة الأخرى وولداها في المغرب بعد ذلك تحت رعاية الجد والأعمام، وأظهر أخي قدرة فائقة على التمرد بين أولاد أعمامه الهانئين في ظلال العطف الأبوي الوارف، فكان يلعب معهم طول النهار حتى إذا ما أووا إلى حدب آبائهم في المساء لجأ إلى غرفة والدته وألقى بنفسه كاليتيم في زاوية.

وبدأ الطفل يعوض ما فاته من عطف الوالد بركوب المصاعب، فهرب من المدرسة ليعتدي على الأطفال ويتسلق الأشجار، ويقتحم الحدائق ويقوم برحلات خطيرة في أطراف المدينة البعيدة، وبدأت ظروفه الشاذة تجمع بينه وبين زمرة من منكودي الحظ حتى أصبح فتى مرهوب الجانب في الحي.

ولما حاول عمي الأكبر تقويم اعوجاجه إخذ يقاومه ويقف في وجهه ويطلق للسانه العنان، فكبر هذا على الرجل، وأخذ يعامله معاملة شديدة فزاد الطين بلة، وبدأ أخي يضيف إلى جرأته المكر والدهاء، حتى إذا ما أنزل به عمي عقابا صارما في الكتاب حيث ضرب ضربا مبرحا أدمى

قدميه، قذف بنفسه إلى الباب هاربا وغاب عن المنزل عدة أيام إلى أن عثر عليه أحد أعمامي بعد أيام وحمله على العودة وارهب هذا التصرف عمي فقرر أن يحاول باللين ما عجز عنه بالقوة، ولكن ذلك لم يزد على إثارة جانب الدهاء فيه، ولعل الوقت كان قد فات بعد أن تأصلت في نفس الطفل روح من سوء النية وحب الانتقام والميل إلى العدوان، ولا أستطيع أن أعفي عمي من المسؤولية فقد كان شديد التطرف في عاطفته ويكبر عليه أن يعصى له أمر.

نادى عمي أخي ذات صباح واسترضاه بعرض مغر بعد أن طلب منه أن يكف من غلوائه وينظر إلى نفسه نظرة جديدة، والظاهر أنه أراد أن يبعث فيه روح الشعور بالاحترام والسمو بالنفس عن الدرك الذي نزلت إليه، فعرض عليه أن يقيم حفلة غداء لأصدقائه الصغار من أبناء الحي لتكريمهم والاحتفاء بهم كما اعتاد أن يفعل أبناء السراة من آن لآخر، فسر أخي بهذا العرض سرورا عظيما أكبر الظن انه لم يكن يخلو من سخرية.

وجاء اليوم الموعود واتخذت الاستعدادات وأقبل الأطفال وحفلت بهم وبضجيجهم غرفة وثيرة في المنزل، ولما جاء عمي رأى مما يبعث الاعتزاز في نفس ابن أخيه أن يحيي ضيوفه.

وما كاد الرجل يلقي نظرة على المدعوين حتى احمر وجهه غضبا وخيل إليه أن ابن أخيه قد سخر منه سخرية عظيمة لا تغتفر، ذلك أن المدعوين كانوا يتألفون من أبناء الشحاذين وكناسي الحي والطبقات الفقيرة وكانوا جميعا من ذوي السحنات الشريرة والثياب الممزقة المتسخة، وكانوا فوق ذلك من الذين نبه ذكرهم في الحي بالشر وممن نهى أخي عن صحبتهم أو اللعب معهم.

وفقد عمي السيطرة على أعصابه فصرخ فيهم : «ماذا ؟ أنتم ؟ اخرجوا أيها الأوباش القذرون، وحذار أن أراكم مرة أخرى حتى في الشارع والا مزقت جلودكم تمزيقا».

وتطاير الأطفال نحو الباب في ارتباك كما لو كان من الطبيعي أن لا يوجدوا في غرفة وثيرة مثل التي كانوا فيها وسرعان ما اختفى آخرهم خلف باب المنزل، وظل أخي واقفا في الغرفة مشدوها تكاد الأرض تبتلعه من الغيظ والحنق، ولكن تردده لم يطل فقد تسلل إلى المطبخ وحمل كل ما استطاع حمله من طعام ثم افرغ الباقي على الأرض وهرب بما حمله إلى أصدقائه ليأكلوه في زاوية من الشارع، وبذلك لم يقم الحفلة بالرغم من عمه فحسب ولكنه عاقبه بحرمانه من وجبة الغذاء أيضا.

هذا هو الأخ الذي نشبت بيني وبينه الخلافات، لا في طفولته المبكرة ولكن بعد أن أصبح غلاما حنكته الأحداث عقب عودتنا من انجلترا، ولست أدري هل كان أبي على حق في الوقوف إلى جانبي كلما نشب بيننا خلاف ولكن الذي أدريه أن ذلك زاد الغلام امعانا في غلوائه، ولم تكن الخلافات التي تنشب بيننا علنية وانما كانت خفية، اغضب منه فابتعد عنه، ويغضب فينطلق يروي عني الاشاعات في المنزل ويستخف بي، وكانت تلك الاشاعات التي يروجها عني صبيانية في أول الأمر فلما اشتد عوده تحولت إلى إشاعات مدمرة سببت لي كثيرا من المتاعب، ولكنني في نهاية الأمر كنت أتغلب عليها لأنه لم يكن لها نصيب من الصحة، وفي نهاية الأمر لم يعد أحد يصدق كلمة واحدة منه عني.

وأخيرا بدأ الغلام يتقرب إلى والده ولست في حاجة إلى القول بأن والده قد استجاب لهذا التقرب استجابة كريمة. وكانت هذه الاستجابة على حذر في أول الأمر ثم أصبحت بعد ذلك خالصة، فاغتبط به الوالد بعد أن تبين له أن شؤون ابنه قد استقامت فبدأ يسلم له الاشراف على أعماله ويستعين به في كل ما يضطرب فيه مما يضطرب فيه الناس من أمور.

ولا يكاد الأب يستوثق من صلاح ابنه حتى يختفي هذا الابن فجأة دون سبب منه ولا من والده، وتطول غيبته حتى يخيل للعائلة أنه بارح المدينة أو القطر كله، ثم يظهر ثانية ولكنه لا يظهر في المنزل ولا في الأمكنة التي

اعتاد أن يظهر فيها، وإنما يظهر في متجر ضخم حافل بالأنوار والألوان والبضائع، وإذا هو رب هذا المتجر، وإذا العائلة كلها مشدوهة بسبب هذه البراعة التي أظهرها أخي الأكبر في كسب المال والتجارة، ثم ينقلب هذا الشده إلى إعجاب فيسعى الناس بالحسنى بين الوالد والابن ويتصل ما انقطع بينهما من أسباب، ولكنه يتصل بشكل جديد إذ يتحدث الوالد إلى الابن كما يتحدث الند إلى الند في شؤون التجارة والأعمال. وتمر الأيام فلا يزداد المتجر الا اتساعا، وكنت أزوره فيه من آن لآخر، ويطول بيننا الحديث حول المدرسة وكرة القدم وفيما يتصل بمن يعرفهم وأعرفهم من أبناء الحي، وكان يبدو لي أقرب إلى طبيعته وهو يتحدث معي في اللعب منه وهو يتحدث مع والده في الأعمال، وزاد إيماني بذلك حينما اكتشفت أنه لايزال متين الصلة بأصدقائه القدامى بعد أن كبروا وبدأت أسماؤهم تقترن بأسباب العنف والعدوان.

وظل المتجر يزداد اتساعا ورونقا مدة سنة أو تزيد، ولكن أخي أعلن دون سابق انذار افلاسه وتسليم المتجر إلى صاحبه، ثم عاد إلى المنزل ولست أدري هل كان صادقا فيما ادعاه أو أن السهرات غير البريئة التي كان يقضيها في الخارج إلى مطلع الفجر، حيث تعلم أن يعاقر الخمر وقد أفلسته حقا، ولكن الذي أدريه هو أن جيوبه ظلت مترعة بالنقود بعد ذلك إلى أن افترقنا وكانت تتجاوز بكثير ما كان يتقاضاه من والده.

عاد الأخ الأكبر إلى المنزل وأصبح يقيم معنا أما أخته ــ وهي أختي كما لا أحتاج أن أقول ــ فكانت نهبا بيننا لا تعرف أين تضع نفسها، فهي تعرف أنني لست شقيقها ولكنني أميل إلى الجد منه، وتعرف أنه شقيقها، ولكن حياته كلها كانت عبثا مالت كفتها فيَ آخر الأمر إلى الاستهتار.

بيد أن هذه الحزينة لم تكن تعني مطلقا صراعا عاريا مكشوفا، فقد كنا

نقضي سهراتنا جميعا في الدور الثاني ونحن نلعب ونمرح، ولكنها كانت تظهر من آن لآخر فحسب، وكانت جذورها في نفسه أعمق منها في نفسي، ولولاه لكان من الممكن أن تموت وتنقرض ولكنه كان يستثيرها وأنا في أوج الاطمئنانِ إليه فيسيء لي ذلك إساءة عظيمة، ولعل إيمانه بأن والدي كان يوثرني عليه ــ وهو أمر غير صحيح وان كان يعامله معاملة أشد بسبب سوء سلوكه، في الوقت الذي كان يعاملني فيه بغير ذلك لما كنت أعرف به من لين الجانب ــ هو الذي أثار كل المشاكل التي لقيتها منه، على أن جانب العقل كان يتغلب عليه في كثير من الأحيان فيصفو الجو بيننا مدة طويلة ثم يعكره حادث بسيط.

ثم ترامى إليه أنني على أهبة السفر إلى مصر فاستجمع قواه وانهال على رأسي لثما وتقبيلا يطلب مني أن أشمل ذنوبه بالغفران ولم أتمالك نفسي فانخرطت في بكاء أليم كله ندم وحسرة.

40

«انه نظيف، ولذلك فهو جلبابه ــ اما (مختار) فثيابه متسخة دائما».

بهذه العبارة تقدمت الصغيرة تفصل في الخصومة التي نشبت بيني وبين ابن عمي حول إحدى الجلاليب ونحن على أهبة العودة إلى انجلترا من المغرب منذ سنوات خلت، ولما كنت أنا المسافر فقد انتصر الجميع لي فكان الجلباب المرموق من نصيبي، وتمكنت من أن أزهو به على لداتي في مانشستر.

وانتهى أمر الجلباب عند هذا الحد، ولكن أمر هذه العبارة من صاحبتنا الصغيرة ظل عالقا بذهني حتى بعد سفري، على أنني كنت أحس نحوها بميل غريب في تلك السن المبكرة فكنت انحاز إلى جانبها وأكثر من اللعب معها والحديث إليها طول المدة القصيرة التي قضيتها في المغرب.

فلم يكن من الغريب حينما رجعنا من انجلترا أن يكون حنين مبهم إليها قد اترع صدري، وقد اعتادت ان تزورنا بعد ذلك مع والدتها أياما معدودات تقضيها في اللعب، ولم أكن ألاحظ في هذه الأيام التي أعود فيها بدافع غريب من المدرسة إلى المنزل فورا دون أن أشارك لداتي في ساحة المدرسة ما اعتدناه من لعب بعد أوقات الدرس ولم ألاحظ أيضا انني أقضي بنفس الدافع الغريب، أطول ما يمكن من الوقت في المنزل حينما تكون عندنا، وكان يركبني نشاط زائد لعل أهل المنزل لاحظوه دون أن يحفلوا له ولا بأسبابه، فان من الطبيعي في منزل كثر أطفاله ــ من الأولاد والبنات ــ أن يحدث بينهم ميل ونفور.

كنت أجدها تنتظرني عند الباب حين عودتي فتجلس إلى جانبي وأنا أتناول طعام الغداء ــ فإن أوقات المدرسة لم تكن تسمح بأن أحضر

وجبة الغداء مع باقي العائلة ــ ثم ننهض للعب فتتعصب لي وأتعصب لها بين الأطفال، وأصبح من المسلم به أن نكون معا في جانب واحد أثناء اللعب كما أصبح من المسلم به أن العلاقة بيننا كانت أقوى من العلاقة بين أي طفلين من أبناء أعمامي وعماتي وبناتهم.

وظلت هذه العاطفة تتطور وتقوى مع مرور الأيام إلى أن اشتد عودي وبدأت أقرأ أقاصيص الحب وأشعاره، وإذا بي أكتشف معناها، وكان اكتشافي لمعناها قد زادها أوارا فانطلقت تنهش أحشائي هذا النهش المستحب الذي تزيدنا آلامه تعلقا به وسيرا في أثره، فانقلب إلى شخص آخر طويل السهوم ميالا إلى العزلة والانصات إلى ما تنبض به نفسه من هذه النبضات الغريبة التي لا يحسها الانسان الا في فترة فحسب من فترات حياته.

وفي أخريات الأيام التي أتحدث عنها في هذه الصفحات ــ وكان ذكري قد نبه في محيط العائلة لما أصبته من نجاح مدرسي في رأيهم ــ كنت قابعا في غرفتي بالدور الثاني من المنزل أسبح في لجج طامية من الخطرات الغريبة التي تقمصت كل واحدة منها سرابا هائلا ولعلي أن أكون قد تأثرت بما قرأت عن مجنون ليلى، فقد قل طعامي وكثر شرودي وضمر عودي وكنت أجهد الفكر الساعة تلو الأخرى طوال الأسابيع والشهور للعثور على تضحية هائلة ترقى إلى مستوى القدرة على التعبير عن كنه هذه العاطفة المدمدمة التي تجتاح أنحاء صدري دون جدوى، حتى ان فكرة سفك دمي عند قدميها بدت لي قاصرة الافصاح.

وطرق باب الغرفة : غرفتي.

ومن خلال فتحة الباب بدا لي وجهها الباسم المشرق وقد تورد خداها وبدا في عينيها بريق لابد انه بريق ملائكي فما رأيت مثله في عيني بشر. وهكذا وقفت في مكاني أنظر إليها مبهور الأنفاس وإذا بموسيقى سماوية تنطلق من بين شفتيها وهي تحييني.

سعيت إليها في ارتباك وأنا أتأملها، لقد انصرمت دهور طويلة منذ رأيتها لآخر مرة، فازدادت كل التضحيات التي اجهدت نفسي في ابتداعها عجزا عن التعبير، أتراني في حلم ؟ أو أن هذه طفلتي حقيقة تقف أمامي وقد تنفست في أعطافها أنوثة مبكرة عاطرة فزادتها فتنة ورواء، وبات قوامها المتأرجح بين الطفولة والشباب مرموقا يسبى الأنظار !؟

ودنت مني لتضع يدها على ذراعي فأحسست بتيار مستحب يتدفق إلى أنحاء جسمي، وأخيرا قالت «انني هنا في المنزل منذ الصباح، ومع ذلك لم أرك، ولكن دعني أسألك : ان مطلعك غريب فماذا بك ؟».

حاولت أن أعثر على كلمة واحدة من بين تلك الأسفار الضخمة التي ألفتها للاستعانة بها في مثل هذا الموقف المنتظر إذا ما باغتني، فلم أعثر على كلمة واحدة، لقد تبخرت جميعا تحت حرارة هذه الشمس الساطعة التي بهرت قلبي أضعاف ما بهرت عيني، فنظرت إليها وبي بكم دون أن أجيب، ولكن عيني ظلتا متعلقتين بها.

وبعد برهة خيل إلي أنها دهر سحبت ذراعي لأقف إلى جانبها وأقول : «كيف حالك ؟ لقد مرت مدة طويلة منذ رأيتك لآخر مرة».

فردت علي بكلام لم أسمعه، فقد كنت مشغولا بالنظر إلى المرآة التي كانت تقع أمامنا على الجدار، وانطلقت أقارن بين صورتينا، فلقد شعرت لأول مرة أن هناك بونا شاسعا بيننا، ان أجيالا كاملة تفصل بين ذبولي وازدهارها.

أمامي في المرآة وجه كالح أغبر شديد الشبه بوجه جدي، بل ان حامله يبدو كما لو كان هيكلا عظميا نهض من قبره ليقف أمامي بهذا الوجه المروع.

وعن يساره في المرآة وجه آخر يطفح بالبشر والحياة يشعرك النظر إليه بأنك تقترب وتقترب من نبع يتدفق بالحيوية والدفء والجمال.

وسألت نفسي : «ماذا كان يقال عن جدك ـــ عليه الرحمة ـــ لو قيل انه شغف حبا بصاحبة هذا الوجه الجميل الواقع عن يسارك في المرآة ؟ أو بعبارة أصرح ماذا يقال عنك أنت أيها الفتى الهرم إذا قيل انك شغفت بصاحبتك حبا ؟ سيقال ولا ريب انك مجنون.

ولكن بينما كان ينهار في نفسي صرح هائل ليخلف ركاما لا نهاية له من اليأس سمعت صوتها يوقظني وهي تقول :

«إنني أتحدث إليك فما بالك شاردا ؟ ما عهدتك في مثل حالة اليوم، هلا أجبتني وأصغيت إلي، انني أمامك حقيقة تتحرك وتسعى، لقد سعيت إليك لأراك.

فأحسست بالانعاش لدى سماع هذه الكلمات، ولكنها مع ذلك ازدادت ارتباكا.

ولما التفت إليها كانت دمعة كبيرة قد وقفت تطل من عيني في حيرة كما لو كانت تتأمل جمالها هي أيضا، وكنت أخجل من الدمع ولذلك فقد أدرت رأسي لأخفيها، فإذا بي أسمعها تهمس خلف كتفي : «كان شوقي إليك عظيما خلال المدة الطويلة التي قضيتها بعيدة عنك وليس من اللائق أن أبقى معك هنا على حدة، فلماذا لا تجيبني».

وهنا استدرت بحركة لاشعورية لتقع عيني في عينيها ثم لأهوي على كفها لثما وتقبيلا، فسحبتها وهي تهرب نحو الباب قائلة : انني أنتظرك في الدور الأول فقد يفتقدونني ثم اختفت خلف الباب.

وكدت أندفع في أثرها ولكنني توقفت لأوبخ نفسي «اذن فإن بي خبلا حينما أكاشفك أيتها النفس الامارة بالسوء بأنني أحبها، فلأكن مخبولا اذن، ولكن ليس على طريقتك البائسة المنكودة وإنما على طريقة الوالهين الضاحكة المستبشرة فدعنا منك ان لي معك حسابا في وقت آخر اما الآن فإلى حبيبتي.

وانحدرت مع السلالم مثنى وثلاثا ورباعا وربما سداسا وسباعا وفي نهاية السلم تمهلت لالتقط أنفاسي ثم بحثت عنها وجلست إلى جانبها، ولكنني كنت شخصا آخر غير الشخص الذي قابلها منذ لحظة مضت في خجل وصمت.

رفعت كتابا كان إلى جانبي وتظاهرت بالقراءة فوقع في روع أهل المنزل انني أقرأ لها قصة فتباعدوا عنا ولكنهم كانوا يعرفون في نفس الوقت اننا سعيدان.

ولم أكن في الحقيقة أقرأ وإنما كنت أناجيها وأنا أنظر في الكتاب، وقد أعلنت حبي كأعنف وأخلص وأسمى ما يكون الحب، واستجابت لمناجاتي بهمسات حائرة ولكنها كانت تتدفق شعورا، ولم يفتني أن آمر نفسي بالذهاب إلى الشيطان وأنا ارتفع مع حبيبتي في سماء لا زوردية وقد امتطينا سحابة بيضاء منقوشة بعيدين عن الشعور بالناس والمنزل وكل ما كان يحيط بنا، وتقدمت الساعات بسرعة لم أعهدها من قبل دون أن أشعر بها، ولكن لم يكن لنا بد من أن نشعر بها في آخر الأمر، فعدنا إلى الحقائق كما يعود إليها النائم بعد أحلام ناعمة ممتعة.

قلت لها عند باب السلم وأنا في الطريق إلى غرفتي لأنام :

ــ ان جوارحي كلها تنبض بحبك، وسوف أقتحم الأهوال في سبيل أن تكوني لي.

ــ أنا لك دون أهوال.

ولما اقتربت بوجهي من وجهها اتسعت مقلتاها في دهشة رائعة، لتلمس شفتاي شفتيها اختفت في ذعر يخطف الألباب.

لاحظ كل من في المنزل موقفنا ــ وكان من بين الحضور عدد كبير من الضيوف تذرعت بزيارتهم لنا للحضور ــ ولكن لم تكن لملاحظتهم

أهمية تستحق الذكر، وكان من الممكن أن يستمر الأمر على وضعه الطبيعي، ولكن افتضح أمر غرامي.

وبذلك توفرت العناصر الكاملة لاطلاق عاصفة من الغواصف التي لا تبقى ولا تذر، فاضطربت العائلة اضطرابا لم يسبق له مثيل من قبل، فقد كانوا يرون في الحب عاطفة بهيمية تدعو إلى الاشمئزاز ويجب أن يبذل كل جهد في سبيل مقاومتها والقضاء عليها.

وبدأت الأخبار تترامى إلي عن موقف والدها الثائر ضد هذا الفتى الجريء الذي لوث الشرف وعبث بوقاره وابتدع أقصوصة تلوكها الألسن، فأقسم أغلظ الايمان ليطلقن زوجته إذا زارتنا ابنته في المنزل مرة أخرى، ولم يكن لي بد من أن أتوارى عن الأنظار وأقضي سحابة يومي خارج المنزل، خصوصا بعد أن امتد هذا الغضب الكاسح فشمل والدي ووالدتي وكثيرين من أفراد العائلة.

وهكذا كتب علي أن أقضي أسبوعين في حياة شبيهة بحياة التشرد، أتسلل من المنزل في الصباح المبكر ثم أعود إليه متسللا أيضا في المساء دون أن يشعر أحد، وكنت ألقي التشجيع على هذا التمرد المعيب من شخص واحد هو أخي الكبير.

بيد أنه لم يكن لي بد من أن أواجه فقط خصومي في هذا الوقت الدقيق، كان علي أن أواجه والدتي ثم والدي ثم والدتها هي.

قال أبي : فيم كل هذه الزوبعة ؟ ماذا تريد ؟

وتطلعت إلى وجه والدي فإذا به يطفح بالعطف والاشفاق فقلت : «مجرد تعب الم بي، انني أحاول أن أستريح».

وقلت لوالدتي وأنا ثائر ــ فقد كانت الجرأة تسعفني أمامها ــ «أحبها، أحبها بكل جوارحي ولابد من أن أتزوجها، وإذا لم أتزوجها فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه».

قالت وهي تدق صدرها بيدها «أفي هذه السن : انك لم تتجاوز الرابعة عشرة، ومع ذلك تتكلم بلسان من تجاوز العشرين، يضاف إلى ذلك أنه ليس من حقك أن تزعج والدك مثل هذا الازعاج المروع، الا تعرف أنه يتأثر، وانه حينما يتأثر ينصرف إلى الصمت على حساب صحته وأعصابه وراحته، وما أظن أنك ترضى بأن تزج به في صمته المعروف».

ولكن الدموع ترقرقت في عينيها حينما كررت لها بلسان لا يعرف المداراة التعبير عن حبي فضمتني إلى صدرها لتبلل دموعها أنحاء وجهي.

أما والدتها ـــ وهي قريبة جدا كما لا أحتاج أن أقول ـــ فقد كان لي معها موقف أشد غرابة حينما قابلتها بعد ذلك.

قالت : اقبل يابني وحدثني عن ابنتي.

فتقمصتني شجاعة لم يكن لي بها عهد واستغربت كيف طاوعني لساني على النطق بما فهمت به، قلت : «انني أضمر لها من الحب ما لا يخطر لك على بال».

قالت : ووالدها ؟ هل تغض عنه الطرف ؟

قلت ـــ وكانت الاشعار قد لعبت برأسي ـــ والدها ؟ انه لا يهمني، فأنا أحبها، وعلى والدها أن يحدد موقفه.

ـــ لقد تقدم إليها شاب (ذكرت اسمه) يطلب يدها، ووافق والدها على هذه الخطوبة ويجب أن أشير إلى أن خطاباتك إليه ضاعفت شعوره ضدك، فإذا لم يكن من حقك علي بصفتي أما أن تغضب، فإن من حقه علي كزوج أن يرضى، أأدركت اذن ما أومئ إليه ؟

ـــ تبيعينها بثمن بخس ؟

ـــ أبيع ابنتي !؟

ولكن وجهها احمر غضبا واشفاقا حينما قلت أن ابنتها حبيبتي، وان

من حقي ان أتحدث عنها بنفس العاطفة التي تتحدث بها عنها هي وزوجها، فغادرت الغرفة بعد أن بدا من الواضح على تقاسيم وجهها أنها كانت نهبا لواجبين متناقضين، مصدر أحدهما زوج لا يعرف الهوادة ومصدر ثانيهمَا هذا الفتى الواله الذي لا نهاية لما يكنه لابنتها من صادق الوداد.

بيد أن الأيام لا تقيم وزنا لما يشعر به من يعيشون فيها من أبنائها، ففي تلك الأيام الباردة من شتاء سنة 1937 غادرت منزلها إلى منزل زوجها، وغادرت أنا منزل والدي لأعبر البحر الأبيض إلى مصر، وتدل كل البوادر على أن تلك الأيام كانت آخر ما جمع بيني وبينها.

41

رجعت ذات يوم من المدرسة في منشستر وأنا أحمل ورقة من طبيب الأسنان الذي فحص أسنان التلاميذ في صباح ذلك اليوم، وكانت هذه الورقة تشتمل على رسوم لجميع ما في الفم من أسنان وقد أشار على بعض منها بالحبر الأحمر إشارة وجوب خلعها.

لم أكن أدرك لشيء من هذا معنى، فقد أمرني الطبيب أن أحمل الورقة إلى والدي فحملتها إليه، ولو كنت أعلم أن هذه الورقة كانت بمثابة أمر بخلع قطع من فمي لكان من المرجح أن أمزقها أثناء الطريق، وبذلك أعجل باسدال الستار على موضوع لعب دورا خطيرا في حياتي.

ولكن الحقيقة لم تتطلب كثيرا من الوقت لأطلع على جلية أمرها، فقد أنهى إلي والدي ببساطة أطارت صوابي اننا سنزور أحد أطباء الأسنان ليخلع لي أضراسا أشار إلى رسومها على الورقة فهالني الأمر وتصورت نفسي في صورة الشخص الذي حمل بنفسه إلى جلاده أمر تعذيبه والتنكيل به.

والا فماذا يكون التنكيل والتعذيب ان لم يكونا انتشال هذه الأجزاء الصلبة من فم الانسان، ولما ذهبت أستفهم عن الوسيلة التي تقتلع بها الاسنان خرجت بنتيجة وقف لها شعري فقد كان من المزعج حقا أن أتصور فمي خشبة اثبتت بها مسامير وجب أن يقتلع بعض منها بملقط.

وما كدت أصل إلى هذه الحقيقة حتى أخذت أقابل كل حديث يدور حول موضوع خلع أسناني بالصراخ والعويل بعد أن صممت تصميما لا هوادة فيه على أن لا تمتد مثل هذه الأداة الحديدية إلى فمي، ولست أستغرب إلى الآن من هذا الموقف إذ مما يدعو إلى الدهشة ان يرفض

الانسان ان يعامل فمه معاملة الصناديق والأخشاب ومما يزيدني يقينا بسلامة موقفي القصة التالية التي سمعتها من صديق تجاوز الخمسين من عمره وشغل مناصب خطيرة قال :

شعرت بألم في أنفي كان يؤثر على نفسي وقد تحملته مدة طويلة ثم لم يكن لي بد أخيرا من أن أعرض نفسي على طبيب، فلما فحصني رأى من الضروري أن تجرى لي عملية جراحية حدد لي موعدا لها، فلما ذهبت إلى عيادته في الموعد المضروب قادني إلى غرفة العمليات ثم أخذ يعد بعض أدواته، وإذا بي أنظر إليها محملقا فقد استرعى نظري من بينها منشار ومطرقة حقيقة كانت الأدوات صغيرة وبراقة ولكنها مع ذلك روعتني فإذا بي أنهض قائما لألتقط معطفي وأسرع إلى الباب مودعا حتى إذا ما اطمأننت إلى أنني قد فتحته استدرت إلى الطبيب الذي شلت تصرفاتي حركاته فوقف ينظر إلي مشدوها ليستمعني أقول : انتظرني، فسوف أرجع إليك لتجري لي هذه العملية مرة أخرى ولكنني لن أرجع إليك قبل أن تفصم آخر العرى التي تربط بين فن الطب وفن النجارة والحدادة. الوداع، ثم اقفلت الباب وهرولت هاربا.

ولعلي أن أكون معذورا وقد وقفت من الطب دون سن العاشرة موقف كهل جاوز سن الخمسين.

ومهما يكن من شيء فقد انتصرت بطريقة أو بأخرى واستطعت أن أتمتع لفترة قصيرة بسلامة في فم لا تمتد إليه كماشة نجار ولا مطرقة حداد...

ثم دارت الأيام كما تدور، وذات يوم من أيام عيد الأضحى في المغرب بينما كنت أتناول مع أفراد العائلة على مائدة جدي طعام الافطار، بعد أن قضيت وقتا ليس بالقصير مع لداتي من الأطفال في المنزل حول الخرفان وهي تذبح وتسلخ وتتحول إلى قطع كبيرة من اللحم تسعى الواحدة منها تلو الأخرى إلى المطبخ، في هذا الوقت شعرت وأنا أغرس أضراسي في

قطعة صغيرة من اللحم كما لو كنت قد غرستها في مسمار ملتهب مسموم.

وقد كان من الطبيعي أن يصرخ ويغادر المائدة طفل دون العاشرة انغرس في فكه فجأة مسمار ملتهب مسموم، وهكذا قضيت يوما كاملا بعد الألم الذي عانيته أنظر إلى الطعام كما لو كان يتألف من قطع من الزجاج والمسامير كتب علي أن أمضغها.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان، ولكن هذا الداء الوبيل العنيف أخذ يتراقص في فمي وبين أسناني كما لو كان شيطانا رجيما، فقد تقمصت فمي قوة رهيبة لاحد لطاقتها على إحداث الآلام الدائبة التي لا تعرف الكلل والتي تتمتع في نفس الوقت بنشاط متزايد عنيف مع مرور الأيام.

ولو كانت هذه الآلام المبرحة الموجعة تقتصر على أنا لهان أمرها ولكن أثرها كان يمتد إلى سائر أفراد العائلة، فقد أصبحت أقضي الليلة ساهرا ائن أنينا أليما يدعو إلى الاشفاق ويدعو إلى اقلاق ثم يدعو بعد ذلك إلى الازعاج.

وفي إحدى فورات هذا الازعاج صدر الأمر إلي من والدي أن أسرع حالا إلى الطبيب «ليخلع لك أضراسك المريضة فإن الحياة أصبحت معك لا تطاق» فلما استفهمت عن مكان الطبيب فوجئت بأنه يقع في دكان الحلاق، ولكنني طمأنت نفسي بأن دكان الحلاق قد يكون مقرا لطبيب الأسنان وناولني والدي بعض قطع من النقود ثم أمرني بالذهاب إلى الدكان المذكور لوضع حد لهذه المشكلة التي استعصى أمرها.

وقد ذهبت إلى الدكان، ولكنني وقفت أمامه مترددا بعض الوقت فإذا به دكان ضيق لا يوجد فيه الا الحلاق وأمامه شخص قد لف في أردية بيضاء اسلم رأسه للموسى وبالرغم من ذلك استجمعت قوتي واقتحمت باب الدكان فاستدار إلي الحلاق وسألني :

ــ مذا تريد ؟

قلت والدمع ينهطل من عيني :

ــ ضرسي، أريد أن أخلعه.

ولم يهتم بالرد علي وإنما انصرف إلى مواصلة عمله الكاسح في رأس الشخص الذي كان يقف وراءه حتى إذا ما أدى مهمته بحيث أضحى ذلك الرأس قاعا صفصفا دعاني بإشارة تدعو إلى الريبة فتحولت بسبب ذلك إلى آلة حساسة دقيقة تلتقط كل ما يدور حولها من حركات وإذا بي أراه يرفع أداة مخيفة ويخفيها خلف ظهره، ثم أمرني أن آخذ مكاني من أحد الكراسي، وقد بدا لي من الواضح انه كان يحمل في يده أداة حديدية تقشعر لها الأبدان.

ولم يكن لي بد من أن أقفز من مكاني لأستكشف ما يخفيه وراء ظهره فإذا به كلابة حديدية مروعة يكفي مجرد إلقاء النظر عليها لدفع المرء إلى تحدي أي ألم في الضرس مهما كان موجعا، ولو بلغ هذا الألم الذي أقض مضجعي، وهكذا لم يكن لي بد من أن أفلت من الدكان الرهيب لانعكف على آلامي دون أن أجد لي منها مفرا.

كان من الممكن أن أسلم فمي للحلاق يفعل به ما يشاء، وكان من الممكن أن أتحمل آلاما تدوم عدة أيام وربما عدة أسابيع، ولكنني في الواقع فضلت أن أعاني الآلام الدائبة الرتيبة على الألم الأكبر، وأسفاه فلقد سلخت عشرين عاما بعد ذلك أعاني من آلام الأضراس ما لا أظن أن كائنا إنسانيا عانى مثله من قبل، وكان علي في آخر الأمر ــ تحت ضغط ألم يعجز كل قلم عن تصويره ــ ان أسلم فمي لطبيب الأسنان يفعل به ما يشاء.

لقد انتهى الآن كل ما عانيته من هذا المرض الوبيل بعد أن اقتحمت فمي مهنة الحدادة والنجارة... ولكن أثره لا يزال عميقا في نفسي، ذلك أنني عشت عشرين عاما وأنا أتوقع في كل وقت أن يداهمني الألم، في الأوقات التي كنت أتخلص منه فيها، وبذلك شغل الألم وتوقع الألم حياتي كلها خلال هذه السنين.

أما الآن وقد انتهى أمر هذه الآلام الوجيعة كلها بعد أن خلعت ما يزيد على اثني عشر منها فإن الندم الذي يساورني لا مثيل له، فلقد خلع الطبيب أول ضرس من ضروسي التالفة فشعرت بارتياح يعجز القلم عن وصفه وقد كان من الممكن أن أشعر بمثل هذا الشعور منذ عشرين سنة دون أن أتمكن من ذلك وقد بلغ من ارتياحي بعد ذلك لعملية الخلع المتوالية انني كنت أتلذذ بها...

ولقد انتهى هذا كله الآن، حتى انني أصبحت أتربص بأضراسي... أصبحت أنتظر أي ركز في واحد منها لأحمله إلى الطبيب وآمره بأن يخلعه حتى أتمكن بذلك من استعادة ذكرى التخلص من الآلام، تلك الذكرى الحبيبة إلى نفسي...

على أنه بالرغم من هذه السيئات التي جنيتها مما عانيته من ألم الأضراس ــ وهي سيئات يؤلمني ذكرها ــ فقد كان لها اثر محمود إلى جانب ذلك. تحملت آلاما شديدة أثناء هذه المحنة القاسية ولكنها مكنتني في نفس الوقت من أن أقيم نفسي خلف حصن منيع ضد هذا العدو الذي يدأب على مهاجمة الانسان في مختلف أطوار حياته هجوما وهميا لا رحمة فيه... وهذا العدو الوهمي هو الطب، أما جنوده فهم الأطباء.

فلقد تبين لي بعد ذلك أن هذه المهنة ذات حدين أحدهما انساني يصرف جهدا صادقا لا غبار عليه في معالجة الأدواء المادية التي لا سبيل إلى الشك في أنها تفتك بالجسم الانساني، وثانيهما خرافي ينتمي بأوثق الصلات إلى الأوهام التي تجعل من هذه المهنة أداة يستغلها الأطباء لاستشارة توجسات حرص المرء على الحياة في سبيل ابتزاز المال.

وقد مكنتني هذه التجربة من القدرة على الاستهانة بمهمة الطب ويكفي انني ما أزال أواصل الحياة دون أن أحتاج ــ ولله الحمد ــ إلى أن أعرض نفسي على طبيب.

42

تركت في مكان ما من هذا الحديث ما سميته بالمدرسة العجيبة، وقلت ان في وسعها أن تنتظر إلى أن نفرغ من الاتيان على الموضوعات التي لا تتصل بها لكي نتمكن من التفرغ لها، وقد آن الأوان لمواصلة الحديث عنها وعن كل ما يتصل بها من الحياة الثقافية التي كتب علي أن أعيشها في تلك الأيام بدأت أسبابي تتصل بأسباب الفكر من بعيد.

ولم تكن هذه المدرسة العجيبة الا جامع القرويين، ذلك الجامع العتيد الذي اطلعت فيما بعد على الأثر البليغ الذي أحدثه حتى فيما يدعى بالنهضة الأوربية نفسها.

لم أكن أدرك بالطبع في ذلك الحين الدور التاريخي العظيم الذي قام به هذا المسجد الذي كان في يوم من الأيام بمثابة منارة سامقة من منارات العلم والعرفان، ولكنني حينما كنت أمر في بعض الأحيان ببواباتها الضخمة أذكر اني كنت ألقي البصر إلى داخل المسجد فأقف مبهورا أمام هذا الجلال الذي تبعثه في النفس تلك الأرجاء المترامية التي رصعت بالأعمدة المتناسقة في شكل هندسي نابغ تلمس حتى عقل الطفل الصغير.

رأيت من الكنائس والمعابد والجامعات والمدارس الثانوية ولكنني لا أذكر انَ واحدة منها تركت في نفسي الأثر الذي تركته جامعة القرويين حينما ألقيت عليها أول نظرة عابرة من خلال إحدى بواباتها الأربع عشرة.

كانت ظروف الحياة تباعد بيني وبين هذا المكان الذي امتزجت فيه معاني الرهبة بمعاني الاجلال على صورة لم يسبق لها مثيل في نفسي، وقد تذكرت وأنا واقف أمام البوابة ذلك التأثير القديم الغامض الذي أحدثه في

نفسي مروري أمام معهد عتيق «لرعاية البجعة» في مانشستر، ذلك المعهد الذي انتشرت منه في سائر أنحاء الحي الذي كنا نقيم به، قصص تدور كلها حول كثرة ما يعج به من أشباح.

كان هذا التأثير مبهما في ذلك الحين ولكنني أتبينه واضحا الآن، ولقد كنت حديث العهد بآثار الرومان المهيبة في أنحاء مختلفة من انجلترا، ولكن الروح التاريخية العريقة كان يبدو أوضح كلما تاهت نظراتي بين تلك الأعمدة التي يخيل للناظر أن لا نهاية لها، ان ما وقفت عليه من آثار الرومان كان يدل على حياة ماضية وكفى، أما عندما وقفت أمام بوابة مسجد القرويين وأرسلت نظري بين أعمدته المترامية، فقد شعرت بأنني أمام ماض عريق حقا ولكن كل ما يحيط به يدل على أنه مصر على أن لا يفنى.

إن الفرق عظيم بين الاطلال الدارسة التي تشير إلى ماض ذهب، وبين العمار التاريخي القديم الذي يدل على أن الماضي لم يمت ويصر على أنه لن يموت.

ثم ترامى بعد ذلك كما أشرت فيما سلف ان تلك البناية المهيبة مدرسة غريبة لا تقيد طلابها بمواعيد، فحبب إلي أن أتعرف إليها، يضاف إلى ذلك أن المشاكل التي أثارتها في حياتي المدرسة الفرنسية وكذلك المشاكل التي أثارها نزوعي إلى لعبة كرة القدم في تلك السن المبكرة لم تدع لي مجالا للتردد، لقد وضع لي القدر حلا واحدا تقرر بسببه مصيري، فالتحقت بجامعة القرويين.

وقد كان علي في صيف السنة التي أتحدث عنها ان أواظب على حضور هذه الدروس التي كانت تلقى في مساجد صغيرة مبعثرة في أنحاء مختلفة من مدينة فاس، هذه المدينة التاريخية التي احتفظت بصورة متجمدة لثقافة ذاهبة، فقد انتهت الأدوار التي قامت بها في الحضارة

الاسلامية منذ عصور بعيدة، أما في المغرب فقد ظلت المرفق الحيوي الذي يواصل القيام بنشاطه كما لو كانت قوة الماضي الواضحة تحول بينها وبين ما أريد لها من السكون. وبذلك ظلت قلب المغرب الذي عجزت عن اخماد نبضه القوات الغاشمة التي داهمت هذه البلاد.

وانتهى الصيف من العام الذي أتحدث عنه وأغلب الظن أنه عام 1934 فاقتحمت الجامع العتيد، وقد اعتقدت أنني اتخذت كل أهبة للالتحاق بالمدرسة التاريخية العظيمة التي برهنت على أن كوارث عصور الظلمات مهما كانت طاغية ومدمرة وساحقة عاجزة في النهاية عن أن تخدش أسوار هذا المعقل الثقافي العظيم، فكانت تلك أولى الخطوات التي اتخذتها لتحويل ابجديتي المتهالكة إلى لغة عربية فصحى.

حتى إذا ما جاء اليوم الموعود وفتحت الجامعة عاما جديدا وهي خاضعة لهذا النظام الذي قرره لها ملك صالح ساهر على حقوق بلاده، لم يكن لي بد من أن أقتحم هذه البوابة الضخمة لأقلب بذلك ـــ دون أن أدرك خطورة العمل الذي أقوم به ـــ صفحة جديدة في حياتي لا تمت بسبب ما إلى الماضي.

كان كل ما أعرفه عن المدرسة مستمدا مما أسلفته من حديث عن المدرسة الانجليزية في مانشستر والمدرسة الفرنسية في فاس، فلما اقتحمت جامع القرويين بدا لي أن هناك فرقا شاسعا بينهما وبين ما كنت أعرفه عن المدارس.

لم تكن هناك حجر ولا فصول وإنما كان هناك فضاء مترامي الأطراف تتخلله أعمدة لا نهاية لها، وقد جلس إلى كل عمود أستاذ الفصل الذي لا جدران له وجلس حوله عدد يكثر أو يقل من الطلبة، فهذا لا يهم، انما المهم أن هؤلاء الطلبة لا يحيطون بالأستاذ وقوفا ولا جلوسا على الكراسي، وإنما يحيطون به وهم جلوس على ما يشبه الأرض، لولا هذا الحصير الذي

لا ينتهي ترامي أطرافه الا عند حدود المسجد العظيم، ولولا هذه السجادة التي حملها معهم بعض الطلبة الموسرين لحمايتهم من شر الحصير.

فلما دخلت المسجد سألت هامسا أحد المارين عن مكان القسم الابتدائي ــ فإن من الصعب على طارئ أن يتبين في هذا القاع الصفصف فاصلا بين أمكنة التعليم الابتدائي والثانوي والعالي، فأشار إلى حلقة من الحلقات.

دلفت إليها على استحياء وما كدت أتبين الأستاذ الذي كان يتوسطها حتى توقف عن متابعة الدرس وأشار إلي أن أقبل فقد فاتك وقت طويل، فارتج عقلي، ولكن ذلك لم يمنعني من أن أهرول إلى الحلقة وأجلس على الأرض حيثما اتفق.

أرهفت السمع بعد أن عبأت كل جوارحي ومداركي لكي أتمكن من متابعة الدرس، ولكن سرعان ما تبين لي أن كل الخطوات التي اتخذتها من قبل لكي أؤهل نفسي للالتحاق بهذه المدرسة العجيبة قد ذهبت أدراج الرياح، فلقد انتهى الرجل من القاء درسه عما فهمت انه يدعى (بالدروس النحوية) بدون أن أعي مما قال حرفا واحدا.

بيد أني وضعت يدي على حقيقة بالغة الأهمية بعد انفضاض حلقة درس النحو، ذلك أنني صرفت وقتا طويلا في التعرف إلى وجوه الطلبة في هذا القسم الابتدائي، فإذا لم يكن هناك فصل تحدده الحيطان فإن في استطاعتي أن أتسقط هذه الوجوه وأتتبع أصحابها إلى أن أصل في النهاية بعد ذلك إلى معرفة القواعد التي يعتمدون عليها للتفريق بين الفصول ومراحل التعليم، ولذلك فقد زججت بنفسي في موكب الطلبة بعد انتهاء الدرس واثقا من المكان الذي سوف يسوقني إليه موكبهم، فلما جلسوا في حلقة أخرى جلست بينهم، ولم أدرك بعد أن استمعت ساعة كاملة إلى ثرثرة الأستاذ أكثر من أنني كنت أستمع إلى علم يدعى بعلم التوحيد.

وعلمت بعد ذلك بساعة أخرى أنني استمعت إلى درس آخر خيل إلي أنه يدعى بعلم الفقه ولما رجعت إلى المنزل استقر في ذهني أن في الحياة رموزا أكثر جدا مما كنت أتصور وأن هذه الرموز أشد تعقدا من كل الرموز التي صادفتني في حياتي، والحقيقة أن الرموز في حياتي كانت تزداد كلما تقدمت بي الأيام، ولذلك بات علي أن أتخذ قرارا حاسما، فأما ضربت صفحا عن هذه الحياة المدرسية الغامضة واما بذلت مزيدا من الجهد في سبيل كشف خباياها.

كانت حياتي المدرسية في انجلترا مخفقة، وكانت حياتي في المدرسة الفرنسية في المغرب أشد اخفاقا، ولذلك فقد خيل إلي في ذلك الدرس الأول أنني أبدأ حياة مخفقة جديدة في القسم الابتدائي من جامع القرويين.

هذه هي الحقيقة المريرة التي كان علي أن أواجهها، وقد واجهتها وأنا أقول لنفسي : أليس من حقي أن أعطي لنفسي فرصة أخيرة ؟

43

سرعان ما صار جدا ما لعبت به، وإذا بجامعة القرويين تنقلب إلى عامل فعال تضاعف تأثيره على كياني المعنوي، وإذا المثل العليا التي كانت تلعب الأدوار الأولى في حياتي تنهار الواحدة تلو الأخرى.

لقد كنت مغرما بكل شخص قوي الجسم، مفتول العضلات، غير هياب، مرح، جهوري الكلمات يرفع صوته بالضحك ملء رئتيه، فإذا بهذه الصورة للشخص المثالي تختفي لتخلفها صورة أخرى مناقضة لها مناقضة تامة، هي صورة الشخص الوقور، مسبل الجفون، مبطئ الخطى. الذي لا يعرف محياه أكثر من الابتسام ليعود بعد ذلك سريعا إلى التجهم، له صوت أقرب إلى الهمس... إلى آخر هذه الصفات التاريخية التي ورثها علماء القرويين وطلابها، لا أعرف بالضبط عن أي عصر من عصور الركود والانهيار.

وقد كان علي في أول الأمر أن أجتاز مرحلة من الدهشة البالغة كلما سرت في وسط المسجد الكبير ملتفتا يمينا وشمالا إلى هؤلاء الأساتذة الذين يختلف كل واحد منهم على الآخر، كما لو كنت أجتاز بهوا في مستشفى ضخم للأمراض العقلية يتزعم كل حلقة من هذه الحلقات المبعثرة أستاذ يتوسطها بالغ الشذوذ في كل ما يأتيه من حركات وفي كل ما تصدر عنه من أصوات.

ولا أكاد أخلع نعلي وارتقى السلم القصير إلى داخل المسجد حتى التفت إلى يميني لأرى أستاذا يعتمد على ركبتيه ثم يتراجع وهو يصيح بكلام كله ألغاز ويلوح بيديه في الهواء، وقد جحظت عيناه ثم يقبل على طلابه بوجهه يلقي عليهم ما لابد أن يكون سؤالا، ولا ينتظر منهم ردا،

وإنما يسارع إلى ضرب الحصير براحته ضربة قوية يتطاير لها من خلاله بعض غبار تاريخي ثم يلقي ما لابد أن يكون ردا على السؤال الذي ألقاه فيمد صوته بصفة مزعجة كلما اعترضه حرف علة، وما أكثر حروف العلة التي كانت تعترضه، وقد علمت فيما بعد أنه كان يريد أن يسيطر على المسجد كله بصوته ليسترعي الأنظار من ناحية، ثم ليبث الحماس في حلقته من ناحية أخرى.

وفي آخر المسجد عن يساري أرى حلقة مكونة من أستاذ وطالبين يقرأ أحدهما في كتاب، أما الأستاذ فلابد من أن تقترب منه جدا لتتأكد من أنه غير نائم، وليس في هذه الحلقة ما يستحق الذكر بعد ذلك. الا حركة يأتيها الأستاذ من آن لآخر مستعجلا ساعته، حتى إذا ما انتهى الدرس قام في بطء وخرج من أقرب باب دون أن ينبس خلال ساعة كاملة بكلمة واحدة.

وأسير بضع خطوات فإذا بي أمام طالب يقرأ في كتاب أمام أستاذ يردد على إثره نفس العبارة التي ينتهي من القائها مصفقا بيده هذه، أو ضاربا الأرض بقبضته عقب تلك.

ثم هذه حلقة كبيرة مترامية اضطر الأستاذ مع كبرها إلى أن يتربع فوق ما يشبه المنبر ليراه الطلبة جميعا وهو مضطر بالاضافة إلى ذلك إلى رفع صوت لا يسعفه ليسمعه الجميع، فإذا بهذا الصوت يخرج متكلفا يبعث غير المعودين عليه على الضحك حينا والاشمئزاز أحيانا.

وعندما اقترب من منتصف المسجد أجد شخصا ضئيل البنية والصوت، ماضيا في كلام سريع غامض يسأل من آن لآخر طلابه هل فهموا ؟ ثم يتلقف الجواب مقسما : «والله ما فهمتم».

لم يكن هناك بد من مرور بضعة أسابيع قبل أن أتعود على هذا الوسط الجديد، ثم أخذ موضوع جامعة القرويين يتخذ رويدا رويدا طابعا معينا في ذهني. فلما صار جدا ما لعبت به انصرفت إلى التتلمذ على بعض من

هؤلاء الأساتذة انصرافا، أخلصت له كل الاخلاص وبذلت جهدا صادقا إلى أن انصهرت في بوتقتهم.

وكان على رأس هؤلاء العلماء ــ كما كانوا يدعون ــ شخص لا أدري كيف استبد هذا الاستبداد العنيف بالتأثير علي. كان يرتدي عمامة ضخمة، ويحرص دائما على تقاليد العلماء التي عفا عليها الدهر حتى كان يخيل إلي في الأيام الأولى التي بدأت أعجب به فيها أنه فوق البشر، ولكن سرعان ما ذابت معنويتي تحت تأثيره.

وان تعجب فاعجب لمصدر هذا التأثير، ذلك أن ما كان يرتديه أستاذي العالم ينتمي بصلة وثيقة إلى ما كان يرتديه النساء في المغرب، في ذلك الحين، كان صوته أيضا شبيها بصوت النساء، وينطق الشين سينا الأمر الذي زاده قربا منهن، ومما زاد في حيرتي ان تكوينه الجثماني كان يباعد بينه وبين النساء، فهو ربع القامة مكتمل الجسم كث اللحية، متوفر العافية، وكدت أستقر على أنه من هؤلاء الأولياء الذين توافاهم إليه ثم بعثوا إلى الحياة مرة أخرى لسبب من الأسباب التي كانت من «الأشياء المفروغ منها» في ذلك الحين، وكان ايماني يزداد بذلك يقينا كلما سمعته يلقي هذا الدرس الذي أطلق عليه «درس العشاء» في إحدى الزوايا. فقد كان يروي فيها أقاصيص تستفز الخيال حقا.

كان يتحدث عن الخيول المجنحة التي تعبر السماوات وقد امتطاها الملائكة والأنبياء، وعن السراديب الخطيرة التي تفضي إلى جهنم، وعن المحجات اللحبة التي تفضي إلى جنات النعيم، وكان يضيف إلى ذلك حديثا مسهبا يدل على المامه الواسع بجغرافية الدار الآخرة، وقد وقع فيها هذا الميدان الشاسع الذي سوف تجرى فيه محاكمة رهيبة أمام الله القاضي الأعظم، أما كيف كان أعوان القاضي الأعظم يتخطفون الذين تصدر ضدهم الأحكام القاسية فأمر تطير له الألباب.

يضاف إلى ذلك حديث مفصل عن جسر طويل غريب لا يعدو

اتساعه الشعرة وهو في نفس الوقت أكثر حدة من السيف، وسوف يأتي اليوم الذي نؤمر فيه باجتياز هذا الجسر الخطير الذي لن يتمكن من اجتيازه غير الصالحين منا، ويمر هذا الجسر الخطير في سماء جهنم، ولذلك فإن من يعجزون عن عبوره ــ وهم جميعا من الطالحين ــ سوف يهوون منه إلى قرار سحيق يضطرم بألسنة من النيران الحامية.

ولما كانت جل معلومات الشيخ تتعلق بما خلف الحياة. فقد كان يعرف بدقة ما يجرى في القبور بعد أن يتم دفن الانسان، فاستطاع ان يطلع على حقائق مروعة انهاها إلينا دون تحفظ، ذلك أن جثة الميت لا تكاد تستقر في مرقدها الأخير وينفض من حولها المشيعون حتى تقع يدان ثقيلتان على كتفي الفقيد تنتشلانه مما هو فيه من غيبوبة لتدب فيه الحياة من جديد، ويتوقف مصير الجثة على الأجوبة التي يرد بها على سؤال الملكين العتيدين اللذين يقومان بهذه المهمة، فإذا كان الجواب مرضيا ترك الشخص ليعود إلى غيبوبة الموت أو ليفعل بنفسه ما يشاء. أما إذا كان الجواب غير مرض فللميت الويل والثبور اذ يجرد الملكان مطرقتين ثقيلتين ينهالان بهما على رأس الميت منكود الحظ بضربات تهوي كل ضربة منها به إلى مستوى الأرض السابعة، ثم يصعد منها مرة أخرى لتلقي ضربة مماثلة. ولا أعدو الحقيقة إذا قلت انني كنت أشعر بوطأة هذه الضربات لشدة تأثري بمعلومات الشيخ العجيب.

على أن أستاذ علم التوحيد ــ وان كان أقل اثارة لشدة غموض التعبيرات التي كان يستعملها ــ يأتي في المرحلة الثانية بعد جهبذ علم جغرافية الدار الآخرة، ذلك أن أستاذ علم التوحيد كان فاره الطول، يدل مظهره على جد لم يعرف الهوادة منذ السنوات الطوال، وكان يتحدث عن أشياء تداعب الفهم ولكنها لا تلمس التصور من قريب أو بعيد، والا فكيف أستطيع أن أتصور ما يوجد في كل مكان ومع ذلك لا يدركه حس... وقد انتهى الأمر بيني وبين أستاذ التوحيد هذا على أن هناك هوة

كبيرة تفصل بيني وبينه بحيث أن أجيالا كاملة لا تكفي للربط بين أسبابه وأسبابي.

ومن بين هؤلاء الأساتذة أستاذ أذكره بكل خير، فقد تمكن بهدوئه من اذلال كل صعوبة اعترضتني في المدرسة الانجليزية وفي المدرسة الفرنسية بعد ذلك، لأنه استطاع أن يجعل من علم النحو علما قريبا من متناول عقلي، فقد استفدت من هدوئه في الابلاغ وتأنيه في الشرح اضعاف ما استفدته من كل مدرسة انتسب إليها من قبل بالنسبة لهذا العلم الشائك الذي يجني على الأطفال جناية لا يكتشفون تفاهتها الا بعد أن يصبحوا رجالا...

كان أستاذ النحو أنيقا، واضحا، مكتمل الأداء، قابلا للفهم، وقد مكنتني كل هذه الصفات من أن أتبين ما يرمي إليه، ثم بعد ذلك من أن أدرك سر النحو على صورة تثير خجلي، ذلك أنني كنت أتصور هذا العلم على أنه علم صعب المنال شرس المراس بحيث لم يعد لي بد بسببه من أن أحكم على شخصيتي بالافلاس، ولهذا لا أظن أنني أبالغ في القول إذا قلت ان صاحبنا، أستاذ النحو، قد أسدى إلي معروفا لا يرقى إليه الشك، إذ تمكن من تقريب هذا الفن إلى عقلي فأصبحت شخصا لا يرقى الشك إلى سلامة تعبيره عند ذكر هذا العلم العسير.

وإذا كان من الواضح أن تزيد مثل هذه العلوم خيال الفتى فتنة واضطراما، فإن مما لا شك فيه أن تتضاعف تلك الفتنة ويتضاعف ذلك الاضطرام على إثر زيارة قام بها الفتى أثناء الليل لهذه المدرسة التي يبدو انها مسكونة بالخيالات والأشباح.

فتحت البوابة الضخمة وإذا بالسنة باهتة من الضوء ترقص هنا وهناك، ولم تكن هذه الألسنة كافية إلا للدلالة على أن المسجد مظلم... فسار الفتى خلف صاحبه وهو يخترق الأعمدة التي كان يخيل إليه أنها أشباح

تجمدت إلى أن وصل إلى باب المئذنة. وكانت الأعمدة من الكثرة بحيث حطمت أعصابه، فلما أنهى إليه الغلام المؤذن على رأس المئذنة أن أمرا خطيرا قد أصاب السماء وأن جنازة مروعة تقترب من المئذنة. وان بعض الموتى المفكنين سوف يعبرون السماء ولذلك فيجب أن يشد أعصابه وأن يبتعد عن أسباب التأثر ـــ بحث الفتى عن أعصابه فإذا بها قد توترت كلها، وود من أعماق قلبه لو لم يعرف جامع القرويين ولم يعرف أساتذتها ولا النظام الذي وضع لها من قبل، ولكنه بالرغم من العواصف التي اجتاحت روحه لم يستطع أن يتحرك فقد أصبح من واجبه الا يبرح مكانه، إلى أن تمر به تلك الجنازة الخيالية التي تقشعر لها الأبدان.

على أن مثل هذه الخيالات لم تكن كل شيء بالنسبة لما اقتحم حياة الفتى بعد اتصاله بجامعة القرويين، فانه قد ينسى في كل يوم من الأيام أنه وجد في هذه الحياة ولكنه لن ينسى أبدا ذات يوم من الأيام الماضية انه تحدى احد أعمامه.

وقد تحدى هذا العم حول العلوم التي تلقى في جامعة القرويين، وشعر في أول الأمر أنه أكبر منه سنا، وانه أكثر منه الماما بظروف الحياة على النحو الذي كان مفهوما ولذلك تقبل تحديه بصدر رحب، فلما ألقي عليه سؤالا وأعقبه بآخر، شعر العم بأنه أمام قوة غير مأمونة الجانب، وكان والد الفتى حاضرا فأشفق على أخيه، دون أن يكلف نفسه ستر اعجابه بموقف ابنه.

على انني إذا كنت آسف على شيء فلا يمكن أن يبلغ أسفي على تلك الأيام الذاهبة التي انحصر فيها مثلي الأعلى في أن أصبح شيخا تعلو رأسه عمامة ضخمة، ومم يخجل الانسان ان لم يخجل من نزوعه في يوم من الأيام إلى أن يصبح طاعنا في السن وهو في ميعة الصبا.

وإذا كانت تلك الأيام الغابرة قد انتهت بسرعة سريعة فلم أحاول هنا الافاضة في الحديث عنها.

44

لمست أن هناك وسطا في جامع القرويين ظللت بعيدا عنه في السنة الأولى التي قضيتها طالبا به وقد صرفني عنه انهماكي في فك الألغاز الأولى التي لابد منها للتبحر في العلوم...

ذلك أنني علمت أن شابا مبهما قد دأب على القيام بشبه احتلال المسجد بعد أن تؤدي فريضة المغرب إذ كان يتسابق إلى الالتفاف حوله آلاف من سكان المدينة فيعلو أمامهم منبرا قصيرا وينصرف إلى القاء درس قال عنه قوم ان سداه ولحمته الالحاد والزندقة وقال عنه آخرون انه قطعة من عصر النبوة قد بعثت في آخر الزمان، ولكنهما معا كانا مجمعين على أن هذا الدرس خطير جدا وان السلطة ضائقة به أشد الضيق منزعجة له أشد الانزعاج وانها ترسل أعوانها في كل مساء لتسجيل كل كلمة ينطق بها الشاب الغامض وتسجيل أسماء كل الذين يتزاحمون حوله.

واستفاض الحديث عن الشباب في المدينة بشكل لم يعد لي معه مفر من ان أعود إلى القرويين عند صلاة المغرب لأرضي هذا الفضول الذي أثاره حديث الناس، وسعيت إلى حلقة الدرس الهائلة التي بدا لي أن البصر لا يكاد يحيط بأطرافها، ومن خلف آلاف من الرؤوس تبينت هذا الوجه الضامر والسحنة الشاحبة والعينين البراقتين والجسم النحيل الذي كاد يضيع خلف أثواب لا يرتديها الا الشيوخ الضاربين في السن. وتناهى إلى صوت جهوري يتحدث عن أمجاد الاسلام الضائعة والدرك الذي انتهى إليه أمر المسلمين بسبب نسيانهم لمبادئ دينهم، واستفاض الشاب في حديثه وبلغ تأثر المحيطين به مبلغه، فكانت الرؤوس التي تمتد أمامي تهتز مؤمنة بكل حرف تسمعه فائضة التأثر.

وكان يحيط به رجال وشبان وغلمان يرتدون جلابيب من الصنع المحلي كما كان يبدو عليهم أنهم فخورون بما يرتدون من هذه الثياب التي لم يكن يرتديها من قبل غير الفقراء.

أصبحت أمام مجهول جديد مرة أخرى، فقد عدت إلى المنزل وأنا أتساءل : ما هو هذا العلم الجديد الذي أثار سكان المدينة بمختلف طبقاتهم إلى هذا الحد ؟ ولماذا لا يسمع الا الحديث عن هذا العلم في المنزل والمدرسة والشارع ؟ ومن هم هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم «الوطنيون» ولماذا تضيق بهم السلطة وتستدعيهم وتستجوبهم وتعتقلهم وتنفيهم في بعض الأحيان ؟ ولماذا لا يخشون الحكومة ويأبون الا أن يمعنوا في اغضابها سواء اعتقلتهم أو أطلقت سراحهم ؟

كنت أعرف أن الناس يعزفون عمن يتعرضون لغضب الحكومة وانهم ينظرون إليهم نظرة لا تخلو من اشمئزاز. فكيف استطاع هؤلاء الوطنيون أن يجمعوا بين غضب الحكومة واعجاب الناس ؟

لغز جديد لابد من خوض غماره.

ومنذ ذلك الحين بدأت أحاول أن أبحث عن أي خيط أستطيع أن أسايره للوصول إلى الحقيقة، فبدأت أتعرف إلى بعض غلمان كانوا يرتدون هذه الأثواب الخشنة المخططة، إلى أن استطعت أن أختلط بهم اختلاطا يسيرا. وما كدت أتبادل مع اثنين منهم الحديث حتى علمت أن اجتماعا قد عقد في أحد المسارح اطلقوا عليه حفلة تأبين لشخص بالغ العظمة يدعى أحمد شوقي. وان الشبان قد نهضوا في هذا الاجتماع وتباروا في إلقاء الكلمات والقصائد في تمجيد هذا الرجل العظيم، وكان على رأسهم الشاب الذي اعتاد أن يلقي ذلك الدرس الخطير في جامع القرويين فيما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء.

وتشعب الموضوع من جديد وعدت أتساءل : «من هو أحمد شوقي

هذا ؟ وكيف استحق أن يتحدث عنه الشاب الذي طبقت شهرته الآفاق، لابد انه رجل خطير الشأن. ولكن كيف تلقى الخطب في مسرح ؟ لماذا لم تلق في المسجد ؟

كنت أستحيي من أن أسأل من عرفتهم من لداتي الوطنيين عن هذه الأشياء التي كانوا يتحدثون عنها على أساس أنها مفهومة وواضحة فبدا لي أنني وحدي لا أفهم.

والحقيقة انني ضقت ذرعا بالا أفهم ما يفهمه لداتي، فوجدت نفسي ذات يوم أسعى إلى حي «السبطريين» ـــ وهو الحي الذي تباع فيه الكتب بالمدينة ـــ وانتقيت أصغر الباعة سنا، فسعيت إليه وسألته هل عنده كتاب عن شخص يدعى «أحمد شوقي» فقام وأخذ يبحث بين الكتب إلى أن أخرج لي من بينها كتابا بعنوان «المختار من شعر شوقي» ولما فتحت دفة الكتاب طالعتني صورة شيخ لا يرتدي مما يرتديه المسلمون ـــ أو على الأصح من عرفت إلى ذلك الحين من المسلمين ـــ غير الطربوش، وكان مكتوبا تحت الصورة :

«أحمد شوقي بك».

وزادت حيرتي : إذا كان هذا الرجل مسلما فلماذا يرتدي بزة النصارى ؟ وإذا كان نصرانيا فلم يدعى أحمد، وكيف استحق أن تقام له حفلة خطابية بالمدينة لتمجيده ؟ ولماذا لم يكتب كتابه بلغة النصارى ؟

ومرت أيام وأنا أتقصى الأمر إلى أن علمت أن هناك مسلمين آخرين غير المغاربة، وان هؤلاء المسلمين يرتدون هذا الزي فهو لذلك غير خاص بالنصارى، وان أحمد شوقي هذا مسلم عربي وكانت دهشتي أعظم عندما قيل انه شاعر، لأنني كنت مؤمنا من الشواهد التي سمعتها كثيرا في درس النحو ان الشعر خاص بالعرب الأقدمين الذين كانوا يقيمون الخيام ويسيرون خلف النوق، ويذرفون الدموع على الأطلال فكيف تخلف عن

عصرهم هذا الرجل ذو البزة الفرنجية والوجه الحليق وربطة العنق ؟

ومهما يكن من شيء فقد عكفت على قراءة كتاب المختار من شعر شوقي، وبالرغم من انني لم أفهم كثيرا من شعره فقد أحسست بطرب لبعض القوافي والأوزان، بل وبدأت أحاول أن أقلده وأذكر انني صنعت بضعة أبيات ما لبثت أن مزقتها لأنني عجزت عن أن أضعها في خطوط متوازية كالشعر الذي يصنعه أحمد شوقي.

واستقر الرأي بعد ذلك على أن هناك علما لا أزال متخلفا فيه تخلفا مخجلا هو علم الأدب، فلماذا لا أضرب صفحا عن كل العلوم الأخرى وأتوفر على دراسة هذا العلم الجديد كما فعلت في العلوم الأخرى إلى أن أصل فيه إلى رأي، فانهمكت على دروس الأدب في القسم الابتدائي كلها، وبدأت أسمع عن المعلقات ودروس الأدب العربي وألوان أخرى من الأدب ما زلت أتقرب إليها إلى أن بدأت أفهمها هي أيضا.

وسرعان ما جمعني الأدب بزملاء جدد كانوا جميعا من أشبال الوطنيين وكانت الوطنية والأدب شيئين عندهم لا يفترقان، وكنت أنظر إلى هؤلاء الزملاء على أن صغر سنهم لم يحل بينهم وبين أن يكونوا من جهابذة العصر، وكان خيالي يعجز عن تصور العظمة التي سوف يتسنمون ذراها حينما يصبحون رجالا.

ولكن الأدب استهواني أنا أكثر من الوطنية بعد ذلك وقد سمحت لنفسي بأن تنقاد معهم إلى السجن حيث قضيت شهرا كاملا معهم لأننا ذهبنا نتحدى حاكم المدينة ونصرخ في وجهه بكلمات ذات رنين، فلما دار الحول وجاءت مناسبة أخرى لتحدي الحاكم من جديد كنت قد أقسمت الا امنح حريتي بيدي لأحد مرة أخرى.

ولقد أخذت الغرفة التي خصصها لي والدي في أعلى المنزل تتحول رويدا رويدا إلى صومعة للقراءة بعد أن اكتشفت المجلات والكتب

الحديثة، فقرأت عشرات من الكتب العربية الحديثة عرفت بواسطتها كتبا عربية قديمة فعكفت عليها، وبعد أن كنت أقرأ بعض ساعات من النهار أصبحت أقضي يومي كله وجزءا من ليلي في هذه القراءة.

ولما كانت ظروفي المادية لا تسمح لي باقتناء ما أنا في حاجة إليه من كتب فقد اتفقت مع نفس الشخص الذي اشتريت منه كتاب «المختار من شعر شوقي» على أن أحمل إلى غرفتي من كتبه ما أشاء نظير خمسين فرنكا كل شهر، وهو كل المبلغ الذي كان والدي ينقدني إياه شهريا فتمكنت بذلك من أن أقضي شهورا عدة في صومعتي أقرأ وأكتب وأقرض الشعر وأحفظ في نهم أثار اشفاق والدي، وكنت في بعض الأحيان أرفض أن أغادر الغرفة لتناول طعام الغداء، ولشد ما أتمنى اليوم لو أن ذلك النهم صاحبني مدة أطول من المدة التي صاحبني فيها.

ثم لم يلبث أن جاء اليوم الذي تعرفت فيه إلى الشاب الغامض الذي أثار بدروسه كل هذه الاتجاهات في حياتي، كان قد أصبح زعيما للوطنيين في سرعة فائقة، فغمرني اندهاش مريح حينما وجدته وأنا بين تلامذته في منزله رقيق الجانب يتبسط في الحديث ويميل إلى الفكاهة بعد أن كان يخيل إلي لكثرة ما سمعته يصيح في المجتمعين حوله بالمسجد صيحات تدعو إلى التمرد والتحرر، ولكثرة ما سمعت عنه من قدرة على اغضاب الحكومة وتعريضها لنقمة الجماهير انه شخصية مشاغبة شرسة، لا تكاد تجلس إليها حتى تقذف في وجهك البراكين وتتوعدك أشد التوعد وانكره إذا أنت لم تسارع إلى التخلص من حاضرك والعمل على إحياء الماضي المجيد.

وانتظمنا حول الرجل شهورا عدة، كنت أخشى في أولها أن يمزق كتب الأدب التي كنا نحملها ويطلب منا أن نأتي عملا أجدي، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك وإنما شجعنا وعقد لنا اجتماعا أسبوعيا في منزله كنا نخصه

لتناول شؤون الأدب وقراءة ما عسى أن نكون قد كتبناه خلال الأسبوع، واستعراض ما عسى أن نكون قد قرأنا من فصول أو كتب.

وهكذا توفرت الحوادث والمفاجآت على أن تحدد اتجاهي في المستقبل، ومن يدري فلعل هذا المستقبل أن يكون قد تحدد على نحو آخر متباين أشد التباين مع المستقبل الذي حصل بالفعل، لو لم يسارع ذلك الشاب بعد صلاة المغرب إلى إلقاء دروسه في جامع القرويين، ولو لم يمت الشاعر العظيم في ذلك الوقت بالذات، ولو لم يعثر الغلام بائع الكتب في رفوفه على كتاب المختار من شعر شوقي.

مصادفات عارضة وأحداث صغيرة نتعرض لها مئات المرات دون أن نعيرها حتى الانتباه ولكنها تبلغ على تفاهتها في بعض الأحيان مبلغا من القوة يحدد أمامنا المستقبل تحديدا قد يكون فاصلا.

45

تعال معي إلى غرفتي التي قلت عنها أنها كانت بمثابة صومعة أو برج من بروج العاج فلقد ارتبطت فترة من حياتي بهذه الغرفة بصفة لا يصح معها أن نعبر بها دون أن نقف عندها.

كنت أميل ميلا شديدا إلى الانفراد وأعزف عن الضجيج والجلبة في هذه الفترة التي أتحدث عنها، ولذلك فإنه ما كاد يستقر بنا المقام في المنزل الأخير حتى خصص لي والدي غرفة منعزلة كانت تقع وحدها في أعلى مكان فيه، وكان اغتباطي عظيما بها بحيث كنت أقضي فيها وقتا طويلا، ولكن حياتي كانت شبه فارغة حينذاك ولذلك كان يقتصر ما كنت أقوم به فيها على أداء الصلوات الخمس في خشوع وتطويل واتقان لا مزيد عليه.

وللصلاة قصة أيضا.

اكتشفت الصلاة في وقت مبكر من حياتي حينما كان يقوم بها التلامذة في المدرسة بانجلترا، وكان علي أن أقضي وقت هذه الصلاة في ساحة المدرسة لأنني ــ كما أخبرت في ذلك الحين ــ مسلم، أما الصلاة الأخرى فيؤديها التلاميذ الذين ينتمون إلى ديانة قيل اسمها النصرانية، كما أسلفت في مكان سابق من هذه الفصول.

وازداد اتصالي بالصلاة في المنزل فقد كان والدي يرجع إليه قبيل وقت الغروب فكان أول ما يقوم به هو أن ينطلق إلى الحمام ويغسل أطرافه ثم يدخل إلى غرفة النوم ويبسط سجادة صغيرة على الأرض ثم يرفع يديه إلى رأسه ويشرع في الصلاة وكان يلقي الآيات بصوت متبتل وئيد عميق، كل ذلك وأنا أرقب قامته وهي تنحني وتنصب على ضوء آخر النهار الغامض

الذي لم يكن يتسلل من خلال النافذة منه الا ما يكفي لتبين حركات والدي.

واستقرت هذه الصورة في أعماقي، وبالرغم من أنني لم أكن أفقه حرفا واحدا من الكلمات التي كان يسردها فقد كانت تترك في نفسي معنى جليلا لا يخلو من رهبة، ولشد ما كانت تستبد بنفسي رغبة ملحة في أن أقلد والدي الذي ارتفعت به الصلاة في عيني إلى مكان سام يشرف منه على حقائق الحياة كلها، بل كنت أقلد حركات الصلاة وأنا في غرفتي وكنت أشعر بأسف شديد لجهلي باللغة التي كان يؤدي بها تلك الصلاة.

وما كدت أرجع إلى المغرب وأحفظ بعض السور القصيرة من القرآن واتعلم بعض قواعد الوضوء والصلاة حتى سارعت إلى أداء الفرائض الخمس، بحيث لم يكن يقترب ميعاد واحد منها حتى أكون قد توضأت وسارعت إلى غرفتي في انتظار حلوله. فلما تقدمت الأيام وتعرفت إلى جامع القرويين وقع عكس ما كان منتظرا، ذلك أن مراعاتي لأداء الصلاة في مواعيدها المحددة أصابها بعض الفتور، ثم بدأت أتساهل في اغفال بعض منها، ثم أهملتها بعد ذلك اهمالا تاما يبعث على الدهشة، وجاء اليوم الذي فيه والدي يأمرني بأدائها، فأصيب أطرافي بقليل من الماء ثم أدخل إلى الغرفة المجاورة وارفع صوتي بالصلاة وأنا ملقى على الحشية، كنت أقوم بنفس مجهود الصلاة تقريبا دون أن أصلي...

وعلى ذلك لم تشهد غرفتي من صلواتي الأولى الا النزر القليل.

ولما تعرفت إلى الوطنية والعلم أخذت غرفتي تعرف أشياء جديدة، فبعد أن كانت مؤثثة بسرير وحشية أخذت أشياء جديدة تدخل إليها، سعى إلى جانب منها مكتب وكرسي وإلى جانب آخر خزانة للكتب، وفي أثر ذلك سيل من الكتب والمجلات والأوراق والأقلام حتى لم يعد فيها أخيرا موطئا لقدم.

ولم يكن أحد غيري يزور هذه الغرفة سوى الخادم التي كانت تنظفها في الصباح، وأخي في بعض الأحيان.

وفي هذه الغرفة تعودت على شيء جديد لازمني فترة طويلة ولم يبرحني الا أخيرا وهذا الشيء الجديد هو الهدوء والامعان فيه إلى وقت قريب من الصباح، ذلك أن الهدوء التام الذي يكتسح الأصوات والحركات أثناء الليل كان يساعدني على الانغمار المطلق في الكتاب الذي كنت أقرأه أو السطور التي كنت أكتبها.

ترى ماذا كنت أكتب في غرفتي خلال تلك الأيام الذاهبة لقد تركته فيها منذ زمن بعيد الآن، ولا أكاد أتذكر منه شيئا، ولكنني أتذكر أنني دبجت مئات من الصفحات المنثورة ومئات من المنظومة، وان كنت أستطيع أن أصف النثر بأنه كان يشتمل على كثير من الزعم وان أصف الشعر بأنه كان يشتمل على كثير من الحزن حتى أنني وضعت في مقدمته عنوان (القلب المحطم)، وأراني أعطف اليوم على القليلين الذين قرأت عليهم شعري، لما كنت أغمرهم به من غم وكآبة.

على أنني لم أكن أسهر دائما هذه الساعات الطويلة من الليل في القراءة والكتابة فحسب فكنت أسهرها أيضا في بعض الأحيان وأنا أنظر إلى السقف في شبه غيبوبة أو مستلقيا في السرير متبرما بكل ما يتصل به من قريب أو بعيد فكانت الثواني والدقائق تمر في تثاقل وكآبة كما لو كان قد ركبها هي أيضا هم ثقيل.

ولا أحتاج أن أقول أنني تعودت بسبب هذا السهر على شيء آخر لزمني مدة طويلة وان كان كريها على نفسي بحيث قاومته بكل قواي، وهو ان أظل نائما إلى الظهر تقريبا، وإذا كانت هذه العادة تجدر بالمدمنين والمقامرين ورواد اجحار الليل من المترفين العاطلين فإنها بعيدة عن أن تجدر بغلام تتفتح أمام عينيه أزهار الحياة وورودها، ولكن هذا ما حدث فقد كان سريري يزداد وثارة كلما اقترب النهار، بل انني وضعت ستارة

كثيفة على النافذة حتى لا أرى وجه الصباح، وأذكر بكل خجل انني استيقظت من نومي ذات يوم بعد الغروب فتندر بذلك أفراد العائلة مدة طويلة.

ولما كان في استطاعتي أن أغادر غرفتي وأرجع إليها دون أن يفطن بي أحد من سكان المنزل، ولما كان السلم الذي يفضي إليها طويلا عاليا، فقد كنت أتمتع بميزة قدرتها كل التقدير وهي أن أحدا منهم لم يكن يعرف هل أنا بالمنزل أو خارجه.

وقد لاحظ الجميع أن أحوالي قد تطورت وعراها نوع من الشذوذ بعد التحاقي بالقرويين، بيد أنهم كانوا يرون انه لابد أن يكون ذلك لصالحي مادام قد حصل بسبب انتمائي إلى الجامع العتيد.

وفي هذه الغرفة بدأ رأسي يضيق بالتطلع والنزوع، بالرغم من كل الامكانيات الضيقة التي كانت تحاصرني، فقد تعرفت إلى ألوان من الحياة في الأدب العربي، وتعرفت إلى ألوان من الحياة المعاصرة فيما كنت أقرأ بالمجلات المصرية القليلة التي كانت تصل إلى المدينة في ذلك الحين، وإذا بي أحلم بالطيران ورجلاي ترسفان في اغلال ثقيلة.

سألت نفسي ذات يوم لقد أصبحت تعرف الكثير عن مصر وتحبها ولا تحيا الا فيما يكتبه أبناؤها فهل تستطيع أن تتنبأ وتعرف هل يتاح لك في يوم من الأيام ان تزورها، ولو بعد سنين طويلة.

وكنت جاهلا بالتطورات المفاجئة في الحياة فأجبت نفسي «لا» لن ترى مصر أبدا ولكن بعد سنة واحدة من هذا الرد كنت طالبا في جامعة القاهرة.

لقد طالما ضمتني هذه الغرفة وأنا أنتفض من الغيظ بسبب الارهاب الاستعماري، وضمتني وأنا راض عن الحياة بسبب نجاح أصبته في الدراسة أو في ناحية أخرى من نواحي الحياة، وضمتني وأنا أبكي حزنا على هذه الكوارث المبهمة التي كنت أشعر بها دون أن أراها وكان مرجعها

إلى هزة عاطفية قوية ترج عبثا اليأس الذي كان يحيط بي من كل أقطاري، وضمتني وأنا ابعثر أوراقي وكتبي بحركات صبيانية كنت أول من يدهش لصدورها عن شخص يرى أنه قد تبحر في العلوم والآداب.

فلو أتيح لهذه الغرفة ان تتحدث للذين يقيمون بها اليوم عني، لفغروا أفواههم من الدهشة أحيانا، ولضحكوا من أعماقهم أحيانا، ولصعقوا في مكانهم أحيانا، ولبكوا في تأثر شديد أحيانا، ولثاروا غضبا أحيانا، ولعراهم الاشفاق أحيانا، ولأعجبوا بي حينا.

لماذا ؟ لأنه لو أتيح لهذه الغرفة أن تتحدث لانطلقت في الحديث عما رأته من ذلك الغلام في وضوح لا يعرفه الانسان حينما يتحدث عن نفسه مهما كان مخلصا في هذا الحديث ومهما باعدت الأيام بينه وبين الفترة التي يتحدث عنها من حياته.

يستطيع القارئ أن يتصور باقي حياتي بعد هذه السطور التي كتبتها، ولكن غرفتي شهدت حادثا يثير ضحكي كلما تذكرته، ذلك أنني كنت أقرأ في إحدى المجلات الأدبية التي تصدر في مصر مقالا عن الحياة الأدبية في قطر عربي أظنه العراق ـــ وكان صدري قد ضاق لأنني تتبعت هذه المجلة ـــ وهي أسبوعية ـــ عدة شهور دون أن تقع عيني على كلمة «المغرب» لا بالخير ولا بالشر، وذلك على عكس سائر الأقطار العربية الأخرى، كأن هذه البلاد لا علاقة لها بشقيقاتها في علم أو أدب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ـــ في الوقت الذي كنت قد قرأت بكل إعجاب ان هذه البلاد كانت الوحيدة التي حافظت اللغة العربية فيها على سلامتها خلال القرن الثامن عشر وجزء كبير من التاسع عشر.

وقرأت في المجلة عقب الفراغ من المقال اقتراحا يطلب بمقتضاه الكاتب من الأدباء في أقطار العرب ان يكتبوا للمجلة مقالات عن الحياة الأدبية في بلادهم، وكنت أكبر العملية الاكبار كله فقلت انها فرصة سوف يتاح للمغرب أن يذكر في المجلة بسببها.

وشهدتني الغرفة وأنا أتساءل هل هناك من سيكتب لهم ؟ وترددت قبل الجواب، ثم بدا لي أن عشرات سوف يكتبون لها.

وفجأة ـــ ولا أدري كيف ـــ شهدت الغرفة سؤالا غريبا يشق طريقه إلى رأسي.

لماذا لا تسبقهم جميعا وتكتب الآن مقالا عن الحياة الأدبية في بلادك ؟

وفي جرأة عجيبة تناسيت مكانة المجلة، وتناسيت أنني لا أزال أحوم حوالي السادسة عشرة من عمري، فجلست إلى مكتبي في كل وقاحة، وأخذت أكتب، فإذا بي ابتسر الأحكام من هنا وهناك، وأضع هذا في قفص الاتهام، وارفع ذلك فوق الأكتاف، وأجرد من نفسي قاضيا يحكم على الماضي والحاضر والمستقبل.

ولم أفكر في خطى هل سيقرأ في مصر أو لا يقرأ وإنما دسست المقال في ظرف كتبت عليه عنوان المجلة وهرعت في جد مذهل إلى صندوق البريد، ولاشك أن حيطان غرفتي بعد أن غادرتها قد انخرطت في ضحك صاخب طويل متواصل لا يكاد يفتر حتى يعلو مرة أخرى في أنغام كلها سخرية واندهاش.

ومر حوالي أسبوعين استيقظت فيهما من غروري، ولكنني لم أحفل فإنني سوف أتيح لرئيس تحرير المجلة أن ينفس عن صدره بعض ما يلقاه من جهد في تحريرها ـــ كما كنت أتصور ـــ ولا ضير في ذلك، فهو لا يعرفني على كل حال.

وصعدت الخادم إلى غرفتي وفي يدها عدد من المجلة حمله البريد ـــ فقد نسيت أن أقول انني كنت مشتركا فيها ـــ وفضضت الظرف وأخذت أقرأ الفهرس على عادتي لأعرف من سوف أتمتع بقراءتهم في ذلك الأسبوع، وكنت خالي الذهن تماما من المخرقة التي أقدمت عليها، وإذا بي أقفز قائما وقد وقف شعري، إذ وقع نظري على اسمي مطبوعا.

تصفحت المجلة في سرعة وارتباك ومرت فترة قبل أن أعثر على مقالي، ولاشك أن حيطان الغرفة وقفت مثلي فاغرة أفواهها في دهشة وعجب، ولاشك أنها لم تصدق فأحنت رؤوسها خلف كتفي لتتأكد بنفسها من أنني صادق.

أما أنا فلم أحفل بالحيطان فغرت أفواهها أو وقفت جامدة لا تحس، كما خلقت، وإنما مضيت أقرأ المقال بصوت عال عدة مرات، ثم بدأت أقفز وأرمي المجلة في الهواء والتقطها ثم تذكرت أن هذا لا يليق بكتاب المجلات، فحملتها في رفق تحت ذراعي وأخذت أفكر فيما يجب عمله بعد دخول هذا التغير على حياتي، كل ذلك وأنا أفتح المجلة من آن لآخر لأتأكد من أن المقال نشر وأتحسس أنحاء جسمي لأجزم بأنني لا أحلم.

وكدت أدرع السلم مثنى وثلاث ورباع، ولكنني تذكرت المكانة التي تبوأتها فنزلتها وئيد الخطى، مرفوع الرأس كما لو كان ما حدث عاديا طبيعيا لأعرض على والدي المجلة حتى يعرف أن ابنه لم يكن يهزل حينم صمم على أن يصبح في لمح البصر من كبار العلماء ومن رجال الفكر وقادة الرأي.

ولما عدت إلى اتزاني ازداد غروري فقد كنت أعرف أن المصريين يكتبون بغير الخط الذي كتبت به المقال فتصورت أن رئيس التحرير ـــ لشدة اعجابه به ـــ جمع المتخصصين في الخطوط لفك ألغازه حتى لا يفوت المجلة ان تدرج اسم كاتبه إلى جانب أسماء المازني وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم من كبار الكتاب في مصر.

فيا حبذا لو كان في استطاعتي اليوم أن أرجع إلى حيطان غرفتي وأغرق معها في ضحك صاخب طويل متصل على الغلام الذي أصبح في طرفة عين وقبل أن يبلغ الحلم من كبار الكتاب.

46

ولكن مهلا، فلم الاغراق في الضحك مع حيطان غرفتي على الغلام الذي دس اسمه بين أسماء كبار الكتاب، ذلك أنه إذا لم يكن للمقال الذي كتبه قيمة في حد ذاته فقد كانت له قيمة خطيرة وخطيرة جدا بالنسبة لما أحدثه من أثر في كاتبه سواء بالنسبة لنفسه أو بالنسبة لمن كانت تربطه بهم أسباب أو بعض أسباب.

والحقيقة انني لم أقدر خطورة ما أقدمت عليه وأنا في المنزل أعرض مقالي في خيلاء على من يعرف القراءة ومن لا يعرفها، ولكنني قدرتها بعد ذلك حينما برحت المنزل وقابلت بعض من أعرف ومن لا أعرف من المعنيين بقراءة المجلات.

قلت أنني أصبت بغرور في المنزل، ولكن غروري في المنزل كان اندفاعا صبيانيا في موجة عابرة من الغبطة والرضى عن النفس وما لبثت أن عذرت نفسي بعد أن تبينت حقيقتها وبذلك بدأ العمل الذي أقدمت عليه يفقد خطورته في نظري تدريجيا.

ولكن هذا الغرور انفجر كأقوى ما يكون الغرور حينما قابلني أستاذ بمدرسة ثانوية وأخذ يغلظ لي القول في صخب لا مزيد عليه لأنني لم أورد اسمه بين الأدباء الذين تحدثت عنهم، وأضاف إلى ذلك أنه لا يدافع عن نفسه فقط ولكنه يضيف لوما إلى لوم لأنني أغفلت ذكر كثيرين يعرف أنهم أساتذتي وهذا عقوق لا يمكن السكوت عنه.

فأحكامي صارمة إذن، وسكوتي عن هؤلاء الناس في المقال الذي كتبته سوف يحذف أسماءهم من سجل الأدباء، لا لأنني نصصت على إنكار قيم آثارهم الأدبية ولكن لأنني صفحت عنهم ذكرا، مجرد صفح

الذكر عنهم من قلمي يكفي لأن يحيق بهم قضاء محتوم، والا فكيف أبرز الغضب الذي قابلني به هذا الأستاذ الجليل الذي لا أذكر انني رأيته من قبل.

وكاد الغرور ينفجر في نفسي مرة أخرى كأعنف ما يكون الغرور حينما فاه في وجهي أحد الذين كنت أعرف أنهم يقولون الشعر بألفاظ نابية وتحداني بأن يمزق جلدي إذا لم أورد اسمه بين ما أورد من أسماء فيما عسى أن أكتبه من مقالات مرة أخرى.

فذكري للأسماء وعدم ذكري لها إذن أمر بالغ الخطورة، بل يكفي الا أذكر اسمك مثلا حتى أفرض على التاريخ أن يحذفك من سجلاته مهما سمت المكانة التي تحتلها أو سوف تحتلها فيه، والأحكام التي أصدرتها على الماضي والحاضر والمستقبل أحكام فاصلة لا تقبل الجدل وإنما تقبل أن يقابلني أحد الذين حذفت اسمهم من التاريخ ويهددني بأن يمزقني إذا لم أعد اسمه إلى السجل الذي حذفته منه.

وجاءني شاب فاره يعرض علي شعره ويقرأه لي، وهو لا يلومني وإنما يلوم نفسه لأنه لم يعرض علي شعره ــ الذي لم ينشر قبل أن أكتب مقالي ــ ولكن في استطاعتي أن أراجع الأحكام التي أصدرتها بعد قراءة شعره.

فليس في استطاعتي إذن أن أحذف من سجل التاريخ فحسب ولكن في استطاعتي أيضا أن أشير إلى الذين أهملهم التاريخ ولم يسترعوا انتباهه، وهذا يكفي لأجل أن يضم أسماءهم ممجدة إلى سجلاته.

وما كدت أطالع جماعة من الطلبة في جامع القرويين حتى هبوا في وجهي بين لائم وساخط وغاضب بسبب نفس المقال.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أرسلت عشرات من المقالات إلى كل الصحف التي تصدر تقريبا في العالم العربي، ونشر زعيم خطير مقالا

في إحدى المجلات أشار إلي بأنني من الكتاب الناشئين، ولم أكن ـــ علم الله ـــ قد بلغت مبلغ الكتاب الناشئين حينما خطر ببالي أن أكتب المقال الذي أثار كل هذا الضجيج بل أن (غلاب) وكان أقرب أصدقائي ومن المعروفين بالتروى ثار ثورة عنيفة لا لأنني لم أذكره ولكن لأنني تسرعت وقدمت وأخرت وعبثت بكل ما تحدثت عنه، ولم يكتف بذلك بل خف إلى منزله وعكف على كتابة مقال آخر في نفس الموضوع وبادر إلى إرساله إلى المجلة التي نشرت مقالي، وجاء مقاله أكثر إسهابا وهدوءا وانصافا فنشرته المجلة كما لا أحتاج أن أقول.

وأبى هذا المقال إلا أن يلاحقني بعد ذلك بعد سنوات فقد نهض طالب في السنة الثالثة من كلية الآداب بجامعة القاهرة يطلب من الطلبة أن ينصتوا إليه، ثم أعلن لهم الا يغتروا بما يبدو على من صغر السن فقد عثر على مقال مكتوب تحت إمضائي في إحدى المجموعات من المجلات القديمة بمكتبة الجامعة وذكر لمن أراد التأكد بنفسه رقم المجلد ومن يدري فقد يثور في وجهي ذلك المقال مرة أخرى أو في وجه أحد أبنائي أو أحفادي.

وكان له إلى جانب ذلك أثر آخر ولكن في نفسي أنا فما لبثت أن ضقت ذرعا بكل هذا الضجيج والغضب الذي تعرضت له فتحملته صابرا في أول الأمر وعزيت نفسي بما لقيه طه حسين بسبب كتاب «في الشعر الجاهلي» ولكنه استفزني في آخر الأمر فسارعت إلى غرفتي في هذه المرة وأنا ثائر غاضب وكتبت مقالا آخر أودعته كل ما تحفل به نفسي من صنوف الغضب وألوان الثورة وأرسلته إلى مجلة أخرى، ولم يفاجئني النشر في هذه المرة فقد تلقيت رسالة من رئيس تحرير المجلة ينبئني فيها بأن المقال وصله وانه سوف ينشره في العدد القادم، بيد أنه بالرغم مما أودعته من صنوف الغضب وألوان الثورة فإنه لم يحدث الا أثرا يسيرا.

وذهب المقال الأول يغذي قواي ويشجعني على موالاة إرسال مقالات وقصائد أخرى إلى مختلف الصحف حتى أصبح من العادي أن أرى إسمي مطبوعا.

فلما أرسلت يوما قصيدة إلى إحدى الصحف الأسبوعية وأرسل لي رئيس تحريرها يطلب مني نسخة أخرى منها معتذرا بأن النسخة الأولى ضاعت منه أثناء السفر بدا لي أن الأمر يتطور من خطير إلى أخطر، فإن رؤساء التحرير لا يوافقون فحسب على نشر ما أقدمه إليهم ولكن يحرصون أيضا على نشره ويطلبون نسخة ثانية إذا ما ضاعت منهم النسخة الأولى.

لم يكن هذا الغرور مقتصرا علي أنا وحدي فما أزال أراني أجوب ضواحي المدينة الشجراء مع أصدقائي من الأدباء الوطنيين وكنا نسير الساعات الطوال مستمتعين بجمال الطبيعة ونحن نتحدث في مختلف المواضيع التي لا تكاد تترك شيئا دون أن تطرقه طرقا خفيفا ثم تقفز منه إلى غيره لتطرقه طرقا خفيفا أيضا، حتى كاد يصبح من المفروغ منه أننا أصبحنا من كبار العلماء.

كان غرورا مفرطا ما في ذلك شك ولكن هذا الغرور أيقظ في نفوسنا الايمان بالذات كأقوى ما يكون، فكان الواحد منا يرسل الأحكام العامة الواحد تلو الآخر فيؤمن الآخرون عليها، فنستغرب لبساطة ما في الحياة ونستغرب كيف يعجز غيرنا عن الوصول إلى حل لأبسط المشاكل في نظرنا.

والحقيقة أن الانسان قد أحاط نفسه بكثير من الاعتبارات التي لا لزوم لها وهذه الاعتبارات دون شك تعميه عن الصواب كثيرا.

ولكن الحقيقة أيضا أنه كلما قلت المعلومات التي يعرفها المرء سهل عليه أن يصدر الأحكام العامة إصدارا، ولو فرضنا أن مرءاً عرف من الحياة

حقيقة واحدة أو حقيقتين لوجد كل ما يصادفه من مشاكل يسيرة الحل، ولكن كلما كثرت الحقائق في رؤوسنا وكلما تعرفنا إلى آلاف التفاصيل التي تكمن خلف كل حقيقة منها، كثر ترددنا قبل أن نصدر حكما من الأحكام بل ربما عجزنا عن إصدار حكم من الأحكام.

يضاف إلى ذلك أيضا أن قلة التجارب في الحياة تجعل الحلول في متناول اليد حتى إذا ما تقدمت بنا السن وكثرت تجاربنا بدأت تلك الحلول تنأى وتبعد عن متناول أيدينا. وبذلك نصبح في حاجة إلى تفكير أعمق وأدق قبل أن نحكم على ما يحيط بنا.

على أن الحياة بين أصدقائي لم تكن تقتصر على إصدار الأحكام والتحدث عن الأدب وتسفيه أحلام الاستعمار بل كانت تشمل جانبا آخر أيضا حافلا بالبهجة والاستمتاع، وتتلخص في قضاء عدة أيام في البادية وإن لم يكتب لي أن أذهب معهم إلا مرة واحدة حين استدعانا الصديق (ثابت) لقضاء فترة من الاجازة في ضيعة كان يملكها والده.

ولست أذكر كثيرا عن هذه الرحلة التي قمنا بها إلى الضيعة ولكنني أعرف اننا كنا نقضي النهار في التجوال والقراءة وتناول الطعام، كما كنا نقضي جزءا من الليل في المرح والضحك.

ولكن أبرز ما أذكره موقفان :

رأى الصديق (مليح) أننا نكثر من الصخب والاضطراب طول النهار وأثناء جزء كبير من الليل، فاقترح اقتراحا بالغ الغرابة وهو أننا شغلنا اليوم جله بالقراءة والاضطراب والحركة فلماذا لا نفرد منه جزءا نطلق عليه «فترة التأمل».

وفي «فترة التأمل» هذه بناء على اقتراح الصديق كان على كل واحد منا أن يلقي بنفسه حيث اتفق من الغرفة، ويلوذ بالصمت ثم يطلق لتأملاته العنان دون أن يفرض على نفسه موضوعا من الموضوعات. ولم يكن

ينقصنا في تلك الفترة إلا عدد من الأطباء النفسيين ليطلبوا منا أن نجاهر بتأملاتنا ليقوموا اعوجاج نفوسنا.

أما الموقف الثاني ففي فترة غروب الشمس.

كانت الضيعة تقع في إحدى ضواحي مدينة فاس في مكان يطلق عليه «بئر غمارة» وكانت تقع فيها ربوة عالية لا تكاد الشمس تجنح إلى الأفق حتى نتسلقها، وكان يتزعمنا الصديق «ثابت» ولا تكاد ألوان الغروب تميل إلى الشحوب وتتماوج حتى يسودنا صمت عجيب يتحول مع مرور الوقت إلى شعور بألم مرير لغروب الشمس حتى إذا ما غابت علا صوت ثابت يندبها ندبا صادرا عن أعماق قلبه، بل كان في بعض الأحيان يرسل خلفها دموعه المدرارة وهو يرثيها رثاء يبدو لمن يسمعه ان الشمس قد غابت لغير رجعة.

على أن الوشيجة التي جمعت بيننا كانت أقوى من أن تقتصر على ما أوردته في هذا الحديث، فقد بلغت من القوة مبلغا تمكنت به من أن تجزمنا في ربطة واحدة وتقذف بنا جميعا إلى مصر، فلم تكن الفترة التي قضيناها في المغرب على نحو ما أوردت سوى تمهيداً قصيراً لحياة حافلة طويلة لا مجال لها هنا فلم يخصص هذا المكان للحديث عنها.

47

ما أن استسلمت لحياتي الجديدة مسلما قيادة نفسي للتمتع بهذه الانطلاقات الأدبية الأولى، شديد الولوع بالعالم الخيالي الذي فتحت لي أبوابه على مصاريعها، مبتهجا بما اكتشفته من توقد الروح لتشبعه بالجمال والمثل العليا والحقائق الوهاجة التي طالما تراقصت حولي دون أن أدرك لها وجودا حتى عادت الذبذبة تنتاب ما أحببته من استقرار.

فلقد عبثت باستقراري حادثتان.

أما الأولى فمرض طارئ رأيته رأي العين وهو يهاجمني ويستقر في جسمي داء وبيلا وان كنت أجهل كنهه إلى الآن، ذلك أنني كنت مارا وحدي بضاحية «الدوح» من مدينة فاس وإذا بعاصفة هوجاء تثير حولي سحابة من الغبار الداكن يتخللها ما كانت تنفضه الأشجار من أخريات أوراق الخريف، وغمرتني السحابة غمرا كاد يذهب بوعيي فلما انجلت أحسست بانهيار مفاجئ أخذت تتلاشى معه معالم المرئيات وعراني الارتجاف وأحسست بفراغ هائل يضمني إلى صدره ضما لا رحمة فيه فسعيت إلى أقرب جدار استند إليه، وكاد وعيي يتلاشى ولكنني استجمعت قواي وتشبثت به في عناد بحيث تمكنت من أن أجر خطواتي جرا إلى المنزل بالرغم من المسافة الطويلة التي كانت تفصل بيني وبينه.

بدأ الشحوب يمتص صباي في نهم منذ تلك اللحظة ومع مرور الأيام بدا على أهل المنزل أنهم ينتظرون لي نهاية كنهاية أختي فسادهم القلق، ولكن شخصا واحدا من أهل المنزل لم يضطرب.ولم تغمره الوساوس هو أنا، ولم يكن ذلك صادرا عما أومن به الآن من شدة تأثير الارادة الانسانية

على الجسم، وإنما كان مصدره انهماك تفكيري في هذه الأشياء الجديدة التي اكتشفتها وعجزت عن أن أنصرف عنها.

هأنذا ملقى في سريري وقد بلغت الساعة الحادية عشرة مساء، وقد برمت بالمنزل ومن فيه بعد أن قضيت فيه سحابة يومي، ولكن بيتا من الشعر يداعب خيالي منذ الصباح، وإذا بي أغادر السرير وأرتدي ثيابي، بينما كان أبي ينظر إلي.

قال في اشفاق : ماذا تصنع ؟

وبدا عليه الانزعاج حينما قلت له أنني سأخرج لأمر هام يتعلق بدراستي، فلم تسمح له هذه الحرية الواسعة التي منحني إياها منذ أصبحت أنتسب إلى جامع القرويين، بأن يعترض سبيلي.

سرت في الأزقة المظلمة إلى منزل أحد أصدقائي بخطوات واهنة وأنفاس مجهدة، وأذكر الآن ما كان يتصف به جدي من عناد وأنا أتخيل نفسي في طريقي إلى منزل الصديق، والحقيقة أن شوقي إليه كان يحدوني، إلى جانب بيت الشعر الذي كان يداعب خيالي.

وفغر الصديق فاه حينما رآني، ثم حاول أن يعاملني بالرأفة التي تجدر بالمريض ولكنني تجاهلت رأفته ومضيت أهذي في الأدب هذيانا، ولا أزال أشعر إلى الآن بالتقدير نحو هذا الصديق الذي صرف النظر عن مرضي وانهمك معي في حديث أدبي أقرب إلى عبث الصبيان، وإلى عبث للصبيان أقرب منه إلى حديث أدبي.

وفي اليوم التالي أعطاني والدي ورقة مالية كانت ضخمة في ذلك الحين وهو بادي الأضطراب وطلب مني أن أذهب في المساء لزيارة طبيب فرنسي أعطاني عنوانه لكي يفحصني وكان اغتباطي عظيما بالورقة لا لأنها سوف تسدد مصاريف الطبيب ولكن لأنها مكنتني من أن أقتني كتابا طالما صادفني اسمه أثناء مطالعتي دون أن أعثر عليه في المكتبة التي ابتاع منها كثيرا كما أسلفت.

ورجعت في مساء اليوم نفسه، وأنا أتأبط الكتاب المومرق لأخبر والدي بأن الطبيب فحصني فحصا دقيقا ثم أنبأني بأن علي أن أتابع نظاما خاصا في التغذية فقط، ولا خوف علي بعد ذلك مطلقا.

وبعد الرد على أسئلة والدي المنتظرة اختليت بالكتاب المومرق، وكان الترجمة العربية لكتاب ارستطاليس عن الأخلاق وقد صرفت وقتا طويلا في قراءة بعض الصفحات هنا وبعض الصفحات هناك دون أن أتمكن من أن أتصور الموضوع الذي قصد إلي التحدث عنه هذا الرجل الذي لابد أن يكون بالغ الأهمية لكثرة ما قرأت عن اجلاله وتبجيله ولا يقل ما قرأته عن ناقلة إلى اللغة العربية اجلالا وتبجيلا، وقد كان أسفي عظيما بحيث أنساني مرضي عدة أيام ولكنني قررت أن أضع الكتاب على الرف إلى أن يحل اليوم الذي أستطيع فيه فك رموزه، وما يزال موضوعا في مكانه إلى الآن.

ولقد طال مرضي، ولكن خيل إلي أن في استطاعتي أن أستمر في الحياة متحملا ما فيها من مرض لا بأس به ما دامت تشتمل على هذا الشيء العظيم الذي يدعى الأدب.

بل لعل المرض أن يمكن المرء من أن يستلقي في سريره ويحيط نفسه بعشرات من الكتب والأوراق ثم ينصرف إليها انصرافا روحيا ينسيه أعراض الجسم الفانية.

طال بي المرض حتى الفته على صورة قيل لي معها انه جزء مني، وأي عيب في أن أكون مصفر السحنة ضامر البنية مادام في استطاعتي أن أحمل في يدي كتابا ؟

ولست أدري كيف فارقني هذا الداء الوبيل ــ وكان وبيلا يكاد يطير معه صوابي كلما تذكرت مقدار ما قابلته به من عدم اكتراث ولكنني أذكر أن رجة نفسية عرتني وان هذهِ الرجة كانت عنيفة بحيث أغرقت مصابي في مصاب صديقي.

أجل صديقي الذي ذهبت زوجه في تلك الليلة من ليالي مرضي، فلقد جاءني بدوره حزينا ولم يكن هو الذي أصيب بمرض وانما كانت التي أصيبت به هي والدته.

جاءني زائغ المقلتين ولكنني لا أزال أذكر انه كان شجاعا، فلقد أنهى إلي بكل بساطة أنه لا يشك في أن والدته على وشك ان تلحق بأبيه الذي قضى نحبه منذ سنوات طويلة. ولذلك أصبح عليه أن يفكر في مركزه على ضوء جديد، ولما كنت ضعيف الاحساس بتجارب الحياة فإن كل ما كان في استطاعتي أن أقابل به هذا النبأ المفجع حقا ـــ وكنت أعرف مكانة والدته من حياته ـــ يتلخص في مزيج من الدهشة والتقدير، أما الدهشة فلهول الحادث واما التقدير فلهذه الشجاعة التي يقبل بها الغلام هذه الكارثة الفاصلة التي تحيق بحياته.

وفي مساء نفس اليوم أنهى إلي صديقي بنفس النبرات الثابتة ـــ وكنت أتذكر هنا موقفي حينما توفيت والدتي ـــ أن المريضة توفيت وأنه لم يصبح وحيدا في الحياة فحسب وإنما أصبح أيضا مسؤولا عن حياة أخيه الأصغر، ثم حدثني عما جرى بينه وبين والدته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وأردف صديقي : سأرحل في أقرب وقت مستطاع، سأرحل إلى بلاد السنغال لألتحق بأحد المتاجر هناك. وفي أقرب وقت مستطاع، رحل صديقي، رحل بعيدا إلى بلاد السنغال ولم يقع عليه بصري إلى الآن وأنا أخط هذه السطور وان كنت قد تلقيت منه رسائل وأشعارا عن طريق البريد.

على أن ما أصابني أنا من مرض ظل عالقا بي في إلحاح إلى أن غادرت البلاد ولا تزال الصورة التي تطالعني من الجواز الذي سافرت به تثير الرعب في قلبي كلما وقع عليها بصري وذلك لشدة ما يطالعني فيها من ضعف وهزال.

وأما الثانية، أعني وأما الحادثة الثانية التي عبثت باستقراري فهي حادثة حصولي على جواز للسفر تمهيدا لمغاردة البلاد وهي حادثة مفاجئة لم تكن في الحسبان ولكنها تمت في سرعة كنت أول من ذهل لها.

كنا مدعويين إلى حفلة عرس فأخذنا أمكنتنا في زاوية وثيرة قبل الغروب نلهو كثيرا ونجد قليلا على عادتنا في هذه الأيام الأخيرة التي قضيناها في المغرب.

وبينما كان أفراد جوقة الموسيقى يوحدون أنغام آلاتهم وهم يحدثون تلك الجلبة المحببة التي تعد النفوس لسماع أنغام الأندلس الغابرة أخرج الأخ المليح من جيبه شيئا طوحه بيننا، فإذا به معجزة، جواز سفر صادر عن السلطة وصالح للسفر إلى مصر، وكان مجرد التفكير في السفر إلى مصر كاف لوضع الانسان — وخصوصا إذا كان طالبا — تحت الرقابة وموضع الشبهة. وأنهى إلينا — ولم يكن قد فاتحنا في هذا الموضوع الذي أبقاه سرا بينه وبين نفسه إلى أن حصل على الجواز — أن السلطة تدبر نازلة تبطش فيها بالوطنيين، ولذلك فلن تمانع في صرف الجوازات لنا لكي لا نكون مصدر شغب حين يتم هذا البطش.

ولست أدري كيف تم العرس فقد زايلنا مرحنا جميعا وأصبح علينا أن نفكر في انتهاز الفرصة — أما أنا فتصورت نفسي وحيدا في فاس بعد سفرهم جميعا فركبني هم ثقيل.

وسارع غلاب يدعوني إلى الخروج، وخرجنا نحن الاثنان، وفي زاوية مظلمة يعلوها مصباح كئيب رأيت على وجهه تصميما لا مزيد عليه، وهو يقول لي : لا أريد تفكيرا ولا مناقشة فالأمر الآن جد كل الجد، عليك أن تنطلق من فورك إلى والدك وتطلب منه أن يسمح لك بالسنفر معنا، وكدت اغرق في الضحك ولكن عضلات وجهه التي كادت تكون مكفهرة خنقت ضحكي قبل أن ينطلق، وكدت أفتح فمي ولكنه عاد يصدر إلي

أوامره بأنه لا يريد تفكيرا، ونزلت هذه الرغبة في المنزل نزول الصاعقة، وضحك أبي ضحكة فيها كثير من العطف على خيالاتي، وأخذ يثير المشاكل، مشاكل البعاد والوحدة وعدم تعودي علي الحياة خارج المنزل ومشاكل المال ونذر الحرب.

وكنت أردف كل مشكلة يثيرها بسيل من الحلول.

وفي الصباح جاء الصديق ثابت وأخذ يهون الأمر على والدي وبعد زيارتين أو ثلاث قبل والدي أن يذهب إلى محكمة الباشا ليطلب لي جواز سفر كما تقضي بذلك القوانين بالنسبة لمن يريد أن يسافر دون سن العشرين.

وكان علي في أول الأمر أن أطلب موافقة «مقدم الحومة» وموافقته تعني الشهادة بأنه ليست لي سوابق، وقد نظر إلي الرجل متمعنا لأنه كان يعرف كل من سبق أن سجنوا من أبناء الحي، ولكنه كان من أصدقاء جدي فمنحني شهادته دون مماطلة.

ثم ذهبنا إلى المحكمة وسجل والدي الطلب وإذا بخليفة (نائب) الباشا يطلبني فلما مثلت بين يديه ــ وكان ضخم الهامة مترامي الأطراف أسود السحنة أبيض اللحية ــ أخذ يتأملني ثم سألني عن جدي وأبى وقال لي أنه يعرفهما وأنهما من خيار سكان المدينة ولكنه لاحظ أنني أشذ عنهما.

ولم أكد أحاول الرد على هذه الملاحظة حتى سألني : ألست أنت الذي كتبت المقالات الأخيرة في جريدة الأطلس ؟ فلما رددت بالايجاب قال : «ان هذا النوع من المقالات يرضيه، لأنها تطالب بالاصلاح الاجتماعي وهذا أمر متفق عليه. أما تلك المقالات الثورية التي تنتقد الحال فإنه لا يطيقها، وقد عاد إلي الاطمئنان وانطلقت عقدة لساني بعد أن تأكدت من أنه سوف لا يذكر حادث سجني، وأخيرا حدد لي يوما معينا لاستلام جواز السفر من الادارة التي تدعى «إدارة الاستعلامات».

أجل إدارة الاستعلامات، وما أدراك ما الصورة التي كانت عندنا عن هذه الادارة، انها مقر الحكام الحقيقيين للمدينة، لا تبرم فيها كبيرة أو صغيرة دون الرجوع إليهم، وهي تقفل أبوابها على آخر همسة في المدينة، وتفتحها على أول همسة، إدارة تعج بالموظفين المشكوك فيهم من الجواسيس الذين يدسون بعيونهم في كل مكان ويفتحون آذانهم جيدا إلى أن يملأوا جعبتهم بالأسرار ثم يقصدون هذه البناية الكئيبة ليفرغوها.

وفي خلال ذلك سافر الأخ (مليح) وحصل الأخوان غلاب وثابت على جوازيهما ثم جاء اليوم الموعود فلما ذهبت إلى الادارة المثيرة أخبرني الموظف المختص بأنه لا علم له بجوازي، فعلي أن أرجع في الصباح.

وفي الصباح كان علي أن أرجع في المساء.

وقد قضيت أسبوعا كاملا أزور هذه الادارة مرتين في اليوم لأسمع نفس الكلام، ثم سافر غلاب وازداد قلقي بعد أن أصبح ثابت يقول انه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر، وبدأ اليأس يسيطر علي ومع ذلك استمرت زيارتي للادارة مرتين في اليوم.

وفرح والدي بهذه النتيجة التي فرضت نفسها. فازداد غمي وشعرت بأن الحياة تزداد ظلاما وان مصيرا مروعا ينتظرني بعد ذهاب أصدقائي.

ولكن أحد الموظفين الفرنسيين طلبني في داخل المبنى بعد عشرة أيام، فلما جلست أمامه سألني هل أتقن الفرنسية فأجبته بالنفي فاستدعى مترجما، ثم أخذ يسألني عن نفسي فإذا بي أرد على أحد أسئلته مباشرة باللغة الفرنسية.. وقد نسيت المترجم، فاستشاط غضبا واعتبر ذلك مني تدليسا، فقد كان من الممكن أن يتفوه بما لا يجب أن أعرف، ثم عاد إلى هدوئه وأخذ يومئ إلي بأنه يعرف كل ما يتصل بي.

قال لماذا تسافر إلى مصر ؟

ـ لأن صحتي متدهورة وقد نصحني الطبيب بأن أقضي أياما في مصر.

قال : انك طالب وقد أزف موعد افتتاح الدراسة فكيف تسافر وتترك دروسك ؟

ـ ان تغيب فترة قصيرة في أول السنة لن يؤثر على دراستي.

قال بلؤم : أرى أنك تلميذ مجتهد إذن، وقد يخطر ببالك أن تلتحق بإحدى المدارس المصرية أليس كذلك ؟

فحملقت فيه بعينين زائغتين، كما لو كنت أريد أن أعرف ما يدور بخلده، وهل سوف يصل إلى قرار بشأن سفري على ضوء هذه الخاطرة.

ولكنه لم يفعل وإنما مد إلي يده بجواز السفر، فغادرت المكان في خفة الطائر بعد أن تطاير عني همي ويأسي.

ولم تنته مشكلة الجواز هنا فقد ضاع مني مرة أخرى في المنزل حينما أبرزته لوالدي فأخذه مني ووضعه في درج مكتبه ثم أدار فيه المفتاح، وقال انه فعل ذلك ليعيد النظر في الموضوع من جديد.

وكان على الأخ ثابت أن يزور والدي من جديد، وان يدور بينهما حديث طويل متشعب تتبعته بقلق دون أن أشارك فيه، ولكنه انتهى أخيرا بعودة جواز السفر، ثم أعلن الصديق اننا سنسافر غدا، وحاول أبي أن يؤخر سفرنا ولكن الصديق أخبره بأنه يخشى أن يغير والده هو أيضا رأيه وان الحوادث بدأت تسير من تلقاء نفسها ولذلك وجب أن نسافر بأسرع ما نستطيع.

وكان على حق، ذلك أننا أطلعنا في الصحف في نفس المساء الذي وصلنا فيه إلى مارسيليا على تفاصيل النكبة التي نزلت بالوطنيين. كنا كالذي غادر السندان قبل أن تطبق عليه المطرقة.

48

وبعد، فإن قصة طفولتي يجب أن تقف هنا، وأن امتدادها هذا نفسه فيه كثير من التجاوز، ولكن لم يكن من اللائق وقف الحديث قبل انتهاء مرحلة، وقد انتهت المرحلة التي أتحدث عنها بسفري إلى مصر، ولذلك فإن من المناسب أن أمسك، فإن عالما ثالثا قد امتد أمامي لا أستطيع أن أزعم فيه أني كنت طفلا.

وهذه السطور التي كتبتها بعيدة عن الاستقراء، وان كانت وافية المعالم وليس من المهم أن يعرف بها القارئ شخصي فما قصدت إلى ذلك وانما قصدت أولا إلى إرضاء رغبة في نفسي — وقصدت ثانيا إلى تسجيل حياة طفل عاش في بيئتين تكادان أن تكونا متناقضتين وإذا كان هذا قد توفر لكثيرين فما أظن أن الذين سجلوه الا أقل من القليل، ولذلك أبادر إلى القول بأن الموضوع الشخصي ليس هو الذي يجب أن ينظر إليه القارئ على أنه مهم في هذه الفصول، إذا صح أن لهذه الفصول أهمية ما، وأستطيع أن أزعم فوق ذلك أن كتابتها كادت تمكنني وأنا منكب عليها، منهمك فيها من أن أحيا حوادثها مرة أخرى، ولذلك يخيل إلي هنا أنني أودعها بمرارة أشد من المرارة التي ودعت بها طفولتي.

وإنني لأعود بالنظر إلى الوراء، إلى هذه الخطوط المتعرجة التي رسمتها آثار قدمي في سفح جبل الحياة.

فهل أنا الذي يكتب هذه السطور في المرحلة الرابعة هو حقا ذلك الطفل الذي ترك عند السفح تلك الآثار ؟

كلا، فإن جسمي غير جسمه، ثم ان الظروف غير الظروف، والمشاعر غير المشاعر، والتفكير غير التفكير.

فما كان يثير الفرح أو الحزن لا يكاد يثير شيئا الآن ولذلك فإن الذي سوف يصبح كهلا ثم شيخا ليس هو ذلك الطفل، ولا هو هذا الشخص الذي يكتب الآن ولكنه امرؤ آخر سوف يتغير جسمه والظروف التي يعيش فيها والمشاعر التي يحس بها والتفكير الذي يفكره، ليخلق منه ذلك كله وغير ذلك كله شخصا جديدا، وعلى هذا الشخص الجديد أن يتحمل مأساة مغادرة الحياة.

ولكن هل ضاع ذلك الطفل نهائيا وجاء غيره على الاثر كما قال الشاعر المرحوم ؟

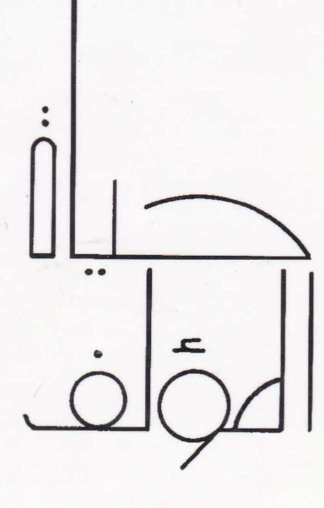
كلا أيضا.

فإن في مكان ما مني بقية من تلك الأيام الذاهبة، انها كاللبنة في أسفل الصرح صارت شيئا آخر ولكنها موجودة فيه على كل حال، وستبقى موجودة مهما علا الصرح قائمة بوظيفتها وان شأنها بالنسبة للناظرين، او للذين لا يتعمقون النظر بتعبير أصح.

لم يبق إلا أن أشير إلى أنه كان بودي لو قرأني من ورد ذكرهم في هذه الصفحات منذ وفاة مسز باترنوس إلى أن انتقلت إلى مصر، فأنا أذكرهم وأعبر لهم عن حبي وتعلقي بهم، ولكن الكثيرين منهم لا يعرفون عني شيئا، وخصوصا الزائفين...

فالتحية العاطرة للذين لا يزالون يسيرون على صفحة الكوكب الأرضي... والرحمة الواسعة لمن تزدحم رسومهم فوق صفحة القمر المنير، كلما تبوأ عرشه متلألئا في السماوات...





- من مواليد 1919 بالدار البيضاء.
- رحل به أبوه إلى مانشستر (انكلترا) وهو في الخامسة، وعاد به إلى فاس وهو في التاسعة.
- تلقى بقية تعليمه الابتدائي، ثم الثانوي، بالكتاب، ثم بالقرويين بفاس.
- مجاز في الأدب من جامعة القاهرة، وحائز دبلوم المعهد العالي للتحرير والترجمة والصحافة من نفس المدينة.
- ساهم في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، وتولى إدارته من سنة 1949 إلى حين استقلال المغرب.
- ساهم كعضو في الوفد الممثل للمغرب في مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز، وفي كل المؤتمرات التالية لهذه الحركة.
- كان من المنظمين لحركة تخليص الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي من أيدي الفرنسيين عند مروره بمصر من منفاه إلى فرنسا.
- نشر عدة مقالات بمختلف الصحف والمجلات العربية والدولية للتعريف بقضية المغرب قبل استقلاله، بالاضافة إلى مقالاته وأبحاثه الأدبية.
- تولى بعد عودته إلى المغرب على اثر الاستقلال :
  - رياسة تحرير جريدة العلم.
  - سفارة المغرب بالباكستان من 1958 إلى 1962.
  - نصب سفيرا بالادارة المركزية لوزارة الخارجية إلى أن توفي سنة 1981.
- نال جائزة المغرب للآداب والفنون ثلاث مرات.
- له آثار أدبية شتى، بعضها مطبوع وبعضها ما يزال ينتظر.
- وأشهر آثاره «في الطفولة» وديوان «براعم» ومجموعته القصصية «وادي الدماء»...
- رزق من زوجته المصرية التي مات عنها ولداه الدكتوران وائل وصفوان.

يطلب من دار نشر المعرفة
المخزن : 10 شارع الفضيلة
الهاتف : 64-79-79/63-79-79/38-69-79
الـــربــاط

48 د.